أوراقٌ مُكلَّاوِيَّة

أ. د. عبدالله سعيد بن جسار الجعيدي



المكية
مكتبة العالمية للنشر والتوزيع

أوراق مكلَّاوية

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م / حضرموت (٢١٥) لعام ٢٠١١م

عنوان الكتاب: أوراق مكلاوية

تأليف: د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

المقاس: ١٧ × ٢٤ سم

عدد الصفحات: (٣٢٠) صفحة

الصف الإلكتروني: عماد عوض عبد الله باحشوان- جوال: ٩٦٧٧٧٧٣٥٧٥٢٦+

الطبعة الثانية

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

كل الحقوق محفوظة

يُمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطّي من المؤلف.

مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع

مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع

غيل باوزير- م/ حضرموت- الجمهورية اليمنية

جوال: ٠٠٩٦٧٧١٣٨٧٨٩٤٣

Email: nsbawazir52@hotmail.com

أوراق مكلّاوية

تأليف

أ. د. عبد الله سعيد بن جسّار الجعيدي


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى صديقي.. بحر المكلا

محتويات الكتاب

الإهداء ٥

تصدير الطبعة الثانية ١١

مقدمة الطبعة الثانية ١٥

تصدير الطبعة الأولى ٢٧

مقدمة الطبعة الأولى ٣١

أولاً: من ذاكرة الزمان والمكان ٤٣

سكين القعيطيين ٤٥

سنبوق العم (صالح باسيف) ٤٩

(عنبة) والتشجيع الرياضي في المكلا ٥٢

قابوس: المزيف.. الغامض.. الحقيقي ٥٥

مئذنة ومؤذن ٥٨

الجد.. الابنة.. الحفيد ٦٤

خور المكلا وصراع الضفتين الشرقية والغربية ٦٧

نزعتُ منهُ... وغرستُ فيهِ!! ٧٢

مطلوب للشرطة ٧٥

قشارة سانجي ٧٧

وللطباخين عصرهم الذهبي ٨٠

شارع حمار بلصقع ٨٣

(مطراق) صلِّ على النبي ٨٨

ثانيًا: خواطر وتأملات ٩٣

عندما سيطر الحضارم على البترول ٩٥

الشحر في بغداد.. المريض والمداوي..... ٩٩
من قتل جارنا؟..... ١٠٢
الديك أولًا..... ١٠٤
بغداد.. الليل والعم قيس والكلاب ١٠٦
المرتقالة.. والبرتقالة..... ١١٤
وللكويت.. كلمات وفاء..... ١١٧
المكلا والصيف..... ١٢٠
ثقافة الصيف ورهافة الشتاء..... ١٢٢
كلمات في الرياضة وشوطات..... ١٢٥
عشاء رياضي سيئوني..... ١٣٠
جنة (إندع) وناره..... ١٣٤
ثالثًا: رجال في محطات ١٣٧
عكاشة.. الحنين إلى المكلا ١٣٩
عبد الرحمن الملاحي.. ذاكرة الشحر..... ١٤٤
الأستاذ علي البيتي.. عندما يخلص الرجال..... ١٤٨
الأستاذ مدرك عبيد مدرك (مسرحة الدرس)..... ١٥١
العم عمر.. رجل من زمن مضى ١٥٥
القدّال ثنائية العلم والتواضع ١٥٨
رابعًا: حكايات مهجرية..... ١٦٥
خالي في طريقه إلى خاله..... ١٦٧
جدتي.. ودموع بأثر رجعي..... ١٧١
عندما بكت حبيبة ١٧٤
ضحكت صفية وبكت..... ١٧٧

بشرة سوداء وقلوب بيضاء ١٨٠
الوفاء بالوفاء ١٨٣
أيام من الشدة في الطريق إلى جدة ١٨٦
مال ما هو في بلادك لا لك ولا لعيالك ١٩٤
والرزق أحيانًا يحب (الجنبية) ١٩٨
رب (خصام) خير من ألف ميعاد ٢٠٢
الزعامة الحضرمية في أدغال أفريقيا ٢٠٦
خامسًا: رمضانيات ٢١١
أهلا رمضان.. عذرا رمضان ٢١٣
رمضان في المكلا.. بين بازرعة ومشهور ٢١٥
المكلا... مدينة تحييها مساجدها وتحميها ٢٢٢
المكلا ورمضان.. موعد مع الفرح ٢٢٨
الغاضبون في رمضان ٢٣١
الفاسدون في رمضان ٢٣٣
المكلا والعيد ٢٣٥
سادسًا: المكلا بملامح هندية ٢٣٩
المكلا هند.. ''سينما'' ٢٤١
المكلا هند ''عائلات'' ٢٤٥
المكلا هند ''أكلات'' ٢٥١
المكلا هند (عمران) ٢٥٥
سابعًا: سمر مكلاوي ٢٥٩
قبيلة رؤساء التحرير ٢٦١
لغتنا الجميلة وكيف نحافظ عليها ٢٦٤

ليالي ملاح.. ربانها مَلاح ٢٦٩
الثقافة الجنسية وإشكالية النظرية والتطبيق ٢٧٣
ودائما تمضي المقادير ٢٧٦
سمر وسمسرة ٢٨٠
حياكة الحكاية ٢٨٦
هموم ثقافية وهم مثقفين ٢٩٠
مواضع التواضع ٢٩٤
جان في بيت شعبان ٢٩٧
رجال في تنازل إلى زوال ٣٠٠
والبخيل من لم يصلِّ على النبي ٣٠٥
نساء فرقن الرجال ٣١٠
لا تفرح بالورث يا موروث ٣١٤
سمر بمعروف أو فراق بإحسان ٣١٧



تصدير الطبعة الثانية

قصة تشكل هذا الكتاب أوردتها في تصديري (التوطئة) للطبعة الأولى الصادرة عن دار حضرموت للدراسات والنشر عام ٢٠١١م، وقد وجدت من المناسب بمكان بعد مضي عشر سنوات على إصدار الطبعة الأولى ونفادها من المكتبات، إعادة طباعته بحلة جديدة تتجاوز ما شاب الطبعة الأولى من أخطاء طباعية وهنات، مع الاحتفاظ بنص الكتاب كما تشكل في بداية عهده. وفي ذلك التصدير ذكرت أسماء زملاء قدموا لي مساعدات ونصائح مفيدة. أما أبطال هذه الطبعة الثانية فهما: الصديقان الأديبان نجيب سعيد باوزير، والدكتور طه حسين الحضرمي.

فعندما خطرت لي فكرة إعادة هذه الطبعة خطر لي مباشرة اسم الأديب والمترجم الأستاذ نجيب سعيد باوزير، فقد سبق أن دخلنا معًا في مشاريع ثقافية مشتركة، ونجيب أخذ من الهندسة المدنية - تخصصه الجامعي - دقة البدايات ومحاذيرها، ووضوح هيكلية العمارة، وسلامة قواعدها، وفيما عدا هذا كما أزعم فهو بعيد عن الهندسة قريب من الأدب والثقافة بعموميتها، ولهذا وأنا بصدد إعادة بناء الكتاب لجأت إلى ثنائيته بوصفه مهندسًا وأديبًا، وبسند الصداقة تفهم شكواي له بمشاغلي في الجامعة وفي رئاسة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، ووافق مشكورًا كريمًا على المراجعة العامة للكتاب، والعناية به، كما تفضل ووافق على صدور الكتاب عن دار النشر التابعة له (مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع). وما دمنا نتكلم عن القواعد الهندسية فإن الأديب

نجيب استند من ناحية الأسرة إلى أربع قامات ثقافية وزيرية هم: والده سعيد، وأعمامه محمد، وأحمد، وسالم أبناء الشيخ عوض باوزير، وساعدت هذه البيئة الصالحة في قوة تشكل البدايات، والأساسات، والاهتمامات، وقد غرس الأديب نجيب جذوره العميقة بجهوده الخاصة، وسعة اطلاعه، وعشقه للثقافة وما قرب إليها من قول أو عمل، فله مني عظيم الامتنان وجزيل الشكر.

أما الأديب (المكلاوي) الدكتور طه حسين الحضرمي فلم يكن بعيدًا عن أجواء الطبعة الأولى ولا عن تفاصيل الكتاب التي هي حكايته وحكاية جيلنا وحكاية مدينة المكلا وحضرموت والثقافة بكل فضاءاتها الإنسانية، لهذا استحسنت تقديمه لهذه الطبعة، وعندما حادثته في الأمر وجدته قد سبقني بكتابة قراءة للكتاب كان يزمع نشرها في مجلة (حضرموت الثقافية)، فرشحها لتكون هي المقدمة لهذه الطبعة الثانية، وبهذا تلاقت القلوب قبل الكلمات والبدايات.

ويطيب لي في هذا المقام الإشارة إلى دوافع اختياري لكتّاب لهم باع كبير في الكتابة لتقديم كتبي التي تصنف في باب المقالات الأدبية دون غيرها من كتبي التخصصية التاريخية التي عادة ما أكتب مقدماتها، ويمكن أن أعزو ذلك إلى ولوجي في مسالك تبدو مغايرة لاشتغالاتي التاريخية؛ ولهذا رأيت أن أهل الأدب أدرى بشعابها، ثم إنهم قامات مشرّفة، فكان اختياري للأديب الصديق الدكتور سعيد سالم الجريري لكتابة مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب (أوراق مكلاوية)، وكتب الأديب الأستاذ الدكتور عبدالله حسين البار مقدمة كتابي (عابر

سبيل)، وفي طبعة الكتاب الثانية كتب الأديب نجيب باوزير تصديرًا له أقرب ما يكون إلى التقديم. وها هو الحظ يحالفني وينضم إلى هذه الكوكبة الرائعة الدكتور طه حسين الحضرمي، فكم أنا سعيد وممتن لهذا الحضور المبهج، ولا أريد مناقشة من يعمم القول إن مقدمات الكتب التي يكتبها غير أصحابها عادة ما تثقل بالمجاملات، وهو قول لا يبعد عن الصواب خاصة عند أولئك الكتاب الذين لا يحترمون تاريخهم الكتابي، وعلى أية حال فإن (العطار) لا يصلح ما هو فاسد من الكلمات وإن ألبسها ثوبًا غير ثوبها، أو ستر عيوبها بغطاء اسمه وشهرته.

وقبل أن أختتم لا بد أن أشكر الشاب المتعاون عماد عوض باحشوان الذي تكفل بتنسيق هذه الطبعة وإخراجها الفني، وبقي أن أعتذر لمدينة المكلا لتطاولي على ذكر تفاصيلها التي هي أجمل من كل الكلمات.

عبدالله

القاهرة ٢٢/ ١٠/ ٢٠٢١م



مقدمة الطبعة الثانية

د. طه حسين الحضرمي

عبدالله سعيد الجعيدي من أبناء المكلا المتميزين ممن ذابوا عشقًا في أعطاف عروس بحر العرب، ثم ترجموا هذه المحبة إلى أحرف مضيئة. فلم يكن بدعًا في مجال الإبداع الأدبي؛ لأنه يمضي على خطا سلفه من المبدعين محبي هذه المدينة الساحرة؛ من مثل الشاعر خالد عبدالعزيز صاحب (بعد المكلا شاق) الذي جعل هذه الأحرف تتوهج في متون ديوانه (المكلا)، والقاص والروائي صالح باعامر الذي أشعل الشوق في هذه الأحرف في روايته (المكلا) وفي أغلب أقاصيصه.

قد يتساءل متسائل فيقول: لماذا هذا الاحتفاء المبالغ فيه بمدينة مثل المكلا. أليست هي مثل بقية المدن إن لم تكن أقل شأنًا منها؟ ما المميز فيها؟ أفي سكانها أم في مكانها؟ أفي جبلها أم في بحرها؟ أفي مناخها أم في شمسها؟

التساؤل في جوهره مشروع، بيد أنه غير مستساغ؛ لأن الأمكنة لها مقياس يرتكز على العواطف والمشاعر لا بالجغرافيا ولا بالمناخ. وما صاحب صرخة (آه.. يا القِيْمِه) في بلاد الهند مستنشقًا نفحاتٍ من بلاده (القيمة) بأرض حجر إلا أنموذجًا مثاليًا لهذا التعلق بالأمكنة.

(١)

هل للذاكرة مرافئ تسكن إليها حين تغزوها الخطوب؟!

يقال إن هناك ثقبًا في الذاكرة يشبه ما نسمع عنه في السنوات الأخيرة عن ثقب في الأوزون، وقد يزيد الأمر عن حدّه فتصبح عندنا عدة ثقوب في ذاكرتنا الفردية والجمعية. بيد أن هناك علاماتٍ خطيةً بارزةً في هذه الذاكرة لا يمكن اختراقها أو الاقتراب منها لأنها حادة الزوايا مصقولةٌ متونُها مثل المرايا. شبيهةٌ بمرافىء مجهولة تَسْكُنُ إليها سفن الذكريات؛ لكنها قد تختفي وراء الضباب الحياتي المعتم حينًا والشفاف أحايين كثيرة الذي يغشّيها مثلُ الندى في الغدوات أو يغطيها كغُبْشَة الليل في العَشِيَّات. كما قد تعتليها غشاوة طارئة مثل غَشْيَةِ الموج، غير أنها لا تزول ولا تفنى؛ لذا فهي تحتاج إلى يد حانية تزيل عن متونها ما علق فيها من غشاوة الغُبْشة، وما أحاط بها من ندى الضباب، وما احتواها من عنفوان زبد الموج.

فها هي اليد الحانية تتمثّل في أوراق الجعيدي المكلاوية التي أحمدُ إليها هذا الفعلَ النبيلَ؛ لأننا في أمس الحاجة في هذه الأيام العصيبة إلى أياد حانية تمسح برقة على ذاكرتنا الفردية والجمعية لتزيل عنها ما علق بها من غبار النسيان فتجلوَ الغشاوة عن صَبَوَات الزمن الجميل.

أثارت هذه الأوراق شجنًا ظل يعزف مدةً من الزمان في أعماقي ألحانَ الشوق والحنين إلى أيام الطفولة والصِبا في أحضان أزقة مدينتنا الجميلة (المكلا) وحواريها؛ فأعادت الحياةَ إلى مرافىء الذاكرة لترسوَ فيها سفنُ الذكريات، وسأكتفي في هذا الهامش بأربعة مرافىء أيقظتها نسماتُ هذه الأوراق العليلة.

المرفأ الأول: قصر السلطان القعيطي

يقع هذا القصر فوق لسان يمتد على الساحل عند بداية مدخل المكلا الرئيس والذي كان يعرف قديمًا بـ(برع السدة) حي السلام حاليًا، أقيم هذا القصر في عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي في حدود سنة (١٩٢٤م) أو (١٩٢٥م). ويتكون من ثلاثة أدوار يحيط به سور بمساحة كبيرة وبناؤه متأثر بطابع العمارة الهندية الذي كان شائعًا في المكلا آنذاك.

كان هذا القصر في طفولتنا يثير فينا هيبةً وفضولًا. فقد كنا نمشي على مبعدة منه فننظر إليه بإعجاب ممزوج بدهشة وإجلال. ونرسم بأعيننا على حيطانه العالية أهلّة الشوق والحنين إلى تاريخ أجدادنا الأمجاد ممن أفلتْ نجومُهم الزاهرة في تلك الأيام وأعني بها مستهل السبعينيات. وقد عُرف هذا القصر في أوساطنا باسم (القصر) من باب العهد الذهني.

ثم تذللت السبل إلى ولوجه فكنا نلج إليه بعد أن أصبحت أبوابه مشرعةً. فأصبحت أقدامنا الصغيرة تزغرد في فنائه الفسيح فتستشرفُ أعيننا الحالمة عبر سوره البحري المتآكل جآذر بحر (المشراف).

المرفأ الثاني: قشارة سانجي الموءودة:

هذه (قشارة) وُئِدتْ بكبس كان آنذاك ثقيلًا على نفوسنا، وقد ترجم المبدع باعامر هذا الإحساس في قصة شعرية بديعة بعنوان (إنهم يشنقون البحر)، ثم نُشرتْ في مجموعته القصصية (دهوم المشقاصي) بعنوان (لغة الأمواج) إن لم تخني الذاكرة وكثيرا ما تفعل.

لم أعلم أن لهذه (القشارة) اسمًا إلا من كتاب صديقي الجعيدي. وهي تسمية خاضعة لمسوغات مكانية وحدثية خاصة. أثارت هذه (القشارةُ) وأخواتُها ذاكرةً قد علاها الصدأ عن أيام البحث عن (الصني= الطُعم) تحت هذه القشارة وأخواتها؛ وذلك باستخراج ديدان الرمل بطرائق أشتات.

المرفأ الثالث: (العَيْقَةُ) والنشاط الرياضي:

(العَيْقَةُ) هي المجرى المائي الفاصل بين المكلا (الجانب الشرقي) وشرج باسالم (الجانب الغربي) التي حلّ محلّها اليوم (خور المكلا). وهي لفظة فصيحة تعني الفناء من الأرض وساحل البحر وناحيته وجمعها (عَيْقات).

وقد كانت لنا - نحن أبناء حي الشرج (حي العمال)- صولاتٌ وجولاتٌ في هذه (العَيْقَة) التي كنا نعدّها آنذاك ملكية خاصة بنا. شهدت (العَيْقَةُ) نشاطًا رياضيًا متميزًا في سبعينيات القرن الماضي وقد أسهمت في تغذية أندية المكلا الشهيرة (المكلا- التضامن- الشعب) بجملة من أشهر لاعبي كرة القدم من أبناء جيلي من مثل صالح الشاحث عليه رحمة الله؛ الذي كان أبرزهم شهرةً آنذاك. وكان الصراع على أشدّه بين أبناء الحيّيْن ولاسيما على ملاعب (العربي) و(الزمالك) و(الصاروخ) الواقعة في الجهة الشرقية من (العَيْقَة) من جهة (باجعمان) بجوار ورشة تعاونية النجارين سابقًا.

الملاعب السابقة كانت تابعة لأشهر فريقين من الحي الشرقي هما (العربي) و(الزمالك). وفي أغلب الأحيان كان أبناء حي الشرج هم المنتصرين في امتطاء

صهوة هذين الملعبَين المشهورَين إلا إذا دفع أبناء الحي الشرقي (الإتاوة) المفروضة عليهم. وهذا يؤيد تاريخيا أن الخور يخضع جغرافيا لشرج باسالم.

المرفأ الرابع: (قابوس) الغامض:

كانت هذه الشخصية تمثّل رعبًا يزلزل قلوبنا الطرية في طفولتنا. هي شخصية سردية بكل مقومات شخصيات نجيب محفوظ. و(قابوس) لقب لرجل شبه مجنون ينتمي إلى آل (بن علي جابر) ذوي الأصول اليافعية. يتميز (قابوس) ببنية جسدية متينة وهو ذو عضلات مفتولة ورأس أصلع ولحية موفورة وكنا نطلق عليه (أبو دقن) وأعتقد أنه كان من قلائل الملتحين آنذاك!. وكان يسير دائمًا محتضنًا حقيبة قماشية تحتوي مصحفا من المصاحف التي كانت شائعة آنذاك من مطبوعات الهند، وكنا نطلق عليها المصاحف الهندية.

والمرافئ كثيرة وهذيانها لا ينتهي.

(٢)

ينتمي هذا الكتاب – نوعيًا– إلى الخاطرة الأدبية ذات النكهة السردية – إن جاز التعبير– وهو نوع شاع عند بعض كُتّاب المقالة الأدبية في عنفوان تطور النثر الفني في أدبنا العربي الحديث، وقد حمل لواءه المازني الذي كان يخلط الواقع بالخيال فشاعت في كتاباته أشكالٌ سردية تحمل في أحشائها تجاربه الذاتية كما في كتابيه (خيوط العنكبوت) و(صندوق الدنيا) وغيرهما، وهو نوع نثري انصرف عنه اليومَ كثيرٌ من الكتاب.

فالجعيدي في كتابه هذا يحكي وقائع تاريخية ولكن بمحركات سردية فذة تستشرف آفاق السرد ممتطيةً واقعًا له مرجعية تاريخية بمفهوم التاريخ الفضفاض؛ لهذا يكثر في سردياته التصوير من خلال الوصف والتعبير بوساطة ألفاظ تتجلى في متونها الشعرية؛ فهاك مثلًا شرودًا لا يغني عن سواه ولكنه يدل بأصبع الإشارة على هذه السردية الشاعرة. فهو في أثناء سرد تاريخ بناء (مسجد مشهور) يشخّص مئذنتَه الوقورَ قائلًا: (ومنذ تأسيس المسجد والمئذنة قائمة مشرئبة برأسها في تواضع الزاهدين ويقظة المصلحين ترمق زوار مسجدها من جميع الاتجاهات. ولعلها تنظر إلى مجاوريها بشفقة وحنان حينما تراهم يلهثون ويكدون أو يلعبون في الدنيا بحثًا عن سعادة وأمل بعيدًا عنها وعن مسجدها الطاهر. وفي واقع الأمر هي ليست بعيدة عنهم فهي تشاركهم أفراحهم وأحزانهم.كما أن لها أفراحها الخاصة في الأعياد والمناسبات الدينية تجدد فيها زينتها وتترصع بقلائد من نور، لعل ذلك يدخل السرور في نفوس المؤمنين المداومين ويشد انتباه المؤمنين المتخلفين).

وللجعيدي سردٌ شجيٌّ امتزج فيه الحنين إلى الماضي بالحزن والأسى عن صخرة كانت مغروزةً في شاطئ من شواطئ المكلا وتحديدًا على مرمى حجر من قبة (المحجوب) وعلى مرمى بصر من بحر (المشراف) و(القصر). وهذه الصخرة في تشكّلها الطبيعي عند (المدّ) تغدو جزءًا من البحر المكلاوي فتلتحم به التحام الحبيب بمحبوبه ثم تفارقه في حالة (الجزر) لتغدو جبلًا صغيرًا يرنو إلى البحر بعيني عاشقٍ مُدَلَّهٍ يروم وصال محبوبه.

يصنع الجعيديّ من هذه الصخرة فضاءً سرديًّا وجدانيًّا تذكرنا بقصص العشّاق في السينما الهندية التي كانت من متع طفولة جيلنا؛ ولاسيما الفيلم الشهير آنذاك (Ek Phool Do Mali) الذي أنتج عام ١٩٦٩م. عُرض هذا الفيلم في (السينما الأهلية) بالمكلا مستهل سبعينيات القرن العشرين فاشتهر في الأوساط المكلاوية بعنوان (ولدي). والفيلم من بطولة الممثل الوسيم (سانجي خان) الذي أصبح البطل الواقعي لحكاية (قشارة سانجي)؛ و(القشارة) بلهجتنا المكلاوية هي الصخرة البحرية.

تحوّلت هذه الحكاية الواقعية التي عايشها المؤلف إلى تَخْيِيل سرديّ ماتع يمثّل الفضاء فيه مكوّنًا انطولوجيًا ذا بُعد فانتازي تُؤنسن الصخرةُ فيه؛ فتصبح شخصيةً لصيقةً بالشخصية الرئيسة بوصفها عتبةً لغويةً (قشارة سانجي) وبوصفها محركا من محركات الأحداث السردية. ظلت هذه الصخرةُ شامخةً بعد غياب فارسها العاشق الولهان مدةً من الزمان حتى أزاحها كائن ثقيل الدم أطلقنا عليه اسما يحمل ما بداخلنا من رفض لوجوده (الكَبْس) كأنّه كَبَسَ على أنفاسنا فحرمنا من أجمل متنفساتنا البهيجة وكأنه ليل امرىء القيس الذي جثم ولم يغادر.

نصوصُ الجعيدي مخاتلةٌ يمتزج فيها الواقع بالمتخيّل. فكثيرٌ من حكاياته مكتنزةٌ بالسرد - إن صحّ التعبير- يمارس الجعيدي من خلالها لعبةَ السرد الأثيرة التي يمارسها المؤلف دومًا على القارىء؛ ليقومَ كلٌّ منهما بوظيفته المرسومة بدقة منذ نشأة السردية الشفاهية ثم المكتوبة فيما بعد دون إخلال أحدهما بهذه الوظيفة في إطار مفهوم نظرية التلقي كما قرره منظروها من مثل ياوس وايزر

وغيرهما ممن أرسى دعائم هذه النظرية؛ انطلاقًا من أبرز مكوناتها المتمثلة في ثنائية (الإرسال/ الاستقبال)؛ لأن النصوص ليس بإمكانها أن تتناسل ذاتيًا، كما أن المبدعين ليس بإمكانهم في إطار معطيات هذه النظرية ادّعاء (الامتلاك الأحادي) لنصوصهم الإبداعية على الرغم من كونهم أول مَنْ منحها حقَّ الحياة ورقيا بشكل خاص؛ ففي هذه الحالة لا يقلّ (المتلقي/ المستقبل) أهميةً في إنتاج النص من (مؤلف النص/ مرسل الرسالة)؛ موازيًا لميدان قريب من تجليات (سلطة القراءة) في إطار مفهوم (تعدد القراءات) استنادًا إلى استجابة المتلقي لتداعيات النص الإبداعي والتفاعل معه بوساطة آفاق متسعة من التوقعات.

فكثير من هذه النصوص السردية (الجعيدية) تنفتح على أشكال (المازني) السردية المُشْبَعة بالذاتية ذات المآلات القرائية المنفتحة على التأويلات؛ فإبراهيم المازني (المؤلف/ الإنسان) ممتزج بإبراهيم (الشخصية الورقية) في كثير من سروده من مثل (إبراهيم الثاني) و(إبراهيم الكاتب) وحاضرٌ بفكره وآرائه كما في (في النافذة) و(صندوق الدنيا) و(خيوط العنكبوت)؛ لإضفاء المتعة على كتاباته وإدخال البهجة إلى قلوب قرائه/ متلقيه فينبسط النص السردي أمامهم لتتعددَ القراءات على وفق اتساع فضاء التأويلات.

(٣)

لكل كاتبٍ بصمتُه الخاصة التي تتجلّى في مظاهر أسلوبه. وقد اختط الجعيدي لنفسه أسلوبًا خاصًا، لا تكاد مقالة من مقالاته تخلو منه. من هذه

الأساليب استخدام الكاتب بعض التراكيب الخاصة التي تداولتها الألسنة معبرةً عن ثقافة خاصة بهم مثل الأمثال والأساليب المسكوكة، بأسلوب بلاغي يعيد إنتاج دلالتها.

يستخدم الجعيديُّ أسلوبًا غريبًا خاصًا في هذا الكتاب لا يحيد عنه قيد أنملة يسير فيه على نهج يخالف الشائع في الكتابة. فهو يفسّر الكلمة الفصيحة بما شاع من كلمات دارجة عند أهل حضرموت وأبناء المكلا بشكل خاص ويضعها بين علامتي تنصيص أحيانًا و بين قوسين أحيانًا أخرى؛ كأنه يؤكّد على هُويّة هذه الأوراق المكلاوية، وهَاكَ أمثلةً شُرُدًا للإشارة إلى هذه الظاهرة الأسلوبية – بوصف الأسلوب هاهنا نسقًا كتابيًا خاصًا ونظامًا إنشائيًا يختطه الكاتب لنفسه دون غيره من الكُتّاب – التي غدتْ سمةً مميزةً في جُلّ كتابات الجعيديّ لا في هذا الكتاب فحسب؛ يقول وهو يصف لحظة تأهب الطلاب ولاسيما الصغار لمغادرة المدرسة وهي اللحظة المبهجة التي يصاحبها الضجيج والازدحام مع محاولة بعضهم استكمال كتابة ما تبقى عليهم من واجبات: «كانت المدرسة تعجّ بحركة السراح (**الديار**)...» من مقال (مطلوب للشرطة). وفي موضع آخر يصف اللحظات التي يتهيأ فيها الطباخون للطبخ بمساعدة طوعية من أبناء الحي قبيل صلاة الفجر وبعده فيقومون «بوضع الأخشاب و(**القصام**)...» من مقال (وللطباخين عصرهم الذهبي). و(القصام) في اللهجة الحضرمية هي سعف النخيل اليابسة.

كما يستخدم الجعيدي (التناص) من خلال التفاعل والتحاور بين النص السابق والنص اللاحق بوساطة إدماج القديم في الجديد والسعي إلى صنع ذاكرة

فنية أدبية تتخطى الحدود الزمنية والمكانية؛ وذلك بإعادة الإنتاج للدلالة النصية بمحركات صياغية تبطن دلالاتٍ تحتكم إلى السياقات الخاصة بالنصوص السابقة ومآلاتها الفكرية وأبعاد آفاقها المعنوية على وفق ورودها سواءً أكانت من مُحْكم التنزيل أم من ديوان العرب الأزلي أم من مَسْكُوكَات نصية مأثورة أيْ تعبيرات عربية مسكوكة جرتْ في ذيوعها وانتشارها مَجْرى الأمثال المتداولة قديما وحديثا.

يلجأ الجعيدي إلى محاورة النص (السابق) ثم يقوم بالتبديل الجزئي لإحدى مكوناته التركيبية في إطار الوظيفة التحويلية دون المساس بالمبنى العام له؛ لأغراض بلاغية تُستشف من السياق العام للنص الذي يَرِد في عتبته أو في متنه هذا النصُّ (اللاحق).

ففي إحدى عتباته يقول: (رب (خصام) خير من ألف ميعاد) باستبدال كلمة (خصام) بكلمة (صدفة) للإشارة بطرف خفيّ إلى مآلات الشتات والضياع في التغريبة الحضرمية. ويصنع مثل ذلك في عتبة (والرزق أحيانًا يحب الجنبية) مستحضرًا المثلَ المصريَّ الشهير (الرزق يحب الخفِّية) بتغيير يسير من خلال استبدال كلمة (الجنبية) بكلمة (الخفِّية) وإضافة كلمة (أحيانًا) إلى التركيب مع حضور حرف (الواو) للدلالة على استمرارية التناسل السرديّ في حكايات الجعيدي المتتابعة.

وفي إطار الامتصاص النصّيّ يجعل الجعيدي أنشودةَ المقاومة الفلسطينية الشهيرة (أناديكم أشد على أياديكم) - من ديوان الشاعر الفلسطيني توفيق زياد (أشد على أياديكم)- نصًا مرجعيًا يعيد صياغته ولكن في إطار الحديث عن

الانتماء إلى المكان. فهو يقول في حديثه عن تغيير الكورنيش (الكبس) لملامح مدينته الحبيبة (ولكن البحر لا يزال ينادينا والجبل يشد على أيادينا)؛ ليكونَ الجامع الدلالي للنصين هو أثيرية (المكان) المفتقَد في (الواقع) والراسخ في (الذاكرة) المتأبية على النسيان.

(٤)

للمكان حضورٌ لافتٌ في هذه الأوراق ابتداءً من العتبة الرئيسة (أوراق مكلاوية) مرورًا بمعظم نصوصها التي تعبق بأنفاس مكلاوية مميزة. فالمكان هو كناية عن قاطنيه بحسب تعبير سيزا قاسم، فطبيعة الإنسان مرتبطة بطبيعة أمكنة وجوده من الحي الذي يسكن فيه ثم المدينة ثم البلد وهكذا. وتتحدد انتماءاته الفكرية من خلال طبيعة سكناه أهو من الريف أم من المدينة، ففروقاتُ الأمكنة تحمل دلالاتٍ عميقةً مُتَجَذِّرَةً في وجدان الإنسان تُسْهم في تشكيل الوعي الإنساني عمومًا فتكون أكثر حضورًا في وعي الأديب الفنان.

يعيش الجعيدي في هذه الأوراق انغمارا حَمِيمِيًّا مدهشًا بهالات الفضاء المكلاوي ولكي يُشْركنا معه في انغماراته الوجدانية هذه يرسم لنا خارطة أشبه بالرسم (الكروكيّ) لحيّه السكنيّ - أو (حافته) بالتعبير المكلاوي- في أضيق نطاقاته (شارع حمار بلصقع) بوصف هذا الشارع جزءًا من حي السلام (برع السدة) صعودًا من البحر إلى سفح الجبل؛ متلذذا بذكر الأمكنة التي تشكّل هذا الشارع وربطها بأعلام أصحابها، مستخدمًا في وصفه هذا تقنية (نظرة عين الطائر) التي يصفها صاحبنا بوريس أوسبنسكي بأنها نظرة شاملة للمشهد الموصوف من

وجهة نظر واحدة عامة، ولا يتأتَّى هذا الأمر إلا إذا توفّر للواصف المراقب موقعٌ عالٍ يحيط بكل تفصيلات المشهد الموصوف. فهذه الأوراق في عموم تجلياتها تُبرز هُويتَها المكانية الخاصة من العتبة الرئيسة من خلال نعتها بـ(المكلاوية) ثم تتكشف هذه الهُويةُ رويدًا رويدًا في تضاعيف نصوصها عنواناتٍ ومتونًا.

وفي الختام لا يسعني إلا أنْ أشدّ على يد صديقي الأكاديميّ المتميز الدكتور عبدالله الجعيدي الذي أحمدُ اللهَ إليه أنْ منحنا متعةَ الجلوس إلى هذه المائدةِ الحافلةِ بأطايبِ الأطعمةِ والأشربةِ ذاتِ النكهةِ المكلاوية المتميزة؛ بكرم حضرميّ فيّاض عميم. فدونَك - عزيزي القارىء - هذه المائدةَ العامرةَ بلَذّةٍ لا ينفدُ أُوَارُ اشتعالِها ما دام في أعماقنا عقلٌ وقلبٌ يتوهّجان بعطاءات الإنسان الفكرية والوجدانية أينما كان وكيفما كان.



تصدير الطبعة الأولى

ما كان لهذه الأوراق أن تنتهي إلى مستقرها في هذا الكتاب لولا أمور كثيرة دفعتها إلى ذلك السبيل دفعًا، ولعل مفردات مهادنة مثل: الصدفة، التلقائية والعفوية قد تفصح عن ما نظنه السر الجوهري لهذه الحركة الدافعة.

في منتصف ثمانينيات القرن الماضي تسنمتْ أوراقَ المجلات الحائطية المعلقة على جدران مبنى كلية الآداب والتربية والعلوم بالمكلا مقالات الطلاب، وعلى صفحاتها كانت إرهاصات عهدنا مع الكتابة وبداية تواصلنا – وللبدايات رمزيتها – مع الصديق والزميل الطالب سعيد الجريري رئيس تحرير مجلة من مجلات ذلك الزمان.

ومع غروب شمس أيام الدراسة الجامعية الأولى، ولما يقارب العقدين من الزمان غصت في قاعات دراسة التاريخ وتدريسه، وتهت في دهاليز كتابته. بيد أن هناك نداءات داخلية كانت تدفعني إلى مرافئ تبدو مغايرة بعض الشيء عن اهتمامي الأكاديمي التخصصي، ثم ما لبثت هذه النداءات أن تحولت إلى هتافات متقطعة تهز أعماقي في أثناء محاولاتها للخروج. واستوعبت صحيفة شبام الصادرة عن دار باكثير للصحافة والنشر والتوزيع الصرخات الأولى. ولكن لم يقدر لهذه الصحيفة احتضان هذه الهتافات أو استفزازها رغم سعيها للحصول على سبيل.

مساء ليلة مكلاوية كان الصديقان الدكتور سعيد الجريري والأستاذ صالح

الفردي في مكتبة من مكتبات مدينة المكلا. كانا مع ثالثهما الدكتور عبد القادر باعيسى يجهزون لإصدار (نشرة آفاق حضرموت الثقافية) فطلبا مني مقالًا للنشر فوعدتهما خيرًا. ومن قريب قدمت لهما مقالين بعنوانين مستقلين وعنوان مشترك (أوراق مكلاوية). وعندما صدر العدد الأول من تلك النشرة تضمن مقالًا واحدًا في عمود باسم أوراق مكلاوية، وعندما عاتبت الأصدقاء على فعلتهم التي فعلوها قالوا قول الواثق من نفسه والحاكم بأمره: "هذا عمودك الأسبوعي ولا بد من المزيد ولا خيار من أمامك ولا من خلفك".

بهذا أجبرت على الاقتراب من الهتافات القديمة المنغصة واضطررت إلى استدعائها علها تجد لها في ذلك العمود مكانًا تستند إليه، وترتاح فيه. ثم تدفقت المقالات وتجاوزت الالتزامات، ولم تكترث بتعثر نشرة الأصدقاء، وهكذا ولد الحرف حروفًا، والكلمة جُملًا، والجُمل ولدت صفحات والصفحات صارت أوراقًا، ثم إن معظم تلك الولادات تناثرت في مجلات ومواقع الكترونية لكنها ما برحت تحمل في الآفاق هواجس حاضر مأزوم، وتوجسات مستقبل مأمول.

في هذا المقام لا بد من الشكر لكل من ساعد على ظهور هذه الأوراق سواء بالكلمة المشجعة أو بالنصيحة الصادقة، وهم كثر، وأخص بالذكر الثلاثي المتساوي الأضلاع الأصدقاء الدكتور سعيد الجريري والدكتور عبد القادر باعيسى والأستاذ صالح الفردي ومن داخل هذا المثلث شكر خاص للدكتور سعيد الجريري لتقديمه هذه الأوراق، والشكر موصول للدكتور طه حسين الحضرمي،

والدكتور حسين علوي الحبشي الذي تكفل بتدقيق هذه الأوراق لغويًا.

وقبل أن أتركك عزيزي القارئ في صحبة هذه الأوراق لا بد من تأكيد أن كل عيوبها من بنات زلاتي، ونتاج شطحاتي، وما سيُعدّ جميلًا فيها هو قبس من قبسات مدينة المكلا الحبيبة، ووحي من سحرها، ولمسة حانية من لمسات أهلها، وكل من عشقها.

عبدالله



مقدمة الطبعة الأولى

د. سعيد الجريري

(١)

أوراق مكلاوية، هكذا شاء صديقي أبو محمد أن يسميها، وهي كذلك فعلًا، وليس غريبًا عن عبدالله المكلاوي جدًا أن يصف أوراقه بهذه الصفة الحميمية جدًا، غير أن حميمية هذه (المكلاوية) ربما تُداخِلُ القارئ العام أو العابر أو المشغول بلغة السرد، فيشتغل مخياله على مقاربة دلالة العنوان (أوراق مكلاوية)، فيظن أن الكتاب نص روائي، أو سيرة ذاتية، لامرأةٍ من المكلا، بفاعلية التسكين الغالبة لدى تهجيه كلمتي العنوان: أوراقْ - مكلاويةْ (بتسكين الحرفين الأخيرين في الكلمتين)، أو على فاعلية الإضافة لا الصفة (أوراقُ مكلاوية)، وفي كلا الحالتين، فإن نصًا روائيًا يحيل إلى ساردة أو مسرود عنها مؤنثة، أو كاشفة عن تفاصيل من أوراق سيرة مؤنثة، مما لعله يثير فضول القارئ المحلي أولًا، ثم العربي، فالأجنبي ربما، ولذلك فهذه العنونة تمارس إيحاءً وتضليلًا من حيث لم يقصد صديقي أبو محمد، لكن الإحالة واقعة لا محالة، وهي من محفزات الإقبال على الكتاب، ومن دواعي اقتنائه على أية حال، إن كان هناك هاجس من هواجس الناشرين.

لكنَّ للصفة (مكلاوية)، بعيدًا عن هذه الظلال والإيحاءات الأنثوية، مفعولَ السحر، في ما أظن، لدى القارئ الحضرمي، ولا سيما المكلاوي في الوطن

والمهجر، ولها قبل ذلك ما يستثير في النفس حميمية المكان وألفته العميقة المنسربة في أعماق الوجدان الفردي والجمعي.

ويبدو لي أن اختيار العنوان كان موفقًا إلى حد بعيد، على أي وجه يصرفه القارئ، ولعل الكاتب امتاح العنوان من نبع عميق في روحه المبللة بندى البحر، ورذاذ الأمواج المتكسرة على الشطآن، ورطوبة الصيف وأربعينيته العتيدة، في مكلا تخلقت في وجدانه مثلما تخلق وعيه وإحساسه في أزقتها وشواطئها، ودور علمها وعبادتها، ومسارح لهوها البريء، طفلًا وصبيًا ويافعًا وشابًا فتيًا ثم رجلًا كهلًا لا يلتفت إلى الماضي إلا ليرى فيه نورًا يدله على غد أبهى، له ولمدينته الآسرة وأهليها وعشاقها الميامين جيلًا بعد جيل.

لقد تخلقت أوراق عبدالله المكلاوية، بين يديّ ورقةً ورقةً، ولذلك فليس بيني وبينها مسافة، فقد كنت شاهدًا لها وعليها منذ أن كانت أمشاجًا وهواجسَ وأفكارًا متناثرة، ثم وقد تعهدها عبدالله بقلمه، فإذا هي مقالات كان يفجؤنا بطرافتها مقالة مقالة، منذ أن استفززناه، بالمعنى الإيجابي، كي يكتب عمودًا ثابتًا في (آفاق حضرموت الثقافية) التي كان يصدرها اتحاد الأدباء بالمكلا قبل أعوام، بالعنوان نفسه: أوراق مكلاوية، لما أنسناه فيه من ميل إلى التقاط المتناثرات هنا وهناك، ليجلوها في حالة من حالات المزج بين الاجتماعي والتاريخي، إذ يدوّن المشاهد التي لا يحتفي بها المؤرخون الرسميون أو الأكاديميون عادةً، فيقدمها للقارئ العام بأسلوب فيه من البساطة بمقدار ما فيه من العمق الذي يلتفت إلى الهامشي شكلًا، الجوهري مضمونًا. ولم يخيب أبو محمد ظننا، ولم يخذل ما

أنسناه فيه، وحدسناه حدسًا، من خلال العلاقة الحميمية بيننا كأصدقاء، بل لقد كان من أشد كتاب الأعمدة الثابتة ثباتًا والتزامًا وطرافة أيضًا.

(٢)

إن كاتبًا هو عبدالله بن سعيد، وإن كتابًا هو (أوراق مكلاوية) هذا، ما كان لهما أن يتشكلا هذا التشكل، ثم أن يخرجا إلى القارئ الآن، لو لم يكن هناك باعث على الكتابة في هذا السياق، ولعل هذه الفكرة المؤرقة أدعى إلى تأكيد فكرة مجاورة أو متماسة معها، هي فكرة الصحافة في حضرموت وواقعها اليوم.

يبدو لي منذ حين أن هناك قرارًا مسكوتًا عنه تم اتخاذه في هيئة ما، في مكان ما، قضى بإفراغ حضرموت من الصحافة الحقيقية، مثلما قضت قرارات أخرى مسكوت عنها أيضًا، بإفراغ حضرموت أيضًا من عناصر قوتها الفاعلة في مجالات أخرى ليس هنا مجال التفصيل فيها.

مفعول ذلك القرار المسكوت عنه، كان من آثاره أن أضحت حضرموت فارغة أو كادت، من صحيفة تكون لها عنوانًا مشرّفًا، وعاملًا من عوامل نهضتها الإعلامية والثقافية والفكرية والسياسية أيضًا، فأصبحنا لا نجد الصحيفة التي نقرؤها مع فنجان شاي الصباح، فنبدأ بها يومًا جديدًا، كما يبدأ سكان المدن في العالم صباحاتهم، بارتشاف عناوين الصباح وقضايا اليوم ارتشافهم الشاي في البيت، أو المقهى، أو الحافلة. فأن تكون في مدينة لا تفتتح نهارها بصحيفة جادة، يعني أنك خارج دائرة الفعل والتفاعل في أدنى درجات الوصف. لكن هذا الواقع

قد تم تكريسه، حتى أمسى أهل حضرموت بلا صحف محلية حقيقية يجدون فيها مجتمعهم وقضاياه وآماله وآلامه وتطلعاته وآفاق اتجاهاته على غير فضاء.

ولعل مما كرّس هذا الواقع، أن الصحافة البائسة في واقع حضرموت التي شهدت سنواتٍ عجافًا، لم يستطع القائمون عليها، سواء بفاعلية القرار المسكوت عنه، أم بفاعلية خلو أجنداتهم من مشروع حقيقي لأنفسهم أو لمجتمعهم، أن تكون لهم بصمات ليس مستحيلًا أن تكون، إذ سكنوا إلى الانكفاء على ذواتهم ومكاتبهم، ومجالس (قاتهم!!) الدخيل على ثقافة المجتمع وعادات نسيجه الاجتماعي، ولم يدر بخلدهم أن في حضرموت طاقات فكرية وإبداعية وثقافية وأكاديمية، ينبغي لهم أن يسهموا في تنظيم فاعلياتها، وتوظيفها لقراءة ظواهر شتى، وتحليلها، وتشكيل الرأي العام الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، في سياق البعد التنموي لرسالة الصحافة والإعلام.

لذلك فكثير من كتاب الرأي في حضرموت والمثقفين والصحفيين البارزين، ظلوا يكتبون في صحف تصدر خارج حضرموت، لأن الصحف المحلية ظلت تدور في فلك عقيم، وظل هامشها الجاد يتضاءل عددًا بعد آخر، وإن اتسع حينًا فإنما على طريقة الالتماعات العابرة الأدنى إلى البرق الخُلّب!. وإنما كان أولئك يكتبون في (الأيام) الصادرة في عدن، على سبيل المثال- التي غُيّبت قسرًا وظل مقعدها الصحفي شاغرًا - أو في الملاحق الثقافية والفنية الصادرة في صنعاء أو تعز، لإحساس لديهم بأن السقف هنا يقتضي انحناءات تقصم ظهر الوعي والفكر والموقف، وقد تصل إلى حد اغتيال الكتابة الحقيقية، تارة بلا مبالاة

هيئات التحرير، وتارة أخرى بمحدودية قراء تلك الصحف المحلية جدًا، والمتحزبة جدًا، و(الملكية أكثر من الملك) في حضرموت، فيتساءل الكاتب في نفسه: أللكتابة جدوى والحال هذه؟!، ثم ينكفئ كما انكفأ محرروها، أو ينطلق في فضاء خارج حضرموت، مسترجعًا العصر الذهبي للصحافة الحضرمية أيام (الطليعة)، و(الرائد) و(الرأي العام) و(الجماهير)، ويتذكر بإجلال الأساتذة أحمد عوض باوزير، وحسين محمد البار، ومحمد عبدالقادر بافقيه، ومحمد عبدالقادر بامطرف، وسعيد عوض باوزير، وأحمد هيثم الحميري، وأقرانهم من رواد الصحافة النهضوية، وشيوخها المميزين كالأستاذ محمد بن هاشم وغيره.

ولعل من شواهد ذلك العصر البارزة أن كتاب (صاروخ إلى القرن العشرين) لم يكن إلا إضمامة كتابات صحفية حضرمية ستينية في صحيفة الرائد الصادرة بالمكلا كتبها الأستاذ محمد عبدالقادر بافقيه (سندباد على الورق)، ومثله كان كتاب (معارك الأحرار) الذي ضم مقالات ستينية كتبها الأستاذ سعيد عوض باوزير في صحيفة (الطليعة) ثم جمعها وأصدرها ابنه المبدع النجيب نجيب سعيد باوزير، ومن تراث الصحافة الستينية مقالات الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف التي لما تصدر في كتاب حتى اليوم، وتمت دراستها في رسائل جامعية.

أي جناية جنتها الصحف (الباردة) على الصحافة في حضرموت، وعلى الفكر والثقافة، والوعي السياسي في حضرموت؟ سؤالٌ لعل إجابته جديرة بأن تلغي القرار المسكوت عنه، وأن تخرس الهيئة التي صدر عنها، ومن ثم استعادة الروح، ليس بالنظر إلى ماضٍ وأطلال شاخصة، وإنما بالاتجاه صوب فضاء أكثر

رحابة في زمن الفضاءات المفتوحة، بوعي لا يسوّغ تحت أي مسمى أن تفرغ حضرموت من عناصر قوتها ووجودها، ولاسيما الصحفية في هذا السياق.

(٣)

ضللت في زحام الصحافة البائسة، مضغوطًا بثقل أثرها على النفس والفكر، فذهلت عن الاحتفاء بتقديم كتاب صديقي أبي محمد، لكنني لم أكن بعيدًا عن رسالة الكاتب، وهواجسه المؤرقة التي أشاطره الكثير منها، مثلما يشاطرني مؤرقاتٍ أخرى تتجاوز حد الكتابة، إلى التفاعل والفاعلية حينما تتحول الكتابة والوعي، إلى فعل وممارسة، في غير اتجاه، وفي غير مجال، بالتوازي مع التكوين الثقافي والأكاديمي.

حسنًا فعل الكاتب إذ بوّب كتابه على خلفية مستدعاة من ممارسته الكتابة باحثًا في التاريخ، وأستاذًا ذا منهج في التدريس والإشراف والمناقشة، ولعله لذلك قارب بين الموضوعات المتجاورة والمتشابهة فوضع كلًا منها في سياقه بحيث يكمل بعضها بعضًا، فلا يشعر القارئ بإقحام مقالة في غير سياقها، حتى يظن أن الكاتب قد وضع منهجًا مسبقًا قسم على وفقه المقالات كمن يصمم كتابًا تصميمًا منهجيًا، ومع ذلك فالكتاب ليس أكاديميًا، لكنه يكشف عن جانب خفي في شخصية الدكتور عبدالله المتخففة من ضغط المنهجية الصارمة في قراءة وقائع التاريخ وتحليلها، ولذلك أيضًا فهو قريب من متناول القارئ العام، خفيف عليه، يأنس إليه، كأنما هو بصحبة كاتب له ميول استطلاعية، ينثر بين يديه أطرافًا من

الطرائف والفوائد والمعلومات والحقائق والذكريات، على ناصية السبيل إلى غاية رئيسة يدله إليها هونًا.

الكتاب بأقسامه السبعة معرض مكلاوي وليس أوراقًا، فهو أشبه بمتحف من الكلمات، له سبعة أبواب، كل باب يمنحك دهشة مختلفة وطرافة موصولتين بالمكلا دهشةً وطرافةً. ولعل من اللافت أن الكاتب لم يهدِ كتابه إلى شخص من بني آدم، وإنما أهداه إلى صديق، أفرده بلا صفة إضافية، كأنما هناك مسلّمة ثابتة تدل على أنه صديقه الوحيد، إذ كتب الإهداء: "إلى صديقي.. بحر المكلا". لكن عبدالله ليس هو الصديق الوحيد لبحر المكلا، فلهذا البحر أصدقاء وعشاق كثر، ولهم معه ومع المكلا حكايات وحكايات بعدد أولئك الأصدقاء والعشاق، والشعراء والفنانين الذين أفردوها معشوقةً عالية الكعب جماليًا.

الإهداء إلى بحر المكلا عتبة مائية إلى مدينة تغتسل مذ كانت بأمواه البحر، قبل أن يقوم بينها وبينه حائل طارئ، كما سيذكر الكاتب في إحدى أوراقه، ولعل تلك العتبة تتعمق دلالتها إذ يجعل المدخل/ الباب الأول موصولًا بذاكرة الزمان والمكان، غير بعيد من قصر السلطان القعيطي الذي صار جزءٌ منه متحفًا. ألم أشر إلى أن الكتاب أشبه بمتحف، لكن من الكلمات؟. غير أنّ القصر/ المتحف ليس أي مكان. إنه ذاكرة زمانية ومكانية ضاجة بالأحداث وهواجس المحتفي بالتاريخ، تمتد لتلامس نبض المكان والإنسان وقيم المجتمع فإذا أنت إزاء شواخص مكلاوية أثيرة في أوراق مثل: (سكين القعيطيين)، و(عنبة والتشجيع الرياضي)، و(مئذنة ومؤذن)، و(مطلوب للشرطة)، و(مطراق صلِّ ع النبي)، وما

أدراك ما مطراق صلِّ ع النبي!.

ثم يأخذك الكاتب بخواطره وتأملاته، منغمسة في رؤاه وتصوراته للأشياء والأحياء والأحداث، لترى شخصيات في شخصية، كأنما هو يختزل رؤية الحضرمي في هوامش تحاول أن تكون متونًا محلومًا بها، أو منقودة، أو مدلولًا على طرافتها، سواءً ما كان منها ذا ظلال سياسية، أو اجتماعية، أو ثقافية، أو رياضية، وأكتفي هنا بالإشارة إلى أوراق مثل: (عندما سيطر الحضارم على البترول)، و(البرتقالة والمرتقالة)، و(عشاء رياضي سيئوني)، و(جنة إندع وناره).

وعبدالله في أوراقه المكلاوية وفيٌّ لأساتذته الذين يشاطرونه عشق المكلا، فلا يمر بك من بابه الثالث إلا لكي تلقى رموزًا لها في ذاكرته ووعيه ووجدانه محبّاتٌ نديةٌ، فمن (عكاشة.. وحنينه إلى المكلا)، وهو الأستاذ الدكتور محمد عبدالكريم عكاشة الفلسطيني الأصل المكلاوي الهوى والجنسية، الذي شهد آخر عهد سلاطينها، وبداية عهدها الثوري، إذ كان مدرسًا بثانوية المكلا...إلخ، إلى (الملاحي.. ذاكرة الشحر) أستاذنا عبدالرحمن ابن الشحر الذي لا تمل مجالسته ولا تستطيع أن تفعل شيئًا حياله، إلا أن تحبه وتحترمه، كما يقول عبدالله، صادقًا.

ومن عكاشة والملاحي، إلى البيتي مؤسس التعليم الثانوي في (حجر)، الذي وقع عبدالله في مصيدة إغراءاته التربوية، فأحبَّ (حجر) من محبة التربوي الفذ الأستاذ علي عبدالله البيتي رَحِمَهُ اللَّهُ وموصولًا به يلقاك الكاتب على ناصية أستاذ

استقر في ذاكرته منه - إذ كان تلميذًا في الصف الثاني الابتدائي- أنه كان يُمَسْرِحُ الدرس، تشويقًا وتحبيبًا، ذلك هو معلم اللغة العربية الأستاذ مدرك عبيد مدرك.

وغير بعيد من أجواء العلم والتاريخ، يستوقفك الكاتب إزاء شخصية اعتبارية واجتماعية معروفة في حضرموت، عمل في عهد السلطنة القعيطية قائمًا في كل من غيل باوزير، ودوعن، وحريضة، والديس الشرقية، ونائبًا للواء شبام، وكان المدخل إلى مقاربة شخصيته الأستاذ الدكتور محمد سعيد القدال- الذي خصه الكاتب بورقة مميزة عنوانها (القدال.. ثنائية العلم – التواضع) - في أثناء زيارته الميدانية للمكلا لجمع مادة كتابه الذي نشر بالاشتراك مع الأستاذ عبدالعزيز القعيطي موسومًا بـ(علي بن صلاح القعيطي نصف قرن من الصراع السياسي في حضرموت)، تلكم الشخصية هي عم الكاتب الرجل الطويل الأبيض السيد عمر محمد العطاس رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولعبدالله أبي محمد الجعيدي، هاجس موصول بالمحكيات، لعل مصدره تراث شفاهي ثم قراءات أدبية وسردية معينة، عززها منحى تاريخي مؤكد لديه بالدرس والتدريس، لذلك فالباب الثالث يفتح المكلا على فضاء البحر حيث أشرعة الهجرات إلى مشارق الأرض ومغاربها، فيروي حكايات مهجرية طريفة، هي جزء من اهتمامه بدراسة التاريخ، لكنه يحاول تقديمها بمزاج أدبي. ومن تلك الحكايات أكتفي بالإشارة إلى (الزعامة الحضرمية في أدغال إفريقيا) التي أصبح أحد الحضارمة شيخًا فيها على قبيلة الماساي الشرسة، في واحدة من غرائب

الحكايات والطرائف في مدونة الهجرة الحضرمية، وهي حكاية تصيدها الكاتب من استطراد جانبي من محاضرة ألقاها الأستاذ الفنان المعروف سعيد عمر فرحان (بوعمر) في اتحاد الأدباء بالمكلا، عن التراث الشعبي الحضرمي.

أما روحانيات حضرموت ولاسيما مدينة المكلا، فيفتح لها عبدالله باب أوراقه الخامس، مستعيدًا تقاليد رمضان وطقوسه الاجتماعية والدينية لدى فئات المجتمع، صغارًا وكبارًا، بدءًا باستقباله وانتهاءً بالعيد واليوم الجديد، لكنه يخص رمضان بين مسجدي بازرعة ومشهور، بورقة خاصة، حيث كان مرتع العمر الجميل وروحانياته الأولى.

وللمكلا المفتوحة على المحيط ملامح ممتدة إلى تخوم التلاقح الحضاري والتثاقف، كغيرها من مدن السواحل ذات الطبيعة غير المنغلقة، ولذلك فالباب السادس مفتوح على الهند، حيث حضورها في المكلا كأجمل ما يكون الحضور، ممتدًا في الأفلام الهندية التي كان أهل المدينة على موعد معها كل خميس في السينما الأهلية، لتمتد الذكريات شجونًا كما يقال. وليست الأفلام وحدها الملمح الهندي البارز، فثمة عائلات هندية، وأكلات هندية أيضًا، بل إن الطابع العمراني الهندي مكوّن بارز من مكونات الملامح العمرانية في المدينة، في غيرما تنافر روحي، مع تلك الملامح التي تآلف معها المجتمع تآلفه مع ثقافة هندية حاورتها ثقافة حضرمية، من دون استعلاء أو استخفاض.

وينتهي بك المطاف مع الكاتب إلى الباب السابع، ليأخذك إلى أجواء (سمرٍ

مكلاوي)، مع جلسائه – وكنتُ منهم – على ضفة حرة، يأخذ فيها جلساؤه راحتهم وانبساطهم في خوض موضوعات شتى، من مثل: (لغتنا الجميلة.. كيف نحافظ عليها؟)، إلى (الثقافة الجنسية وإشكالية النظرية والتطبيق)، ثم يذهب كل منهم إلى حال سبيله، لكن عبدالله لا يخلد إلى نومه قبل أن يلملم أشتات السمر، في أوراق يفاجئ بها سمّاره، وها هو يختم بها الكتاب شاخصًا من شواخص الحاضر، بعد أن كان الباب الأول منحوتًا من ذاكرة الماضي زمانًا ومكانًا.

(٥)

هل أطلت عليك عزيزي القارئ؟.. أظنني انسبت، من حيث لم أخطط أو أقدّر، بين أوراق عبدالله المكلاوية، ولا أظنك إلا ستنساب بينها انسيابَ عبدالله بين تفاصيل مُكلاه الطريفة.

المكلا: ١٦/إبريل/٢٠١١م




أولاً:
من ذاكرة الزمان والمكان

سكين القعيطيين

سبعينيات القرن الماضي، قصر القعيطيين خال من القعيطيين، راية الحكم الثوري ترفرف في زوايا متفرقة منه، مراسيم إنزال العلم الجديد قبيل المغرب ثم رفعه صباح اليوم التالي عادة حرص عليها أصحاب الحكم الجديد.

ساحة القصر وملحقاته الخارجية مفتوحة ومتنفس للكبار والصغار. الحكام الجدد مشغولون، الزخم الثوري يملأ الآذان. لا نعي جيدًا معنى الشعارات القوية التي نرددها، ما نفهمه أن الأشرار ذهبوا إلى غير رجعة وأن زمن الحرية والفقراء (الكادحين) قد أتى.

(العملاء.. ركائز الاستعمار.. الرجعيون.. الثورة المضادة.. المناطقيون.. الإمبريالية.. الاشتراكية.. إلخ) مصطلحات المرحلة انتشرت انتشار النار في الهشيم، لا مجال إلا ترديدها. الحكام الجدد يعيشون حالة صراع مزمن مع أنفسهم، خسروا العلاقات مع المجاورين وركنوا إلى علاقات مع أحد أقوياء العالم البعيدين، واطمأنوا..... سادت ثقافة الخوف، التيار جارف. توارى المناضلون الشرفاء، حاول البعض الوقوف في الوسط، تقدم الصفوف رويدًا رويدًا أشباه المتعلمين والانتهازيون، اختفت الأقلام الصادقة وزمجر جيش المطبلين، نزحت الجبال إلى المدن وكانت أوتادًا ثم ساد فيها ما سادا..

كنا نجري ونلعب في ساحة القصر غير مبالين أو مدركين لأهمية ما يحدث من (لعب) الكبار، ما يعنينا كسب فرحة نصر رياضي مؤقت وتجنب مرارة هزيمة

عابرة. ولكن ساحة القصر ليست فقط ملاعب لكرة القدم فهناك من المواضع ما تساعد على تنوع اللعب وتوسع الحركة.

في عصر أحد الأيام اتخذت لنفسي مكانًا غريبًا حيث كانت توجد بعض الأشجار، وبينما كنت في شغل مع حالي شاهدت دخول وخروج عدد من الأطفال في مبنى ملحق بالقصر في الركن الجنوبي الغربي منه كان مغلقًا، وبراءة الأطفال وفضولهم توجهت إلى هناك ودخلت مع من دخل وإذا بنا في غرفة (مستطيلة) تابعة على ما أذكر لمطبخ القصر لا تزال فيها بعض أواني المطبخ متناثرة هنا وهناك. كان بعض الصبية يأخذ من الملاعق والسكاكين ما يأخذ دون خوف أو عجلة، وعلى الفور غادرت المكان، وفي أثناء خروجي وبالقرب من الباب شاهدت سكينًا مرمية على الأرض لعلها سقطت من أحدهم، وبحركة سريعة التقطتها وأخفيتها عن الأنظار...

كنت أشعر حينها (ولا زلت) أنني فعلت شيئًا مشينًا، لهذا أسرعت الخطى إلى البيت. كانت دقات قلبي تتصاعد مع تصاعد سرعة خطواتي، وازدادت سرعتها عندما لمحت من بعيد زاوية بيتنا. كانت الهواجس تنازع ذهني الصغير، إذ كنت أتوقع في أحسن الأحوال فصلا من التوبيخ، كنت أحدث نفسي بأن أروي بصدق ما حدث؛ لعل في ذلك عفوا وشفاعة.

لم يمهلني أخي الأكبر فرصة للدفاع عن نفسي بعدما سمع قصة السكين (اللعينة) وطلب مني على الفور إعادة السكين إلى مكانها. عدت أدراجي إلى

القصر، كنت مقتنعًا أن عودة السكين إلى مكانها نهاية لكل المشاكل التي أعانيها وأتوقعها. وفي أثناء توجهي للقصر وقبل قطعي للشارع الموصل إلى بيتنا سمعت صوت أخي يدعوني للرجوع إلى البيت، لعله استدرك بعد أن سكت عنه الغضب، لفّني أخي بيده اليمنى وأخبرني أن الشمس على وشك المغيب وأن الأفضل إرجاع السكين في اليوم التالي.

تداولت الأسرة الأمر بعد صلاة العشاء. كان هناك من هو مشفق ومن هو معاتب. كنت أسمعهم يقولون إن السكين من النوع العادي وإن قيمتها في قبضتها الفضية. ثم هدّأ والدي من روعي معربًا عن تفهمه بأنني لم أكن أقصد السرقة وأنه عصر اليوم التالي سيصحبني أحد إخوتي ونضع السكين في موضعها (ويا دار ما دخلش شر).

نحن الآن نسير في ساحة القصر. خطوات أخي الهادئة تزيدني طمأنينة وتمحو شعورًا بالندم والحياء جثم على صدري لما يقارب اليوم.. لحظات وينتهي الأمر..

ولكن حدث ما ليس في الحسبان، وعكس الترتيبات، فالباب الذي حدثت بقربه (الجريمة) تم إغلاقه، ورأى أخي أن رمي السكين على مرأى من الموجودين أمر غير عملي وغير متفق عليه، لهذا استدعى هذا التطور الرجوع إلى البيت للتشاور، أي العودة إلى نقطة البداية.

انتشر الخبر الجديد في الأسرة، الجميع غير راضين عن بقاء هذه السكين

الغريبة في المنزل. أصحاب الحق الحقيقيون غائبون، ومع هذا كان الشعور بالرضا مخيمًا على أفراد الأسرة فقد وصلت رسالة مباشرة وغير مباشرة لي وللآخرين مفادها أن أخذ ما لا نملك رذيلة مرفوضة بشدة ويجب عدم الوقوع فيها.

ولكن السكين (الغريبة) لا تزال في البيت وفي مكان غير بعيد، وظلت هكذا لأيام عديدة دون حراك، ثم قرر الوالد إخفاءها عن الأنظار حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.... وبعد مضي ما يقارب الشهر قرر الوالد بشدة إعادة الأمور إلى نصابها بإرجاع السكين (شبه المقيمة) إلى مكانها، وفي غفلة من الزمن، والناس، وبحضور شقيقي تم الأمر.. وهكذا عادت السكين (الغائبة) إلى مكانها وعدنا!! ولكن هل عادت السكين (العائدة) إلى القعيطيين؟؟



سنبوق العم (صالح باسيف)

بينما تمضي شركة المجاري (الدندار) في إنجاز عملها وبرنامجها اليومي بعلم وتخطيط وخبرة كانت قلوب الصيادين في المكلا القديمة تنتظر بخوف وحيرة، إذ كان شائعًا أن من مخططات المشروع المستقبلية ردم مسافة من شاطئ البحر، وهو أمر يمزج بين الحلو والمر. ولم تكن هناك بدائل واضحة تزيل التوجسات وتريح السواعد الكادحة حتى ترقد قواربها (سنابيقها) بأمان كعادتها من قديم الزمان.

لقد تعددت آراء سكان المكلا في مشروع المجاري (القديم)، والغالبية ترى فيه نهاية لكابوس لطالما أضر بالصحة وخدش الحياء وأنه من الضرورة بحيث يستحق التضحية بالأطراف، والوقاية خير من العلاج. وهناك رأي مغاير يدخل في لجته العم صالح، يقول: إن الردميات لشاطئ البحر هو بمثابة بتر لأطراف المدينة وهويتها الربانية وإن في الأمر متسعًا، والبدائل موجودة لمن أراد أن يستمع.. لقد تقاذفتنا الأمواج وأربكتنا وأنستنا الإشارة لعلاقة ذلك بشيخنا العم صالح باسيف وسنبوقه!!

المكلا هبة البحر، وهما مفردتان يخيل أنهما لا انفكاك لهما. أما العم صالح فهو صياد مكلاوي يسكن حي برع السدة نعرفه في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وقد بلغ السبعين أو هكذا نخمن بالنظر إلى علامات السنين في بدنه وبطء حركته. لا ندري متى يمتطي العم صالح سنبوقه استعدادًا لطلوع البحر

ولكننا نستطيع تحديد ساعة رحلة العودة وأحيانًا مشاهدتها. يلبس العم صالح قميصًا أزرق بلون البحر يغطي به نصفه الأعلى، أما نصفه الأسفل فيغطيه بمعوز حضرمي تقليدي متبدل الألوان يلفه حول نفسه بحيث لا يُعيق حركته. في رحلة الإياب يشق شيخنا طريقه بتأن ووقار ضاغطًا بما تبقى له من صحة بمجاديفه الخشبية على سطح البحر فيتقدم سنبوقه الخشبي التقليدي طائعًا.

أبى العم صالح أن يكون مع الخوالف، لم أدرك المعنى العميق لعمله وهو الشيخ الكبير، ولكن طيفه ظل يراودني عندما تسود سحابة كسل وخمول في محطات الحياة ومراسيها. العم صالح قليل الكلام، ربما لا يقوى عليه أو لعله يتعمد ذلك في محيط من الأطفال لا يعرف الحدود. عندما يصل العم صالح إلى قريب من الشاطئ يقفز في البحر إلى منتصف جسمه ويسحب بلطف سنبوقه ومصدر رزقه وحسب العادة يتطوع الحاضرون بسحب السنبوق إلى مكان لا تصله أنامل الأمواج عندما يبلغ انبطاحها مداه.

ولكن الفضوليين يتفرجون على الغنيمة وتكون سعادة الأطفال أكبر عندما تزخر بسمك الحبار (العزيز).. ينهمك العم صالح في إخراج أحشاء السمكة والاحتفاظ بلحمة الحبار البيضاء اللذيذة ويترقب الأطفال الواجمون عطية الشيخ الصياد ولكنه يحرص على إعطاء (ديم) الحبار في البداية لمن لمح فيه روح المبادرة والمساعدة، ولأن الخير وفير تصل العطايا للجميع. وفي حين ينصرف العم صالح بهدوء لشأنه ينهمك الأولاد في وضع (الجلود) على علب اللبن المجففة لصنع الطبول (الدنابق) و(هت) يا طبول...!

لقد رفض العم صالح أن يموت قاعدًا أو منبطحًا والتصق ببحر المكلا عشقه الطويل ومعشوقه الأثير، وكان ظنهما أن لا فراق إلا عندما يأمر رب الفراق.. المكائن البليدة تقذف بمقذوفاتها في البحر.. لم يسحب العم صالح سنبوقه إلى مكان آخر كما فعل أكثر زملائه.. المكائن الشريرة يشتد سعارها وتأكل من أطراف بحر العم صالح، وعندما حالت الأحجار الرهيبة بينهما غادر العم صالح المكان وفقد سيطرته على الزمان. وبينما يدفن الدافنون ما تبقى من أطراف صديق العم صالح كان هناك من يدفن العم صالح في مكان غير بعيد.

بحر العم صالح لم يرض بالهزيمة. ها هو يخوض معركة كفاح عنيدة تبحث عن ثغرات تستعيد الأطراف معتمدًا في مقدمته على الأمواج المتدفقة شهوة للانبطاح (فحشًا) أمام عشاقها من السنابيق ليشقوا كعادتهم عذريتها المتجددة ولتبيح لهم الوصول أنّى يشاؤون...



(عنبة) والتشجيع الرياضي في المكلا

المكلا، والشعب، والتضامن، أندية مدينة المكلا حسب أحيائها (المكلا القديمة – الشرج – الديس). ونادي المكلا هو الأقدم فقد تأسس بهذا الاسم في بداية الأربعينيات من القرن الماضي وهو الآن نتاج لسلسلة اندماجات لأندية مثل: الكوكب، والأحرار، والاتحاد، والوحدة، والهلال، والوطن. وتوحدت غيل باوزير في نادي الأهلي، والشحر في نادي سمعون، والديس الشرقية في الشبيبة.

كانت الندية هي السمة الغالبة بين هذه الأندية، مع بروز أكثر لناديي المكلا وأهلي غيل باوزير. وفي سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي كان نادي المكلا الواجهة الرياضية المشرفة لحضرموت في مدينة عدن العاصمة.

وشهدت هذه الفترة ذروة العشق الرياضي لأهل المكلا لكرة القدم. وكانوا ينشغلون بتوقعات وتحليلات للمباريات المنتظرة وتستمر التعليقات لأيام بعد المباريات المهمة وغالبًا ما يكون مسرح هذه التعليقات والمناقشات مقاهي المكلا التقليدية الدافئة.

المباراة القادمة بين فريقي المكلا والأهلي. تكافؤ الفريقين يجعل سقف التوقعات متوازنًا، وكذا حلاوة التفاؤل ومرارة التشاؤم. وبالنسبة لأهلي الغيل فإن عمارو محتفظ بلياقته، والصليبي بكامل خبرته، وعبدالله باعامر مفاجآته في جعبته، وباشطح لم تتراجع سرعته، ولا يزال سالم الشيبة بدهائه وحنكته. يقابل ذلك عمر سويد بهندسته، وحاج بامقنع بجبروته، وطاهر باسعد بخفته وليونته،

يساعدهما ناصر الناخبي باستماتته وكرباش بيقظته، وفي المقدمة حسين الهندي بأناقة شوطاته، وقريب منه ومن المرمى أمين بشير وأحمد بلعلا وسعيد الناخبي وآخرون... ولكن المباراة لم تبدأ بعد.

الحكم الدولي أحمد الفردي يعلن بصفارته بداية المباراة، الملعب مكتظ فقد غادر معظم رجال المكلا منازلهم وكذلك رجال الغيل.. الجمهور على نار. وفي صدورهم المشحونة بدأت المباراة قبل صفارة البداية بأيام، كانوا متابعين بحيث لم يرتد لأحدهم طرف. صامتين ومتكلمين... لا رحمة للمخطئ، والحريف يسمع حقه من الإشادة والإعجاب. تتمايل الكرة شمالًا ويمينًا وهكذا يتمايل الجمهور، وعندما تلوح الكرة بهدف لصالح طرف ترتفع رؤوس وتنقبض قلوب، الأولى راجية والثانية خائفة وتعود الكرة إلى منطقة الوسط.. صرامة الفردي ويقظته لا تترك مجالًا لحيلة الفاشلين. لا مجال إلا للاجتهاد. يمر الوقت كالهواء عند اللاعبين وساعات عند المتفرجين..

الكل يريد الخلاص.. يريد الفوز.. ترتيب هجمة ذكية من عبدالله باعامر مع استغلال مباغت من المهاجمين يجعل نادي الأهلي متقدمًا بهدف ويهتز الملعب من تصفيقات مشجعي أهلي الغيل وتفرح مدينة الغيل التي يصلها الخبر مباشرة عبر إذاعة المكلا.

يسود الوجوم على مشجعي المكلا، (عنبة) يستمر يجوب الملعب باحثًا عن مشترين لما يبيعه من آيسكريم، الهدف في غير صالح فريقه.. النتيجة المرة جعلته

غير مكترث بجمع النقود.. هو يرى المباراة بقلبه أكثر مما يراها ببصره. تمر الدقائق وليتها لا تمر (هكذا يقول في صدره)، وتشتد أعصاب (عنبة) ثم يرفع صوته مناديًا.. ساخطًا.. صابرًا.. هو الآن قريب من مشجعي المكلا ورغم أن القلوب بلغت الحناجر، والحناجر أصابها الجفاف إلا أن الناس في ذهول عن مبردات عنبة. ويرتفع صوت عنبة.. ويرتفع.. ولعل باسعد سمع وانتبه للنداء فيتدخل بلطف ويتقدم.. ويتقدم وشوطة منه وشوطة من سويد حتى تصل الكرة إلى قريب من حارس المرمى، ثم تجد من يهز بها الشباك، وتسعد القلوب المكلاوية وتتقافز الأجسام. وشاهد عنبة الهدف في عيون المشجعين وصدق الخبر وفرح من أعماقه، ثم لم تسعه الفرحة، ها هو يوزع بضاعته للمشجعين المكلاويين (مجانًا، مجانًا) أي كرم هذا يا عنبة؟ وأي فرح؟ يا عنبة أي كرم هذا؟!



قابوس: المزيف.. الغامض.. الحقيقي

لا تتوقع من هذا العنوان قصة بوليسية مثيرة، بل هو حيلة لجذبك أيها القارئ لقراءة هذا المقال. ولكن في المكلا ظهر ثلاثة قوابيس! يمكن أن نسميها: النسخة المزيفة، والنسخة الغامضة، والنسخة الحقيقية... ونبدأ من البداية.

قابوس المزيف:

امتدت الثورة في جنوب اليمن بعد الثورة والاستقلال وامتد معها الثوار، لهذا كان على الجميع أن يقول ويكرر: "ثورة ثورة لا إصلاح". فهل كان الناس بعد الثورة بحاجة إلى ثورة أم إصلاح؟ لا يعنينا هنا الجواب. ولأن الثوار كلهم ثورة، فقد آثروا أن ينشروا خير الثورة إلى الدول المجاورة بل تطلعوا إلى تحرير عمان والخليج العربي!! نحن لا نرمي هؤلاء الثوار بالسذاجة أو نشكك في وطنيتهم، فالمنهج السليم يعلمنا النظر إلى ملابسات أحداث التاريخ حسب عصرها. وإذا كان الساسة و غيرهم في الدول العربية يدمنون التلفظ بمصطلحات الخيانة والوطنية والتقليل والتعظيم دون روية، فعلى المؤرخين ومن لف لفهم التأني في إطلاق هذه الأوصاف، والتاريخ دائمًا غير مستعجل ويستدرك نفسه بنفسه.

وما نريد أن نقوله أن هناك شعارات معروفة رددت في بداية العصر الثوري معادية للسلطان قابوس تعف اللسان والقلم عن ذكرها. وهذه التعبئة (الشعارية) الثورية القديمة جعلتنا نكوّن صورة مشوهة عن ذلك الرجل الملتحي الذي ارتمى في أحضان الإمبريالية والرجعية!! ولم يكن الأمر ينتهي عند هذا الحد بل

تطورت الأمور إلى دماء عربية سفكت وانتهت إلى لا شيء. وتكونت لدى جيلنا قناعات في حينه بأن الرجل هو عدو التقدم وصديق التخلف.

قابوس الغامض:

في سبعينيات القرن الماضي كان إطلاق اللحى تهمة تجعل صاحبها يدخل دائرة المراقبة والمساءلة، لهذا قلة الملتحين في المجتمع أوجدت مجالًا لتكوين ذاكرة بصرية للملتحين في المكلا وخارجها عن طريق المجلات. ومن الملتحين الذين لن أنساهم قابوس مكلانا، وهو رجل مجنون رفيع القامة مفتول العضلات ولكنه نظيف الملبس ولا يكتشف جنونه إلا من يعرفه أو كان قريبًا منه. ولا أدري لماذا أطلق عليه لقب قابوس؟! ولو ذهبنا مذهب أصحاب نظرية المؤامرة لقلنا إن اللقب له دوافع وأغراض سياسية. المهم كان الجميع يتجنب هذا الرجل الخطير وكنا عندما نراه في مسجد ننتقل إلى المسجد الآخر خوفًا ورعبًا. ومعروف في المكلا أنه عندما يغضب لا يفرق بين صغير أو كبير وغالبًا ما يكتفي بضربة واحدة لضحيته ويذهب في شأنه. وبعد سنين قريبة وفي ظروف غير معروفة اختفى قابوس المكلا، بعد أن تكون في ذاكرتنا قابوس جديد غير الذي كنا نسمع عنه ونتمنى زواله!!

قابوس الحقيقي:

ليس من عادتنا مدح الحكام والمسئولين في الوطن أو خارجه، أو هكذا أوطن نفسي الأمارة بالسوء. في ثمانينيات القرن الماضي وصل بنا العمر مبلغًا بحيث نستطيع أكثر مما مضى فهم ما يدور حولنا. أما الثوار فكلما أتتهم سنين

سمان أكلتها عجاف ثم أدركوا أنهم كانوا يسيرون في الاتجاه الخطأ وهذا يحسب لهم وليس عليهم فتركوا العداوة مع الجيران بعد أن بح الصوت وفات كثير من وقت العمل.

ولكن قابوس عمان تكلم قليلًا وعمل كثيرًا. اتفق مع معارضيه وصدق، وانصرف الجميع مع مصلحة الوطن. وعلى ذمة الرواة وخلال أربعة عقود ظهرت عمان جديدة متماسكة بسلطان **حقيقي** واحد وليس سلاطين متنوعين، وفي سنة من السنين وصلت عمان إلى خامس دولة في العالم من حيث الرعاية الصحية لمواطنيها. لا نريد أن نعدد ما نسمعه. ويقال إن سلطان عمان يفضل أن تتكلم عنه الأعمال لا الإعلام.



مئذنة ومؤذن

كثيرًا ما تغنى عشاق المكلا ببحرها وجبلها وشبهوا تقاربهما الجغرافي بحبيبين متناجيين في قصة محبة عذرية أبدية. ومعروف أن للبحر والجبل دورًا كبيرًا في وجود مدينة المكلا ثم بروزها كأهم المدن الحضرمية. ولكن قوانين التطور و(دسائس الوشاة) أسهما في فتور العلاقات بين (العاشقين) وتباعدهما النسبي.

إن المكلا ليست البحر والجبل، بل هي البيوت البيضاء الجميلة، هي الأزقة الضيقة، هي الصيادون والحرفيون، هي الحارات والشعراء، هي المثقفون والظرفاء، هي ملتقى الحضارمة ونافذتهم إلى الخارج، هي المساجد والمآذن، هي.. (مع وقبل كل ذلك) الناس الطيبون.

ومن خلال هذه اللوحة الجميلة التي اسمها المكلا لنا إطلالة سريعة ومحددة على أحد مساجدها القديمة وهو مسجد (مشهور) القائم بحي السلام (برع السدة). وفي حقيقة الأمر فإن لهذا الاختيار اعتبارات شخصية، فقد ارتبطت وأترابي منذ الصغر بمسجد (مشهور) بحكم الجوار في السكن، وهذا الارتباط لم يكن فقط لأداء الصلاة والعبادة بل كان لنا أغراض أخرى منها الاستحمام في (المقالد) واختيار المسجد كمكان للقاء والتجمع، وأحيانًا اللعب والشقاوة عندما نضمن غفلة وانشغال الكبار.

يعود الفضل في بناء هذا المسجد إلى السيد علوي بن عبد الرحمن المشهور، الذي كانت له إسهامات مشهودة في الدعوة إلى الله والإرشاد والتعليم.

وفي كتاب (لوامع النور نخبة من أعلام حضرموت) ذكر المؤلف جوانب تفصيلية عن حياة المشهور وشيوخه وتلاميذه وأنشطته الاجتماعية الإصلاحية.. إلخ

تم الشروع في بناء المسجد سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م بعد صدور الترخيص بالبناء الموقّع من قبل السلطان غالب بن عوض القعيطي. وقد أطلق على المسجد اسم المشهور واشتهر اختصارًا باسم مسجد مشهور. ولا نهدف من هذه الإطلالة تقديم دراسة علمية معمارية لهذا المسجد أو مئذنته على وجه الخصوص فهذا الجانب له أهله، بل هي خواطر وانطباعات لمشاهد خارجي لجانب من لوحة جميلة في ركن مقدس ومبارك.

إن ما يميز مسجد مشهور مئذنته العالية ذات الطراز الحضرمي الفريد، وقد بنيت على غرار مئذنتي مسجدي الغالبي والروضة بالمكلا، والشبه بين هذه المآذن كبير بحيث يصعب التمييز بينها. وعموما تشترك المآذن الحضرمية في سمات وملامح عامة والبعض منها ينفرد بشكل خاص لأسباب متعددة. ولا يتسع المجال هنا لوضع مقارنة للمآذن سواء في حضرموت أو بقية مناطق اليمن.

ومنذ تأسيس المسجد والمئذنة قائمة مشرئبة برأسها في تواضع الزاهدين ويقظة المصلحين ترمق زوار مسجدها من جميع الاتجاهات. ولعلها تنظر إلى مجاوريها بشفقة وحنان حينما تراهم يلهثون ويكدون أو يلعبون في الدنيا بحثًا عن سعادة وأمل بعيدًا عنها وعن مسجدها الطاهر. وفي واقع الأمر هي ليست بعيدة عنهم فهي تشاركهم أفراحهم وأحزانهم، كما أن لها أفراحها الخاصة في

الأعياد والمناسبات الدينية تجدد فيها زينتها وتترصع بقلائد من نور، لعل ذلك يدخل السرور في نفوس المؤمنين المداومين ويشد انتباه المؤمنين المتخلفين.

وإذا كانت المئذنة تبدو من الوهلة الأولى مسالمة ومستكينة، فهي لها صراعاتها ومعاركها الخاصة، منها: صراعها مع الغفلة والكسل الذي بداخلنا فتذكرنا دائمًا بأوقات الصلاة والجماعة متفانية في أداء دورها الطبيعي في دعوة الناس إلى الخير والفلاح، ومُصرّة في توصيل صوتها الخالد إلى المصلين وغير المصلين، مدركة بأن الاستجابة والهداية بإذن وقدرة الله الرحمن الرحيم.

وهي وإن كسبت معارك فقد خسرت معارك أو هكذا يبدو. فبعد أن كانت مطمئنة لسنوات طويلة على حدودها بحيث كانت ترى وتُرى من جميع الاتجاهات، فقد خسرت حدودها الشرقية وحالت الحواجز الإسمنتية بينها وبين محبيها ومريديها. وكان للطمع وإهمال أبنائها الدور الأساسي في خسرانها هذه (المعركة) أو لعله الصراع بين الأصالة والمعاصرة.. على أن الحرب القادمة هي التي تهدد المسجد بالتهديم لبناء مسجد جديد في الموقع نفسه، ولكن لا يمت بأي صلة له سواء من حيث الشكل الهندسي للبناء أو المواد المستخدمة. وقد جرى جدل طويل بين أصحاب الشأن وذهبوا فيه مذاهب شتى بين الإبقاء على ما هو قائم وترميم ما يستدعي الترميم، وهم فريق يمكن تسميتهم (أصحاب الأصالة)، وبين من يرون ضرورة تهديم المسجد وبناء مسجد على غراره بمواصفات جديدة تضمن التوسعة والمتانة، وهم (أصحاب المعاصرة). وهناك

من حاول أن يقف في الوسط بين الطرفين بأن طرح إعادة بناء المسجد باستثناء المئذنة. ولنا رجاء وأمل أن ينجح أصحاب هذا الرأي. ووسط هذا الجدل والصراع على الخير جاءت كلمة فصل من الجهات الرسمية لصالح أصحاب الرأي الأول وتم إقرار الوضع على ما هو عليه وذلك في الخطاب المؤرخ ٢٣/ ٦/ ٢٠٠١م المرسل من الأخ محافظ المحافظة ومدير عام المحافظة إلى مدير مكتب الأوقاف والإرشاد بالساحل، وبموجبه حظر تهديم المساجد القائمة في مدينة المكلا وهي: (مشهور.. بازرعة.. الغالبي.. النور)، وذلك لقيمتها التاريخية والفنية باعتبارها نماذج للعمارة الدينية التقليدية بوصفها من تاريخ المدينة وشخصيتها، وجاء هذا التوجيه بعد أن لفتت إدارة الهيئة العامة للآثار والمتاحف بالمحافظة السلطة إلى ذلك.

وإذا كانت المئذنة تشكل أحد الشواهد البارزة على مسجد مشهور وتبرز أصالته وعراقته، فإن هناك أشخاصًا ارتبطوا بهذا المسجد ومئذنته ارتباطًا شديدًا تجاوز مسافات زمنية قياسية، وهذه الشخصية هو المؤذن الشيخ محمد بن أحمد التميمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولد الشيخ التميمي بمديرية سيئون عام ١٨٨٣م، وكان منذ صباه كثير التردد على مجالس العلم والذكر، وعاش أميًّا لا يقرأ ولا يكتب بسبب قسوة المعيشة في ذلك الوقت، حيث توفي والده تاركًا له مسؤولية الأسرة. في عام ١٩٢٣م غادر بلدته دمون متوجهًا إلى مدينة المكلا ليجرب حظه، شأنه في ذلك شأن الكثير من

الشباب، واشتغل عامل بناء عند تشييد مسجد السلطان عمر القعيطي وقصر السلطنة (المعين). ومنذ عام ١٩٣٤م استقر بصورة دائمة في مدينة المكلا.

كانت أول علاقة رسمية لشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ بمسجد مشهور في عام ١٩٤٩م، عندما عين مؤذنًا بقرار صادر من إدارة الأوقاف والتركات وقتئذ، ولكنه كان يؤذن في المسجد منذ عام ١٩٣٦م واستمر مؤذنًا إلى عام ١٩٩٩م، أي أنه رَحِمَهُ اللَّهُ قضى ٦٣ سنة من عمره مؤذنا. ولعله بهذا يكون المؤذن الوحيد على مستوى الجزيرة العربية الذي استمر طوال تلك السنين. وكما ذكر لي ابنه (صالح) المؤذن الحالي للمسجد أن والده كان يصعد المئذنة خمس مرات يوميًا ولمدة ٣١ سنة لعدم وجود الميكرفون، في حين استمر مؤذنا بالميكرفون لمدة ٣٢ سنة.

لا أتذكر الشيخ التميمي إلا وهو في فترة متقدمة من عمره ولكن صوته المميز الذي لازمني منذ الصغر ما زال يرن في أذني. وكان موعد أذان الظهر يحتل أهمية خاصة بالنسبة لنا الطلاب كونه يعد إعلانًا على الاستعداد للذهاب إلى المدرسة (الفترة المسائية)، أما موعد أذان المغرب وخاصة في شهر رمضان المبارك فله مكان ثابت في الذاكرة، وخاصة اللحظات التي تسبق الأذان أو الدعاء بعد الفراغ من صلاة الجماعة. كان الجميع يكن للشيخ التميمي الاحترام، وحتى بعض الشباب الذين لا تروق لهم بعض لزماته يلزمون الصمت هيبة له.

ولأن بيته ملاصق للمسجد أو هو جزء منه فإن خروجه لإقامة الصلاة يمر من أسفل المئذنة، لهذا يرتبط الصوت الذي يحدثه الباب الموصل إلى صحن

المسجد عند فتحه بقرب موعد الصلاة، وينتظر الجميع إشارته لإمام المسجد بدخول وقت صلاة الجماعة، وله في ذلك ألفاظ مشهورة.

تعمدت مرة واحدة الحديث مع الشيخ المؤذن لغاية في نفسي وحاولت إثارته بحديث الذكريات وفوجئت أن داخل هذه الشخصية المهابة إنسانًا سهلًا مرحًا، ولعل ذلك من أسرار طول عمره الذي ناهز المائة والسبع عشرة (١١٧). وقد سمعته في سنوات متعددة يعلن على الملأ في المسجد سنوات عمره حتى حينه، ويترك للجميع تفسير الحكمة من ذلك، على أن خبرته في الحياة وورعه وزهده جعلته يردد الكثير من الحكم على أبنائه منها: "أكثروا من الاجتماع فإن الفراق حاصل". والفراق حق، وحصل لشيخنا في يوم الأربعاء الموافق ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م، وهكذا غادر المؤذن مئذنته التي ارتبط بها وارتبطت به، ولكن دعوة الحق والخير التي ظل مداومًا عليها وعلى ترديدها السنين الطويلة كفيلة بإذن الله أن تشهد له وتبلغه ما تمنى. نسأل الله الجنة لمؤذننا، ولجميع المسلمين، وشهر مبارك وكل عام وأنتم بخير.

الجد.. الابنة.. الحفيد

هؤلاء علامات مضيئة ورائدة في حقل التربية والتعليم الحديث في المكلا، وربما على صعيد حضرموت. والتقسيم الذي ورد في العنوان غير دقيق ووضع لاعتبارات معينة ولم يؤخذ عند وضعه تدفق السنين وتبدل الأحوال، فالجد هو أيضًا أب للابنة والابنة هي أم للحفيد وجدة لأبنائه والثالث هو ابن وأب وحفيد. وحتى لا نتوه في دوامة، ندخل مباشرة في الموضوع.

الجد:

ونعني به الشخصية الاجتماعية والتربوية المرموقة، وشاعر السلطنة القعيطية ورائد تعليم الفتاة في حضرموت: إنه الشيخ عبدالله أحمد الناخبي رَحِمَهُ اللَّهُ يفصل بين بيتنا في برع السدة وبيت الشيخ الجليل بيت واحد بمحاذاة الجبل، لم يكن لي شرف الحديث مباشرة مع شيخنا رغم أنني صافحته وقبلت يده عشرات المرات!!

عندما كان الشيخ إمامًا لمسجد بازرعة كان لزامًا عليه في أثناء توجهه لأداء صلاة الجماعة في المسجد أن يمر بشارعنا في ذهابه وإيابه. ويستغل الأطفال هذا المرور بتقبيل يد الشيخ المعطرة بالعود في سلوك عفوي لم يكلفوا به، ولم يمنعوا عنه. وفي المقابل يتلقى الشيخ التحايا البريئة بابتسامة صامتة، ووقار مشهود، دون إبداء أي امتعاض من الأيدي غير النظيفة في الغالب. لم نتمتع كثيرًا بهذه التحية، فقد غادر الشيخ شارعنا ومكلانا دون رجعة كما غادرتها أشياء كثيرة جميلة لم نعرف أسبابها في حينه.

الابنة:

وهي الشيخة الفاضلة والأستاذة القديرة: فاطمة عبدالله الناخبي (رحمها الله) الشهيرة بعبودة ناخبية. وبغض النظر عن الدور التعليمي الرسمي الذي قامت به بمعية والدها ثم بعد سفره، فما يلفت النظر أكثر، جلوسها لتعليم البنات بعد أن علمها والدها دون أن تطلب هي أو والدها من الناس جزاء أو شكورًا. وحتى بعد أن انضمت مدرستها للتعليم الحكومي لم يكن ذلك بدوافع مرتب لها، بل غلب عليها جانب الصدفة وذكاء ناظر المعارف الشيخ القدال في قصة معروفة.

تذكر الوالدة بألم وحسرة عدم تمكنها من التعليم على يد الشيخة الفاضلة رغم البداية المشجعة. فالنظرة الاجتماعية السائدة في تعليم الفتاة كانت لا تريد ذلك، لهذا ابتعدت الكثير من الفتيات من (فضيحة) التعليم إلى (شرف) الأمية!!

لقد سمعت أن الشيخة الفاضلة كرمت في حياتها وهذا أمر حسن رغم ما قيل عن تواضع التكريم. وفي رأيي أنها تستحق الكثير وفي الأقل إطلاق اسمها على أكبر مدرسة للبنات في المكلا بدلًا من اسم ثانوية الميناء، وهو أمر كان متداولًا ولا نعرف كيف غُيّر؟

الحفيد:

هو الأستاذ عبداللاه محمد السقاف (أطال الله عمره)، تدرج في العمل التربوي من مكانه الصحيح، فكان معلمًا، فنائبًا لمدير مدرسة، فمديرًا، ثم إداريا في مكتب التربية والتعليم بمحافظة حضرموت. عندما كنت طالبًا في ثانوية المكلا

للبنين كان الأستاذ القدير نائبًا للمدير للفترة المسائية، وقد تتلمذت على يده من خلال تطوعه في تغطية حصص المدرسين الغائبين، وكان يستغل هذا الدخول في تكثيف النصائح والإرشادات. وفقط سألني مرة عن اسمي واسم شقيقي الذي لفت غيابه المتكرر أستاذنا العزيز.

لم تتهيأ لأستاذنا فرصة أعتقد أنه يستحقها لإدارة التعليم بالمحافظة، لسبب يسير، أنه سيكون الرجل المناسب في المكان المناسب.

بقي أن أهمس في أذن الأستاذ عبداللاه: (إنك كنت تستخدم دراجتي الهوائية في أثناء الحصص دون أن تدفع أجرة ذلك، لهذا أقول لك إن التاريخ لا يرحم، ولا يضيع حق وراءه مطالب).



خور المكلا وصراع الضفتين الشرقية والغربية

لسنوات طويلة رُحِّلت معضلة عيقة المكلا، وخلال هذه السنوات أُجبر العابرون بها، والساكنون بجوارها، واللاعبون في ساحاتها اليابسة على تقبل الروائح الكريهة المنبعثة من المياه الآسنة الراكدة وتلك المتدفقة من مواسير المجاري، حتى ظن الكثير أن ذلك الوضع ضريبة لا بد منها لمن أراد السكن والاستقرار في مدينة المكلا، ثم خاب هذا الظن عندما تغيرت العيقة من معبر مزعج ومضر إلى مكان منظم وجميل ومريح بل أجمل ما في المكلا "ومن شاف ما هو كما من سمع".

إن ما قلناه خلط سريع بين الماضي والحاضر لموقع في المكلا كان.. ثم صار.. وسأترك الحاضر هنا؛ لأنه ما يزال يتحدث عن نفسه وممتدًا كما يبدو نحو المستقبل. أما الماضي الذي يستهويني فسأحاول الخوض فيه والبحث عنه من خلال الغوص في أعماق الخور لعلي أنتشل شظايا ذكريات متناثرة وبقايا طفولة صامدة وأطلال مراهقة قائمة وقبسات براءة مضيئة. ولا أدري هل يدخل ما أكتبه في باب البكاء اللذيذ على الأطلال؟ أو جاء بتأثير روعة اللحظة؟ هل في الأمر حنين لمرتع طفولة من خلال مكان؟

العيقة التي نعرفها وتعنينا؛ ميادين صغيرة لكرة القدم مفتوحة ومتناثرة ويوجد ملاعب محجوزة لبعض الفرق الصغيرة (الزمالك- المحلة- الصواريخ- العربي... إلخ) كونت هذه الملاعب بعض نجوم كرة القدم في مدينة

المكلا، التنافس بين الفرق قوي، الأولاد يعشقون كرة القدم، لم يصل بعد البث التلفزيوني (المثلج) والمباشر.

والعيقة التي لا غنى عنها في حقيقتها منطقة فاصلة ومحايدة بين ضفتين متنافستين، ومختلفتين شرقية وغربية. ينظر أصحاب الضفة الغربية لإخوانهم في الضفة المقابلة على أنهم سكان الحي الراقي ويفترضون فيهم العيش الميسور وامتلاك المال وحياة الدلع، وهذا الظن أو الافتراض جعلهم ينظرون إليهم بنوع من الطمع والاستهانة. أما أصحاب الضفة الأخرى الذين غالبًا ما يكونون في موضع الدفاع فينظرون إلى إخوانهم الأعداء نظرة ازدراء كونهم يلجؤون إلى أساليب الابتزاز في أخذ النقود مستندين في ذلك إلى أعدادهم الغفيرة، ولتعمدهم الخشونة في اللعب، وأحيانا يحاولون إفشال التمارين الرياضية للآخرين لأسباب في أنفسهم، وبحجج واهية منها الادعاء بامتلاكهم الملعب، أو أنه محجوز قبل قدوم الواقفين عليه.. إلخ (ولك عذر والّا لك حمار)

وهكذا فإن من الطفولة ما يعكر صفو الطفولة، وتتحول العيقة المحايدة إلى ساحة للعنف والعراك والخوف. وتبرز فيها لعبة القوة والتوازنات العفوية كأحسن ما تكون ويشتد ابتزاز وتعدي أصحاب الضفة الغربية عندما يمتلكون العنصرين الآتيين:

١) الكثرة المعتادة في العدد.

٢) القلة في العدد مع الاستقواء بعنصرين أو أكثر من الشباب الأكبر سنًا من الجميع.

أما أصحاب الضفة الشرقية فقد علمتهم الأيام التعامل مع المعطيات المتوقعة بحذر معين، فهم في البداية يحرصون عند ذهابهم إلى العيقة على عدم أخذ النقود معهم أو إخفائها - على قلتها عندهم- تحسبًا للطوارئ. وعند حدوث الخلل في ميزان القوى لصالح أصحاب الضفة الغربية حسب ما ذكرنا أعلاه، يضطر أصحاب الضفة الشرقية إلى تقبل الهزيمة بروح رياضية، ففي البداية يلجؤون إلى نوع من التكتل الدفاعي المكثف ثم يتم الانسحاب تدريجيًا. وتزداد الأمور سوءًا عندما يتشجع المنتصرون بنصرهم السهل ويطورون هذا النصر باعتداء على هذا أو ذاك، وقبل أن تتدهور الأمور يتطوع البعض للمساعدة وإعادة التوازن وخاصة من المنتمين إلى ضفة المعتدى عليهم، أو يتدخل المصلحون المحايدون وينهون مشروع عراك قابل للتجدد.

وعندما يتساوى أو يتقارب أصحاب الضفتين في العدد ومن ثم القوة، فالأمر يعود لحكمة قائدي المجموعتين، ولأن معظم الصراعات في جوهرها صراعات إرادات سواء للكبار أم الصغار فإن وضعية التوازن تفرض حوارًا يسعى من خلاله المتحاورون إلى كسب جولات، من ذلك عرض قائد الضفة الغربية الرغبة في اللعب (مباراة)، ويدرس قائد الضفة الأخرى العرض مع زملائه وأحيانًا تتم الاستجابة على مضض، وتجري مباراة رياضية خالية من الروح الرياضية. أما في حالة رفض العرض فيستعد الجميع لحالة من الإرباك يفتعلها المرفوض عرضهم معتمدين في ذلك على قوتهم الجماعية، أما أصحاب الملعب والكرة والذين كما قلنا غالبًا ما يكونون في موضع الدفاع فيظل صمودهم رهن

تماسكهم ووقوفهم إلى جانب قائدهم. ولفترة طويلة يظل الأمر معلقًا على أن شعورًا بالارتياح يعتري الجانبين، وكلٌّ يفسر الوضع حسب زاوية نظره، فيرى المهاجمون أنه وإن لم يتمكنوا من اللعب فإنهم نجحوا في إعاقة أعدائهم من الاستمرار في اللعب ولم يخسروا شيئًا، أما المدافعون أصحاب الملعب فهم أيضًا لهم تفسيرهم الخاص الذي يرضي كبرياءهم وهو أنهم وقفوا بالمرصاد ضد الابتزاز ولم يظهروا الخوف أو التراجع.

وفي حالات أخرى من توازن القوى يحدث نوع من استعراض القوة الفردية (المبارزة)، ولأن أخي صالح رَحِمَهُ اللَّهُ كان كثيرًا ما يكون قائدًا لنا فيطلب المبارزة لنفسه، وعندما يتقدم من هو أصغر منه سنًا يرشحني أو أخي الأصغر، ولأن سر قوة (إخواننا الأعداء) يكمن في تكتلهم فإن خروج الواحد منهم منفردًا يفقده ذلك الغطاء الذي يستند إليه في إظهار شجاعته، وهذا الوضع غير المألوف بالنسبة (للغربيين) يجعل النفر منهم يخرج وقد أعان خصمه على نفسه، أما الوضع بالنسبة (للشرقيين) فهو وضع مناسب ولطالما تمنوه.

وهكذا فإن (عيقة) المكلا لم تكن مكانًا للعب فقط، بل كانت ميدانا للصراع والعراك خاض غماره في ساحاتها أبناء الضفتين. على أن توابع هذا العراك تمتد أحيانًا إلى مناطق نفوذ الطرفين. ويأخذ الطرفان حذرهم عندما يضطرون لعبور ضفة الآخر، فالشوارع الداخلية للضفة الغربية تعد منطقة خطرة وشبه محظورة، وبالمقابل يعمد (الشرقيون) إلى استغلال فرصة دخول أهم غرمائهم إلى منطقتهم، وتكون السعادة بالغة عندما يظهر هؤلاء من الاستسلام ما

يضطرون هم لإظهاره في مناسبات سابقة (وواحدة بواحدة).

ولكن لعبة الحياة تستمر بحلوها ومرها وتجري الكرة وتستمر في الجريان.. ها هم بعض (أعدائنا) صاروا زملاءنا في صفوف الدراسة الثانوية وعندما نتصافح ونتبادل الابتسامات نعلن بلغة العيون نهاية الصراع وبداية الصداقة.

وتجري الكرة فإذا بالمكان يضيق بأصحاب الضفة الشرقية ويلقون عند إخوانهم السعة والمتنفس، ويتقارب الناس ويتداخلون وتختفي الحدود شيئًا فشيئًا، ثم تحلق الكرة في السماء فلم يعد لها مكان في ساحة العيقة، فقد أصبحت خورًا جميلًا تواصل فيه سكان الضفتين عبر جسرين أزرقين بما يشبه سيمفونية من الفرح والأمل، يستحق من قام بها وسعى فيها كل الشكر والتقدير.



نزعتُ منهُ... وغرستُ فيهِ!!

بعد الساعة الثامنة مساء وفي صيف سنة ١٩٩٧م حُشرتُ في المكروباص المتجه من المكلا إلى ديسها حشرًا. وجلستُ القرفصاء، فأصحاب الحافلات يعبثون في إعادة ترتيب الكراسي لزيادة أعداد الركاب. وعلى الجميع في غياب القانون المنظم السكوت والانصياع أو المشي على الأقدام! جلست بجانب النافذة كالمستسلم لقدره، كانت الكثير من الأفكار تتزاحم في ذهني ولا تكاد تستقر.. أهمها المشكلة المالية المستعصية والمرحّلة من سنين، التي تقض مضجعي وتكدر حالي بين فينة وأخرى. وما يزيد الأمور سوءًا متطلبات دراستي للماجستير المتجددة من شراء كتب وانتقال من منطقة إلى أخرى بحثًا عن المصادر والمعلومات. ولا بد أن نشير هنا إلى أن هذه الدراسة كانت على حسابي الخاص. وكان راتب المعلم الثانوي (ولا يزال) يتزايد كمًا وعددًا ويتناقص كيفًا وعضدًا.

في هذا الوضع الممتلئ باليأس والمحبط للأمل، جلس بجانبي طالب من طلابي اقتنص فراغ الكرسي الذي بجانبي وعلى الفور سلم عليَّ، ومد يده للمصافحة فاعتدلت وصافحته. ثم سألني السؤال التقليدي الذي يسأله عادة طلابنا: هل عرفتني؟ وغالبًا ما تكون الإجابة: عرفتك ولكنني لا أتذكر اسمك. ويتبرع بعض الطلاب بالاعتذار نيابة عن المدرس بأنه من الطبيعي أمام كم الطلاب الذين يمرون أمامه أن ينسى الكثير منهم.

ولأنني فعلا تذكرت شكله، أردت أن أثبت ذلك له، فقلت: نعم لقد درستك في ثانوية بن شهاب للبنين بالمكلا الصف الأول. وكانت طفرة المراهقة قد ثبتت في وجهه علامات الرجولة. بعد حفلة التعارف القصيرة قال لي بسرعة:" أنت **يا أستاذ نزعت مني شيئًا وغرست فيّ شيئًا"**.

قلت: كيف؟

قال وهو متعجل الإجابة: "قبل خمس سنين كنتَ مدرسًا لمادة التاريخ في ثانوية المكلا، وفي أول اختبار شهري ضبطتني مع عدد من الطلاب نغش بورقة صغيرة أخذتَها بهدوء، ثم بعد توزيع الأوراق سلمت الطلبة الغشاشين أوراقهم مدبسًا معها ورقة الغش (الدليل) وفي أعلى الورقة مكتوب باللغة الإنجليزية zero"

قلت: نعم هذه عادة ما زلت قائمًا عليها، وأنبه وأحذر الطلاب قبل يوم الاختبار.

قال: "بعد تلك الحادثة (الخزوة) جعلتني أخجل من نفسي ونزعت من داخلي الرغبة المستقبلية في الغش وصرتُ دائمًا مستعدًا، ولا أترك للصدفة مجالًا في دراستي". فقلت له: الحمد والشكر لله.... وماذا غرستُ فيك؟

قال: "أما ما غرستَهُ في نفسي فهو الرغبة الجامحة للقراءة، فقد حببتَ إلينا عادة القراءة المفيدة وما زلت أتذكر كلامك أن القراءة ليست حشر مجموعة من المعلومات بل تنشيط العقل والفكر وتنمية القدرة على الفهم والتعبير وتكوين الأفق الواسع للنظرة للحياة ومشكلاتها. فقد كنتَ تكلفنا باختيار ما نراه مناسبًا من أبحاث تاريخية تدور بشكل أو بآخر حول المنهاج، ومن هنا بدأت تتأصل لدي

عادة القراءة وشراء الكتب والمجلات..'' مرة أخرى قلت: الحمد والشكر لله.

كان الطالب يريد أن يقول شيئًا آخر، ولكنه سكت عندما وصلتُ إلى المحطة التي أنزل فيها فتوادعنا بحرارة الأصدقاء.

لم يدرِ هذا الطالب الوفي كم نزع مني من هم وغرس فيّ من أمل.. وكم كنت في حاجة إليه... قبل دقائق كانت الدنيا تدور بي، ولا أكاد أسيطر عليها فإذا بي أشعر بأنني ممسك بتلابيبها. فصرت أحدث نفسي كم هي مشاكل الحياة سهلة، عندما نتوكل على الله ونكتسي بالعافية، ونشعر أننا مفيدون في أعمالنا. إن ما ننزعه من يأس في حياتنا وما نغرسه من أمل يجعل الحياة لها معنى. والنفق مهما كان بعيدًا فإننا بعزيمتنا لا بد أن نصل، المهم أن نشعل شمعة ونحافظ عليها ولا نصادق أو نحالف أو نجامل الظلام.



مطلوب للشرطة

البداية:

دق جرس السراح معلنًا نهاية اليوم الدراسي في مدرسة الحرية الابتدائية بالمكلا، وتأهب الجميع للمغادرة، وهي لحظة وصفها وصفًا جميلًا الشاعر أحمد شوقي بقوله:

لهم جرس مُطربٌ في السراح ولـيس إذا جَـدَّ بـالمُطرب

نحاول استكمال كتابة درس العلوم للصف الرابع الابتدائي. كانت المدرسة تعج بحركة السراح (الديار) وتدفع إلى الاستعجال بالكتابة بغض النظر عن جودة الخط..

بالقرب من بوابة المدرسة الصغيرة، يوجد رجل شرطة يكرر قراءة بعض أسماء التلاميذ، ألمح لي البعض بأنني ربما أكون معهم، فأنصتُّ فإذا به يذكر اسمي مع الأسماء المطلوبة للشرطة، وبقية الأسماء كانت لبعض الأصدقاء والجيران.. لا أتذكر شعوري المباشر بعد سماع اسمي، ولكن خلال السنين التي اختفت فيها هذه اللحظة من عمق الذاكرة، ظلت قسمات رجل الشرطة ماثلة أمامي كلما وردت المناسبة.

التهمة والتحقيق:

ذهبت إلى البيت وأخبرت الأهل بالأمر، وبعزمي على الذهاب إلى الشرطة عصر ذلك اليوم مع صديقين من المطلوبين. كان خبر سرقة ما يُحَلِّق في المكان وأكد

ذلك استدعاءات الشرطة.. مرة أخرى لا أدري كيف كان شعوري ولكنني كنت أكرر: "يد ما سرقت ما تخاف"، وقد يكون هذا الشعور إسقاطًا زمنيًا، الله أعلم..

تفرّس الضابط المناوب في أجسامنا الهزيلة واستعرض أسماءنا، ثم وجه لنا تهمة سرقة بعض المواد القرطاسية التابعة لصحيفة (الشرارة) من مستودع مطل على البحر - قبل الكورنيش - وقريب من مدرستنا وحارتنا.. تعددت الأسئلة وتنوعت وكانت الإجابة واحدة بأن لا علم لنا بالسارق والمسروق، وكنا صادقين. تركنا الضابط مدة من الزمن.. وعندما عاد أطلق سراحنا معلنًا استغرابه: "عادكم هنا؟" إذن هي البراءة..!

الدلالة:

كان لهذه الحكاية حضور قوي بعد الوحدة اليمنية مباشرة عندما سادت ثقافة الأطقم العسكرية مدفوعة الثمن، وهي ثقافة غريبة على حضرموت وأهلها، فقد كان كافيًا إحضار أمر استدعاء من الشرطة للمشتكَى عليه ثم تعالج الأمور.. لا أطقم ولا يحزنون، وقد يدل ذلك على هيبة الدولة وحضورها القوي في المجتمع وهذا صحيح، ولكن الأهم من ذلك أصالة الوعي الجمعي الذي دعم هذا السلوك، أو لعلها ثقافة السلام الكامنة في حضرموت. وقد يختلف الناس في تقدير ذلك وكل حسب (ثقافته). لقد انتصرت - إلى حد ما - عبقرية الانضباط الحضرمي على ثقافة الأطقم الغريبة.. هل سيصمد هذا الانتصار؟ إن شعار الشرطة في خدمة الشعب سيظل شعارًا خاويًا وبلا جذور حتى يصدّق الناس أن الشرطة منهم وفيهم ولهم.

قشارة سانجي

كثيرًا ما يلتف البحر حولها، ولكنه لا يستطيع أن يغمرها، وحتى عندما يتميز من الغيظ لا يصل إلى رأسها باستثناء نطشات من غضب. هذه كانت حالة القشارة مجهولة الاسم الواقعة في شاطئ المكلا. تشهد على وجودها قبة المحجوب، ومدرسة الحرية، ومصابغ النيلة، وسنابيق الصيادين، ومركب بقيق. هي من البحر ولكنها تشبه الجبل.. يعرفها شباب الحي فردًا فردًا: اسألوا عنها غوث باسيف، وعوض حترش وصالح عنبر، وعوض عُبِّد، اسألوا أيضًا صالح باعامر، وهلال الجعيدي، وسالم بارعيدة، ومحمد عوض الجعيدي، وأمين بشير، وعبدالله بلعفير، وصالح الكلدي، وأنيس عبدالعزيز، وعلي محمد بامطرف، وعبدالله حسين البار، وبدر بن عقيل، وعبدالله اليزيدي، وعباس زبير، وسعيد لرضي، وفهد باوجيه، وعبدالحكيم بن جسَّار وصلاح بن دهري، وعادل باقحوم، وماجد أنيس والقائمة تطول.. قبل أن توأد قشارتنا وهي حية في كورنيش المكلا، تحصلت على اسمها غير الشهير إلا في أوساطنا الصغيرة.

فقبيل غيابها القسري تردد على قشارتنا شاب مكلاوي قادم من سواحل إفريقيا الشرقية ولكنه تغلب عليه الملامح الهندية، تآلفنا مع زياراته المتكررة، وطلعته، ولكن وصلت العلاقة في حدها القريب إلى السلام من بعيد. ولأننا لا نعرف اسمه ولا أصله ولا فصله تصرفنا وأطلقنا عليه (سانجي)، وهو جزء من اسم ممثل هندي مشهور يدعى سانجي كابور. وسانجي قشارتنا لا يفصح عن

اسمه الحقيقي حتى إذا نودي بلقبه الدخيل!! مع الأيام وتكريمًا للضيف الغريب أضفنا اسم سانجي إلى قشارتنا.

لم نلتفت إلى قصة العشق بين سانجي وقشارتنا، حتى اكتشفنا أنها مجرد محطة للعشق بينه وبين جارة للقشارة، وانفتحت الشهية الفضولية لمعرفة المزيد، ترديد سانجي للأغاني الهندية يؤكد تهمة الهيام والغرام. ولكن السؤال المهم المطروح: من الحبيبة؟ سانجي يرسل نظراته إلى بيت محدد لا يُرى عادةً ساكنوه، ولكننا متأكدون من ازدحام الجمال فيه.

هل هو حب من طرف واحد؟ هل هو وهم الحب؟ سانجي يجلس بالساعات على أمل نظرات فضولية أو نظرات شفقة. يحرص سانجي أن يكون بكامل أناقته ولياقته مدة من الزمن، ثم ينقلب الحال غير الحال.. سانجي في ملابس رثة، هل أُوصدت الأبواب؟ ولكن سانجي يعود كما كان، هل رق الحبيب؟ هل سنسمع خبرًا جديدًا؟ ويختفي سانجي ثم تختفي قشارته، مركز ستره وانطلاقة حلمه!! ولكن.. كيف انتهت القصة؟؟

ظل لغز سانجي يؤرقني شهورًا بعد شهور، وسنين بعد سنين، يسكن سانجي في منطقة جول الشفاء وكما حلم وهام خارج منطقته نجده هذه الأيام يهيم في حب جديد أيضًا خارج منطقته، سانجي الآن يؤذن في أحد مساجد الديس وللوصول إلى هذا المسجد يتجاوز عددًا من المساجد قريبة إلى بيته. لماذا سانجي دائمًا بعيد؟

جلست بالقرب من سانجي بعد الصلاة، كان في حالة مرحة، وكان سهلًا أن أسأله عن اسمه ومهنته وحاله ولكنني ترددت وآثرت أن يكون السلام من بعيد كأول العهد، وتمنيت في أعماقي أن تعود قشارة سانجي، ويعود سانجي إلى قشارته، لنروي القصة من بدايتها، ومن حيث بدأت...



وللطباخين عصرهم الذهبي

(صالح بامهري)، (مردوف)، (صالح بافرج)، (باصديق)، (عمر باعلي)، (سالم بو زيدان)، (أحمد الغيلي)، (عمر حسنون).. وغيرهم كثر، وقبلهم أكثر.. أسماء ارتبطت ارتباطًا عضويًا بالولائم في المكلا: سعيدها وحزينها، وهي تمثل أواخر ما يمكن تسميته بالعصر الذهبي للطباخين التقليديين الذي انتهى بعد قيام الجمهورية اليمنية، ولكل عصر ذهبه ولونه.

وبعودة إلى عصرنا الذهبي أو عصر أبطالنا الطباخين كما شاهدناهم، نجد لهؤلاء الكلمة العليا عند مخدميهم قبل أن يحمى وطيس الوليمة وفي أثنائه. يبدأ اليوم المشهود بقيام ثلة من شباب الحافة وأقرباء أهل الوليمة السعيدة منذ الفجر الباكر بجلب الطباخ ومساعديه من مكان متفق عليه وجلب ما تبقى من قدور الطبخ النحاسية الكلاسيكية وعدة وعتاد فارس اليوم.

عندما يصل فارسنا وأركان حربه إلى ساحة الوغى يتفقد المكان بهدوء وتأنٍ ويحدد المكان المناسب للقواعد التي تنطلق من تحتها النيران. ثم يبدأ بإصدار أوامره للجنود المتطوعين والمستعدين لتلبية الأوامر، وقبل ذلك يأمر بوضع الأخشاب و(القصام) تحت القواعد الحديدية ويتفقد بنفسه شعلة النار وجذوتها، لا يطيعها عندما تقول هل من مزيد؟ ثم ينزع منها جميرات يُعمِّر بها بوريًّا صباحيًا يعدل به المزاج، لتنهمر بعد ذلك الأوامر والتكليفات الآتية: تقطيع البصل، فتح علب الطماطم، تقريب الذبائح، تقريب الحطب، القيام بإخراج الرز من الجواني

وغسله، وضع المناحيز في وضع الجاهزية لدق ما يمكن دقُّه، تجهيز علب السليط، إحضار ما تم تجهيزه في البيوت. وينتشر الناس بكل فرح وسرور وينهمكون، بينما فارسنا يستغل هذا الوقت بتجاذب أطراف الحديث مع أركان حربه في شيء لا نظنه له علاقة بالطبخ والطبيخ.

وهكذا تبدأ الجولة الحقيقية للمعركة قبل أن يبدأ الفرسان دورهم، فعندما تَمَيّزُ النار من الغيظ يأمرون بوضع اللحم في القدور، وهنا تبرز مشاركتهم الفعالة الخبيرة في حفلة الرز المكلاوية الشهية ببهاراتها الطاغية. تكون عندها كتيبة البصل قد نفذت مهمتها وقطعوا البصل أوصالًا وأبعدوا ما كان عنه دالًا. ويتسارع الإيقاع ويحمى الوطيس وتتكثف الأعمال، ها هم جنود الطماطم جاهزون، ومقطعو القصام متحفزون، والغاسلون للرز متكاثفون، وأصحاب المناحيز يتقافزون.

وفارسنا في قلب المعركة ثابت في مكانه يضع للأمور مقاديرها اللازمة في أوقاتها المناسبة، وهي سر من أسرار صولته وعنوان لقوته. وينتصف النهار وقد قذف بمن يستحق القذف في النار لتبدأ استراحة المحاربين، ويأمر طباخنا بالفطور وما أدراك ما الفطور، فهو دور ربات الخدور، ولأنه الملك والقائد فيبدأ به ويعطى من الكبدة أحسنها، ومن المعجنات أجملها، ومن (الصانة) أشهاها، ومن الشراب مصطفاه، ومن الحلو منتهاه.

وتبدأ الجولة الثانية ما قبل الأخيرة يدشنها بطلنا بتعميرة جديدة حتى يفرغ

الجميع من الطعام ويسترجع ما تبقى منه واللئام نيام. ثم يتفقد ساحة الوغى ويعيد تريب الصفوف ثم يستعد للجولة الأخيرة الصاخبة الخالية من النيران ويشهدها الأباعد والجيران. إنها مرحلة ملء البطون التي عند خوائها تغيب الذهون وتعم الفتون. في هذه الجولة يأخذ فارسنا وكبار مساعديه أماكنهم اللائقة بعد إدارتهم الحكيمة للمعركة السابقة ويضع الزعيم حبات الرز في الصحون المعدنية (التباسي) كمن ينثر حبيبات الورود للمهنئين بالانتصارات، ولكنه يحرص على أن يسمع كلمات الثناء لما قام به من دور عظيم. ويكتمل دور فارسنا مع آخر صحن رز يرسل للنساء، ولا ينسى عند مغادرته المكان حصته من الغنيمة في إناء خاص به.

إن صولجان إخواننا الطباخين ووجاهتهم المؤقتة لا تعني ابتزازهم لأصحاب الوليمة. فجيش المساعدين المتطوعين يقلل من كلفة الوليمة. لقد كان الطباخون جاهًا بلا مال والآن مال بلا جاه. ويستمر دور المتطوعين ولا يتوقف إلا بعد غسل أواني الطبخ وإعادتها إلى أماكنها، وكذلك عدة الطباخ. وبعد نهاية المهمة يخبر الطباخ في مقهاه أن الأمر بلغ منتهاه. ثم يسلمون عليه ويفرحون إن رد التحية بأحسن منها أو ردها بمثلها.

شارع حمار بلصقع

يقع بيتنا في قلب حارة (برع السدة) وفي منتصف الطريق بين جبل المكلا وبحرها. والمسافة بين هذين الصديقين تقل عن الكيلومتر الواحد، وفي بداية ثمانينيات القرن الماضي وبعد الاحتلال الترابي والإسفلتي البغيض لشاطئ المكلا القديمة اتسعت بينهما الهوة، ولا حول إلا بالله ولا قوة. نعم هو احتلال وبغيض، ولِمَ لا؟ فقد دفن ما يسمى (بالكورنيش) ملاعبنا ومراعينا، وأحلامًا كنا نناجيها، وكانت تناجينا، وساحات حكينا فيها حكاوينا، وذعر أسماك كانت تغذينا وتسلينا، ووو...

ولكن البحر لا يزال ينادينا والجبل يشد على أيادينا. صحيح هناك من يعد (البغيض المحتل صديقًا)، وأنه وسع المدينة وكادت تضيق، وأزال مجاري يا ما نهقت نهيق.. (نحن) لا نحارب الطريق، ولا نروج لما يعيق، ولكن لنجلس ونتحاور صديقًا مع صديق. سنقبل كل الحلول، ولكننا لن نهدأ حتى يرضى البحر، ويبتسم الجبل، وتحتضنهما أيادينا، ونبادلهما القبل بالقبل...

وقبل الكورنيش (البغيض) كان الشارع الموصل إلى بيتنا يمتد رأسيًا من شاطئ البحر حتى سفح الجبل بعرض ثمانية أمتار تقريبًا، وللوصول إليه وما بعده تجد على يسارك البيت الذي يلامس البحر ويسكنه الأستاذان صالح باعامر وحسن صالح باعوم، وعلى اليمين مقابلًا له مساحة من الأرض بنيت فيها عمارة قبل وقت قريب.

وبعد أن تجاوز الشارع الرئيسي للمكلا يقع على يسارك البيت الجديد الذي يسكنه في الغالب الخبراء (الأصدقاء) السوفيت، وعلى اليمين وبمساحة واسعة تقع سينما بن كوير ومكان حجز التذاكر خلف شاشة العرض. وملاصقًا بها منزلهم الشهير، ويقابل هذا الامتداد على اليسار بالبيت الذي تسكنه أسرة آل باوجيه، والفنان سالم بطيق، وصالح بن ثابت (الجاوي)، ثم يفصل بينهما زقاق صغير يصلك إلى منزل السيد أحمد صالح العطاس تاجر قطع غيار السيارات، ويلتصق به حوش آل حقص، وخلفهما منزل آل منصر السييلي، وبعد أن تعدّي الشارع الثاني يقع على يمينك البيت الوقف لمسجد المشهور، وبيت أسرة آل باقحوم المعروفة، وبالمقابل تجد بيتين متلاصقين سكنتهما عائلات عديدة منها آل الذيباني، وآل بارباع، وآل باقطيان، والتربوية فاطمة بن دهري وآخرون.

وبعد شارع لا يتجاوز الستة الأمتار يقع يسارًا البيت الذي يسكنه المأذون علي محمد مديحج، والأستاذ عمر باجابر مدير البنك الأهلي، وفي الدور الأرضي العم الأعمى (محمد) وزوجته. وملاصقًا به حوش آل باثواب الذي يستخدمه جيرانه لحفظ أغنامهم. وعلى اليمين يقع بيت آل بن قديم الذي يمتد عرضًا بامتداد قطعة باثواب ومنزل المديحج، ويسكن هذا البيت آل باجردانة **والعم سالم بلصقع**، وفي ركنه السفلي يقبع حماره والعربية ذات الإطارات الهوائية. وأول ما يواجه النازل من (سدة) بيت (المديحج) حمار بلصقع. ثم تعدّي شارعًا مسافته كمسافة سابقه ليقع على يسارك منزل جار الجنب السيد أحمد العيدروس والعم ناصر المفلحي، زوج خالتي، ومقابله منزل آل باحطاب

الذي انهار ربعه المقابل لبيتنا عندما كنا في صفوف الدرس في مدرسة الحرية الابتدائية، وربك سلم.

وبفاصل يقل عن المترين من بيت جار الجنب يقع (بيتنا)... وفي مقابلنا يلتصق بيتان صغيران لجيران العمر آل زبير وآل الحبشي. وعلى مرضى القلب أن يرتاحوا قليلًا، أنت الآن تقريبًا في منتصف الطريق، ولا تزال في حالة صعود.

وإذا استأنفنا الصعود معًا فسيكون على يسارنا المنزل الذي يسكنه الجار محمد أحمد بادحمان تاجر العسل، وفي البيت نفسه يقع منزل العم صالح بن جبير، والعم عبدالله بن سلوم، وعاشق قريته (السويري) العم عبد نصيب محمود، وعلى يمينه بيت الشنيني الذي يسكنه الجيران آل اليزيدي وآل بن همام وآل باظافر وملاصقًا به بيت الشيخ علي سالم الذي يلتصق اسم حماره باسمه فيقال حمار علي سالم. وبعد زقاق صغير يقع بيت آل الناخبي ويسكنه العم فرج صاحب الحمار، وما قيل عن الأول يقال عن الثاني، وعنده ينتهي شارعنا يمينًا فهذا البيت يصطدم بالسايلة وخلفه مجرى السيل (الشحرة)، وفيها يقبع حمارا الجارين وكثيرًا ما يحدث التناص بينهما في صوت النهيق، وهو رسول الهوى، ومنطوق الشكا.

ويسارًا يقع منزل الشيخ الشاعر المعروف عبدالله أحمد الناخبي، ومنه يكون الجبل قريبًا ولكن لا تزال أمامنا أكثر من خمسة بيوت تحتضن بدفء سفح الجبل، هناك حيث توجد المغارة وكم من إمارة، والأشجار والنباتات البرية،

وأماكن الجلوس في العصرية، ولكن ما علينا...

وهكذا سكنت الشارع عائلات متعددة المهن والثقافة، وعاشت بهدوء وسلام وطمأنينة، وعشرة صادقة، وألفة ناطقة.. وحتى صوت حمار جارنا بلصقع تعودناه بل صار مع الزمن معلمًا من معالم شارعنا بل وعند البعض منا يسمى الشارع باسمه، فعندما نحدد تحركات ألعابنا علينا أن نحدد نقطة البداية أو النهاية من عند حمار بلصقع، وعندما نصف الغريب على بيتنا نبدأ من البحر وسينما بن كوير ونصل بالوصف إلى حمار بلصقع، وعنده ستجد الخبر اليقين.

ولكن هناك من لا يعترف بهذا المعلم!! بل وأعلن ذلك جهارًا في بيتنا.. إنه الوالد مبخوت الصيعري (الكندي) فكان ضيف ضيفنا (ابن عمنا) القادم من وادي حضرموت ولاسيما من أحد فروعه (وادي عمد)، فعندما أراد ابن العم أن يقضي لنفسه حاجة في المدينة بعيدًا عن صديق رحلته الذي تمسك به مسكة العميان، تعذر (بن كند) بأنه إذا خرج وحده في هذه المدينة الكبيرة فإنه لن يستطيع العودة. ثم خطر على بال ابن عمنا ما يخطر على بالنا (حمار بلصقع) واستبشر خيرًا بفكرته ولكن الصيعري (تعزوى) وقال:

"بن كند، وإذا سرح الحمار نقول يا من؟"

والعم سالم بلصقع رجل كبير في السن لا علاقة له بالصقع (الصمم)، فذاك اسم عائلته ولكنه كان حريصًا على أن يضع مسافة من الحوار والجدل مع الأطفال، فلا نعرفه إلا رجلًا حازمًا، كنا نعرف بعضنا بعضًا، ونتقابل في مناسبات

الأفراح والأتراح، ونصطف أحيانًا في صف الصلاة في مسجد المشهور، ولكن كانت مسافة السنين لها حضور. ومع هذا كنا رغم صغر سننا، نقدر كفاحه في الحياة، وندرك مطعمه الحلال ومشربه الحلال، وازداد هذا التقدير مع الزمن إلى المحبة والاحترام. الله يرحمك يا عم سالم. يا عم سالم الله يرحمك.



(مطراق) صلِّ على النبي

البخيل من ذكر النبي عنده، وعليه لم يصلِّ، والصلاة عليه أمر رباني وحَثٌّ محمدي، فيها شفاعة من المصطفى وخير لك ولي إذا أذن ربنا العزيز الولي. من عصى هذا النبي فقد أبى ومن ارتبط به حلت عليه البركة واهتدى. يقع مطراق (زقاق) صلِّ على النبي في مدينة المكلا القديمة ولاسيما حي الحارة أو الصيادين، وهذا الحي يعد المعقل أو الجمهورية الحبيبة لشاعر المكلا الشعبي سعيد باحريز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لما يقارب العشرين سنة أو يزيد لم تتوفر مناسبة للمرور بهذا (المطراق)، وفي أيامنا الخوالي كانت أزقة الحارة مباحة لسكان برع السدة بعد أن كانت عصية - إلا بحقها- في عهد السلطنة القعيطية على آبائنا وإخواننا عندما كان قانون الحويف على تماسكه. ثم جمعت الرياضة الناس بعد أن فرقتهم العصي الطائشة والاشتباكات الساذجة، واتسع مفهوم الوطن عند الناس لكل حسب ثقافته. لم يكن جيلنا طرفًا في هذا الماضي بسلبياته وإيجابياته.

ها أنا أعود باحثًا عن مطراق صلِّ على النبي. والتساؤلات التي ستتبادر إلى الأذهان: لماذا هذا المطراق؟ وما هي أهميته؟ وهل يستحق الإشارة؟

حافة الحارة كانت الحي الجديد الراقي بالنسبة لسكان المكلا في أحيائها الأصلية (البلاد وحافة العبيد)، وتكون مقبرة يعقوب حدودها الأخيرة وبداية مدخل سدتها الأولى القديمة. ومع ازدياد الحركة التجارية واكتظاظ المكلا

بالسكان بدأت تظهر الحاجة للتوسع العمراني فظهر هذا الحي الجديد، وصارت سدة المكلا الثانية قبالة مسجد السلطان عمر بن عوض القعيطي، ثم تسارعت وتيرة النمو العمراني، وكان لا بد أن تظهر حافة جديدة وهي ما عرفت بحافة برع السدة، وظل الاسم قائمًا رغم أن الحافة أصبحت داخل السدة الثالثة الأخيرة المقابلة للعيقة وحي الشرج الناهض.

نحن الآن ندخل الحارة من أبوابها، صعودًا تجاوزنا محراب مسجد عمر وبعد انحناءة بسيطة صار المسجد على يميننا، وفي طرفه الأخير تقع المكتبة السلطانية، وبهذا نكون في بداية سوق النساء الذي في نهايته تقترب المسافة إلى مطراق صلِّ على النبي، هدفنا.

يكتظ سوق النساء بالنساء العابرات والمشتريات، ووسط محيط النساء، وعبق التاريخ، ورائحة اللبان والطيب والعطور يتردد الشباب والمراهقون منهم كسالف العصور، وتكون شوارع الحارة الضيقة أحيانًا فرصة للقاء وكلمات الهوى.. لا يزال مطراق صلِّ على النبي بعيدًا.

ولكن مثلي في الربع الأخير من الشباب ومعظم شعر الرأس قد شاب فإن وجودي في هذا المكان يثير الاستغراب ويجعل التساؤلات الصامتة تتزاحم تزاحم النساء في سوقهن بين الذهاب والإياب. وعندما لمحني صديق ساكن قرب هذا المضيق كان لا بد من التبرير وتفهيم الصديق، بل واتسع صدره ولم يضق وتطوع وأراني مطبخ سيد الحلوى وحلوة السيد المكلاوية الشهيرة، ولكن في

المكان عيون كثيرة ليست كلها بريئة وقد عهدتها في أماكن عديدة ترفع تقاريرها إلى الوزارات العنيدة وحتى حينه تحفظ الملفات لعدم كفاية لائحة الاتهامات.

تركت النساء وشأنهن الذي لا ينتهي، ومضيت في الخُطى، كان لزامًا أن أشق طريقي عبر أزقة ضيقة ملتوية لتختفي شيئًا فشيئًا المساحة السوداء التي تشكلها عبايات النساء.

نحن تجاوزنا منتصف الطريق تقريبًا، على يميني مسجد باحليوة لا يزال محتفظًا بالنمط المعماري المكلاوي التقليدي شاهدًا على ذلك مئذنته المخروطية الشكل ذات الطراز الحضرمي الجميل وكذا البروز الخارجي لمحرابه وزركشته التي صاغتها أيدٍ ذات ذائقة معمارية أصيلة. ويقع المسجد وسط محيط من المنازل حتى يظن أنها جزءٌ منه أو هو جزءٌ منها، وهو غير بعيد من بيوت أعيان الحارة وأغنيائها والمنظر يوحي ببقايا روائح عز قديم.

سارعت الخطى ولاختفاء النساء اختفت الحوانيت أو لعله العكس!! لم يعد أمامنا إلا القليل من هدفنا (مطراق صلِّ على النبي). رائحة التراث تتكثف في المكان والبناء الحديث الغريب يأخذ مكانًا باستحياء ولكنه مضغوط بجغرافية المكان الصارمة....

ها نحن الآن وجها لوجه أمام (مطراقنا).. لا يتجاوز طول المطراق ستين مترا وعرضه يقارب المتر يزيد تارة ويقل تارة أخرى، وتضغط أركان البيوت المجاورة المطراق ليصل في أدناه إلى ٦٠سم، ولأن حدة انحناء المطراق في هذا

الممر لا توفر فرصة كافية لمشاهدة الأجسام القادمة المتوقعة، عُدّت هذه النقطة مركز المطراق ومحور التسمية.

يتشكل (المطراق) من تجاور بيوت مكلاوية لا تزال تحتفظ بهويتها المعمارية الأصيلة، فعلى اليمين يقع بيت آل سويد ومعصوب به بيت آل عصب، وبالمقابل يختال بيت آل بازرعة الذي يبدو من بعيد كأنه حارس للمطراق وآخره، وتلتصق به خرابة آل مطران مع صمود مخزن صغير ببابه الحديدي هو النكرة الوحيدة في المكان.

لا يعرف متى سمي هذا الزقاق بهذا الاسم، ويغلب على الظن أنها تسمية شعبية بأبعاد دينية، وأخلاق حضرمية، فقد استلزم ضيق المطراق تنبيه العابرين بصوت معين حتى لا تحدث الاحتكاكات لاسيما بين النساء والرجال، ويدل هذا على حشمة أهل الحارة وأصالتهم، واستحسنت الذاكرة الشعبية الجمعية ذكر الرسول والصلاة عليه بدلًا من الأصوات النشاز.. فيفسح حياء الكريم ويتململ خسة اللئيم.

إن مطراق صلِّ على النبي كان شاهدًا على صولات أهل الحارة واستعداداتهم المتنوعة بأفراحها وأتراحها، ومن خلاله مرت قوافلهم الشعبية في طريقها إلى ساحة الهاشمية مرورًا بالزقاق الذي يوصل صعودًا إلى مسجد النور.

مدينة المكلا القديمة أسرارها كثيرة ومطراق صلِّ على النبي سر يسير من أسرارها التي إن بدأت بالأزقة فلن تنتهي بالمآذن العاليات، والمحاريب

الصامدات والمنازل الثابتات، والآبار الغائرات، والأكلات الشهيات، والمدارس والمكتبات، والمعلمين والمعلمات، وأهل الثقافة والسياسات، والصيادين والمغامرات.. والقائمة تطول، (بس) قولوا: ما شاء الله، وصلوا على النبي.



ثانيًا:

خواطر وتأملات

عندما سيطر الحضارم على البترول

(صلاح الدين)، (الجلاء)، (سبأ) معسكرات يعرفها جيدًا الكثير من المجندين الإجباريين في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، ومن عثر حظه وقع فيها، وهي تعني على التوالي سلاح الدروع والصواريخ والمدفعية. فبعد ترانزيت العند العنيد في كل شيء، قدر الله أن نكون في معسكر سبأ. وبعد ستة أشهر من دورة مدفعية مضنية على مدفع الهاون ١٦٠ كان علينا أن نستعد للتوزيع في المعسكرات النائية. وخلال هذه الدورة ترددت على مدينة عدن وتوابعها فشغفت بهما حبًا وتمنيت أن أكون من جلاسها. وعندما علم صديق وجار مكلاوي بهذه المحبة أبى إلا أن يبادر إلى المساعدة ووعد وانتظرت. ولكن نحن نقول ما نشاء والله يفعل ما يريد. وفي أيام الانتظار وفي لحظة من لحظات الاستراحة دخل قائد كتيبتنا المجند إلى مكان إقامتنا (البراق) يبحث مع ضابط صف (مساعد أول) عن حضرمي.. لم يكن في المكان غيري. بعد التحية والسلام سأل عن مدى رغبتي في البقاء في المعسكر مسؤولًا تحت إمرته على الوقود والبترول.. بدون تردد وافقت. "فقرب المحبين جنة والجفاء نار". عندما علم الزميل المكلاوي بالقصة الصدفة علّق بسرعة: "رب صدفة خير من ألف ميعاد".

بضعة أيام وجاءت فترة الرحيل المحتومة وترقب القوم.. ثم عرف كل أناس مشربهم وتشتتوا أشتاتًا وبقيت في المعسكر مسؤولا على محطة توزيع البترول (البنزين) ومشتقاته.

تشاءم البعض من سيطرة الحضرمي على مقاليد البترول في المعسكر بل أعلن ذلك صراحة أمامه. فقد أدركوا أن مساحة التلاعب الماضية المحدودة أصلًا لا بد أن تغيب وعلى المتلاعبين إعادة حساباتهم.

لم يمضِ وقت طويل حتى عرف الحضرمي أصول لعبة البترول. وقد حُذِّر من ثلاث قضايا أساسية:

١) عدم الصرف إلا بأوامر مكتوبة من جهات محددة، ورفض الأوامر بعد انتهاء المخصص الشهري لكل جهة.

٢) يمنع منعًا باتًا صرف البترول على جوالين إلا من جهة واحدة، وهي العمليات بعد أن تحدد في أمر الصرف ذلك بوضوح.

٣) يمنع صرف البترول في غير سيارات الجيش.

كانت سيارة قائد سلاح المدفعية والصواريخ الرائد علي سعيد عبيد الحيقي الخاصة (تكسي) تجوب أرجاء المعسكر إلا منطقة واحدة محرمة عليها وهي عداد الوقود.

تأتي إلينا أوامر الصرف اليومية محددة حسب وجهة السيارة، فالسيارة المتوجهة، على سبيل المثال، إلى التواهي يصرف لها خمسة جوالين، ولا مجال أمام السيارة في الروغان خارج المهمة المناطة بها، كما أنه لا يجرؤ أحد على التزود بالوقود من خارج المعسكر وإن كان على حسابه الخاص. قبل السيطرة الحضرمية كان أمام البعض فرصة للتزود من المعسكر بزيادة جالونين أو أكثر من

الفائض (للتمشور) خارج المشوار، ولكن دوام الحال من المحال.

تشدد الحضرمي والتزامه الدائم بالحضور أعطاه مكانة خاصة (فيها وما فيها) وتحول من مجند مغمور إلى رجل مشهور يحرص الناس على وده وإرسال التحايا له، وجرب البعض حظه في الاسترضاء بوسائل غير مشروعة، وعندما يأتيهم الرد السلبي يعلقون: **"كَنُّه! وا بغى؟"**.

كانت المشاريع العسكرية فرصة أمامنا لزيادة رصيدنا الاحتياطي، وعندما أخبرت المساعد الأول العم (محمد علي الأعور) مدير دائرة الوقود بارتفاع نسبة الاحتياط، استبقى رقمًا من الاحتياط احتياطًا لنا في حالة حدوث العجز. ورفع برسالة رسمية لأركان السلاح نسبة الاحتياط من البنزين خارج الميزانية. وهذا الرقم يعمم ويتم صرفه بأوامر خاصة في أمور معينة بالمعسكر لا تتحمل أحيانًا بنود الميزانيات المنظمة الصارمة استيعابها.

عرف قلة من الضباط سر حذر الحضرمي وخوفه، فهو لا يمكن أن يصرف خارج الأوامر المحددة بأي مقابل، وإن صرف تقديرًا لظرف ما فيفضل أن يؤخذ ذلك بالكتمان، وبتقدير خاص منه وبدون طمع، لذلك كانت هناك مرونة محدودة من الحضرمي واستجابة ذكية من المستفيدين. وفي هذا الجو كان العم محمد يحصد أحيانًا الصداقات والمجاملات من خلال تدخله الشخصي في زيادة المصروف لمن شاء بعيدًا عن الأوامر، ولكنه مجبر باتفاق داخلي على كتابة ذلك في أوامر خاصة.

أجبرت هذه المهمة الحضرمي على البقاء داخل المعسكر لتلبية أوامر الصرف المختلفة على مدار الساعة، فكم انتشل من أحلام جميلة، وانتزع من نوم عميق. ويقدر أصدقاؤه أحيانًا انغماسه في لعب كرة القدم، ويقومون بتلبية الأوامر نيابة عنه أو عندما يضطر لمغادرة المعسكر.

بعد أن مرض الحضرمي استجيب لطلبه في إيجاد مساعد له، وكانت مفاجأة أن طلب منه اختيار حضرمي من الدفعة الجديدة القادمة لتوها. وهكذا تعزز الوضع الحضرمي في إدارة دفة البترول في المعسكر ،وزادت حريته في التحرك هنا وهناك.

وسارت الأيام على هذا المنوال سراعًا، ولاحت في الأفق القريب أيام الرحيل والحرية وتنبه القوم واستعدوا. وفي الشهر الأخير (قبل تخرج الحضرمي الأول) كان الحضرمي الثالث يأخذ موقعه ويتلقى من زملائه ما سبقوه إليه من معرفة.

اتفقت واختلفت مع العم محمد في العمل ولكن لم يفقد هذا أبدًا احترامنا بعضنا لبعض.. ثم جاءت لحظة الوداع الأخيرة، وضمني العم محمد بأكثر مما كنت أظن، وانهمرت الدموع وقالت كل شيء.. غادرت المعسكر وهو بقيادة حضرمية مقتدرة وواعية، والبترول بإدارة حضرمية أمينة وواعدة.

الشحر في بغداد.. المريض والمداوي

في تسعينيات القرن الماضي وبداية الألفية الثالثة قدر لبغداد أن تكون المريض والمداويا!! أما مرضها فلم تشف منه بل زادتها الأيام مرضًا على مرض، ولم يأتها بعد الطبيب المداوي. أما أنها كانت المداويا فلأنها فتحت ذراعيها للباحثين عن العلاج والشفاء من أهل اليمن وخاصة قبيل (الفوضى الخلاقة).

وقصة العلاج في العراق ترتبط ارتباطًا عضويًا بمدى شجاعة الريال اليمني أمام زملائه من العملات الأخرى، وليس للاعتبارات القومية العربية التي احتضنتها بغداد بصدق وقتذاك. فالروبية الهندية معشوقة الريال اليمني السابقة اشتد عضدها (وعزّوها) أهلها وصار سحرها بعيد المنال على مدعي البطولة وحُطاب الليل، ثم ملأ عين الهندية فرسان آخرون. ولأن ريالنا لا يقوى إلا على من هو أضعف منه، شد الرحال إلى بغداد، وفيها تبختر وفرش ريشه حينًا من الزمن استرجع خلاله ظاهر شجاعته غير مصدق، قبل غيره، أن دينار بغداد الأبي يتودد إليه ويطلب رضاه، إنه غدر الزمان!. بعد الفوضى الخلاقة توالت هزائم ريالنا أمام الدينار الأردني، وكان يشهد المعركةَ غير المتكافئة الجنيه المصري الذي استهواه ريال اليمن لغاية في نفس يعقوب، ثم تصادق الصريعان.

نأسف عزيزي القارئ لهذه المقدمة التي لا مناص من ذكرها، ونعود إلى قصة المرض والعلاج، وكما يقال مصائب قوم عند قوم فوائد، فقد أصبحت بغداد مكانًا مناسبًا لطالبي الشفاء من الأمراض التي "حار فيها الطبيب المول والمتعلم

العارف" في الوطن. وتكاد أن تكون الرحلات إلى بغداد أسبوعية، كنا نتردد على الإخوان القادمين من حضرموت فهم من بقية الأهل ونسمة الوطن، وغالبًا ما يكون اللقاء في أول أيام الوصول حميميًا، ويتبادل القادمون الجدد والسابقون المعلومات عن المستشفيات وأفضل الأطباء... إلخ، ونتدخل نحن الفضوليين عندما نرى ضرورة للتدخل. ولكن لحظات اللقاء القصيرة السعيدة ما هي إلا مشهد في رواية إنسانية سرعان ما تتكشف فصولها، تدمي في مجملها القلب وتكدر الحال وتسهد العين، ويزداد الألم عندما يصل إلى علمنا من الحالات ما هو ميئوس من شفائها، أو أن من القادمين من باع كل ما يملك، وينتظر بعد رحلة العلاج الغامضة أغلال الديون، ودائمًا أسائل نفسي: لماذا؟ وإلى متى؟

كنت أمام معادلة صعبة لم أوفق فيها: بين رغبتي في عيادة المرضى خاصة المعارف والشد من أزرهم وبين محاولة ترويض الألم النفسي الذي تحدثه قصصهم الحزينة والحد من تأثيرها على دراستي العليا. ثم حدثت حكاية لها دلالتها أعادت نوعًا من التوازن لهذه المعادلة، وكانت لي دواء وعزاء.

ذات يوم طلب مني أحد الزملاء، وكان يدرس في البصرة، مرافقته لزيارة مريض شحري من مدينته في مستشفى بعيدة عن مركز المدينة، وعندما أخبرني بالمرض ترددت في البداية فكان يعاني من الشلل النصفي (قدم به من الشحر) وسرطان المستقيم (نسأل الله العفو والعافية)، وأُجريت له عملية استئصال المستقيم. فقلت لزميلي الشحري: "سنذهب إلى المستشفى على أن يعفيني من

زيارة المريض بحجة أنني لا أستطيع مشاهدة هذا المنظر المؤثر"، واتفقنا.. بعد أن سألنا عن المريض في الاستقبال وصّلت زميلي إلى الغرفة ثم توجهت إلى مدخل المستشفى حسب الاتفاق، ولكن هذا الاتفاق فشل عندما خرج أحد المرافقين صدفة وعلم أنني مرافق لضيفهم، وأمام إصراره على زيارتي للمريض لم أستطع الرفض ولكنني قلت في حال نفسي سأسلم على الحاضرين وسأغادر على الفور بأي حجة. ما إن فرغت من مصافحة المرافقين حتى بادرني المريض نفسه ببعض الأسئلة التعارفية عن بعض الشخصيات المكلاوية التي يتشابه لقب عائلتي مع عائلاتهم، وكنت أعرف البعض منهم. كان صوت المريض متقطعًا ولكن كان واضحًا، ولأنني الخامس بين أربعة شحريين كان نسيم شحرهم هو السائد وحضرت سعاد بطرائفها وحكاياتها ونسيت المؤامرة. ثم إن المريض يشارك بالنكتة والتعليق فترتسم الابتسامات وتلعلع الضحكات وتأبى سعاد إلا أن تكون داخل بغداد وتزيح عنها كل شيء حتى المكلا. كانت الصورة المسبقة في مخيلتي أنني سأجد مرتعًا كثيفًا من الكآبة والحزن والصمت والجمود، ولكن.. لأول مرة في حياتي أشعر أنني صغير بل وأتصاغر بينما الشحر تكبر وتتكابر ومن حقها. وطوال رحلة العودة لم يكن شرودي كالعادة مع المريض وأهله بل تقاذفتني الخواطر، ثم سألت نفسي من كان المريض؟ فجاءت الإجابة من أعماقي: (.....)!! فقلت: لقد صدقتني نفسي القول.



من قتل جارنا؟

كانت سعادتنا غامرة عند زيارتنا لجارنا فقد خرج لتوه من أزمة قلبية حادة، وكعادته تكلف في إظهار سروره وفرحته بالحاضرين فردًا فردًا. كان المسكوت عنه، في ذلك المشهد، الخبر المشؤوم، وهو أن النوبة القادمة ربما تكون القاتلة. الأدوية المقررة ذات الكلفة العالية كتبت لتريح القلب لا لتعالجه، والنصيحة الطبية العاجلة إجراء عملية القلب المفتوح لمعالجة القلب المريض.

شهور قليلة ويأتي المولود الجديد السادس لجارنا، والمخطط له زواج الابنة البكر بعد تشريف هذا المولود بشهور قليلة. إذن في الأفق القريب أفراح وأتراح، إنها لعبة الحياة، وبالنسبة لجارنا كانت كفة اللعبة الأخيرة هي المهيمنة. يملك جارنا بيتًا صغيرًا يستر عائلته الصغيرة، وبعض أهله، ولكنه يسير فوق خط الفقر. بعد أن عاود جارنا سير حياته بمساندة الدواء، كان يتعمد أحيانًا الضغط على يدي عند المصافحة!! كانت رسالة، وكانت وصية، وكنت أفهمها. وفي هذه الأثناء كان يتردد إلى مسامعنا أن بيت جارنا عرض للبيع وأن هناك من جاء يتفقده قبل إتمام الصفقة الحزينة، ثم يموت الخبر برهة ويعود.

كنا ندرك أن جارنا يعيش صراعًا مريرًا بين انتظار الموت المحتوم القريب ورجاء الحياة بعد العلاج بثمن يقارب ثمن هذا البيت. ولكن ماذا لو فشلت العملية؟ وأين يذهب الأطفال والعائلة؟ إن مصيبتين في الرأس توجع!! هل يدخل المقامرة لعله يكسب ويعوض ما فات؟ ولكن شبح خروج أبنائه من البيت

والسقوط في بيوت الآخرين قبل كل شيء وبعده يطارده. إذن ماذا يفعل؟؟

كنا ننتظر ونتألم ولكننا لم نفعل شيئًا .. لا نريد (.....) أن يموت، ولا نريد البيت أن يضيع.. لكننا لم نفعل شيئا، كنا ساكتين.

تأبى نفس هذا اليافعي العشيرة الحضرمي الأصل أن تقرع أبواب الناس أو تظهر الشكوى. وكنا صامتين.. إنه مشهد الحياة والموت، البيت والموت، الأمل والرجاء، كنا نسمع ونرى وأحيانًا نفهم.. لم نفعل شيئًا، كنا متفرجين.

هلت الزغاريد في بيت جارنا فقد قدم المولود الجديد وفرح قلب (.....) وأشفق!! بيت جارنا في موعد جديد مع الفرح.. ترتيبات الزواج تجري على قدم وساق. في المساء عاد (.....) بقلبه الجريح الموجوع، لعله لم يقو على الفرحة. أصر أن يجلس أطفاله أمامه لساعات.. وبعد دقائق توقف القلب واستراح....

كنت أسمع عن من يقتل الميت ويسير في جنازته، ولا أدري لماذا تملكني ذلك الشعور! لهذا لم تقو يدي الآثمة أن تلمس النعش الحزين إلا قليلًا، ثم فشلت الأقدام أن تكون في الصفوف الأمامية.. وفي الصلاة استغفرت.. واستغفرت لنفسي أكثر، ورجوت من جاري السماح. وظللت أستغفر.. وأستغفر.. والتساؤل الذي يضع نفسه: من قتل (الشهيد)؟، وكم عددهم؟ أظن أن قائمة المتهمين والمذنبين - عند الله- طويلة جدًا تبدأ بكاتب هذا المقال، وقد لا تنتهي عند رئيس الوزراء المُقال. رحم الله جارنا الشهيد. لقد عاش معنا ميتًا، ومتنا بعده عائشين. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الديك أولًا

في أسفل الوادي وعلى مقربة من منعطف الجبل الموصل إلى الصحراء الشاسعة تقع بلدة صغيرة، أرزاقها وفيرة، ودورها بيضاء نظيفة. ينعش سكونها المفيد أصوات مآذنها العديدة التي تدعوا الناس للصلاة فيلبي أهل البلدة النداء في رضا وخشوع.

وفي يوم لم تعهده البلدة، ولحظة لم تحسم الشمس فيها أمرها للمغيب، هاجم اللصوص أطراف البلدة وتمكنوا من سرقة ديك أسرة العم كرامة الذي كان يرتع غير بعيد في البرية.. ارتفعت الأصوات ولاحظ أبناء العم كرامة وأحفاد اللصوص الفارين بالغنيمة، وفي سرعة لا تتناسب وسرعة اللصوص تداولت أسرة العم كرامة الخطب بعيدًا عن كرامة. قال (العقلاء والمعتدلون): إن الأمر لا يتعدى ضياع ديك ويجب عدم تحميل الأمر أكثر مما يحتمل. وهناك أصوات نادت باللحاق باللصوص والإمساك بهم. وثالثة نادت بمجرد إيهام اللصوص بالمحاولة.. سخر العقلاء من هذه الآراء غير العملية. وفي زحمة الجدل اختفى اللصوص، واكتفى الأطفال بنظرة الألم والحسرة.

عندما سمع العم كرامة القصة نهض من فراشه مناديا: الديك.. الديك، وحاول الجري ولكن صحته خانته إذ بلغ من العمر عتيا.. لقد نام الجميع ، ولكن العم كرامة (بيّت بينه وبين النوم بادي). وفي الصباح الباكر ظل يحملق في البرية.

وفي يوم آخر وبينما كانت الشمس في كامل حضورها وقوتها صرخ الأطفال:

الغنمة.. الغنمة.. وفي اللحظة نفسها كان العم كرامة يصرخ: الديك.. الديك.

اجتمع المجتمعون وقرروا ضرورة الحيطة والاستعداد للاحتمالات كافة، وهناك من سوّغ (الفضيحة): "بأنهم أخذوا على حين غرة أو لعل الغرباء بحاجة إلى الطعام فليحتسب الجميع أجر الديك والغنمة عند الله الذي لا يضيع عنده شيء"

لم ينبس العم كرامة بكلمة أمام صرامة العقلاء ولكنه قبل أن يغادر باب الغرفة رفع سبابته قائلًا بهدوء: الديك...

ولأيام لاحقة لم يترك العم كرامة مناسبة إلا وذكر بألم (الديك)، حتى تجرأ بعضهم عليه ورماه بالضلال القديم. وتناسى الجميع ما حصل وتجنبوا الجدل مع العم كرامة حتى لا يكرر كلامه السقيم.

في صباح يوم جديد تفقد كبيرهم الجمال فإذا أحدها من الغائبين، وعلى الفور فطن ونادى: يا أيها القوم إنكم مسروقون وأنتم في غفلتكم نائمون. فنهضوا وتجادلوا وكثيرًا ما كانوا يتجادلون، فصاح فيهم كرامة بمرارة: الديك.. الديك يا جاهلون، فسكت المجتمعون.. وعندما ردد الأطفال: الديك.. الديك.. تبسم العم كرامة لأول مرة وجلس في البرية غير بعيد ينتظر...



بغداد.. الليل والعم قيس والكلاب

كانت بغداد، وربما ما تزال، تحمل في وجهها عذرية الزمن وعطره، ورائحة القباب والمآذن الشاخصة القديمة. بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على شكل دائري وكان ذلك اتجاهاً جديدًا في فن العمارة الإسلامية. وفي بداية ستينيات القرن الماضي تغزل فيها نزار قباني بقصيدة ومما قاله فيها:

عيناك يا بغداد منذ طفولتي شمسان نائمتان في أهدابي
لا تنكري وجهي فأنت حبيبتي وورود مائدتي وكأس شرابي
بغداد جئتك كالسفينة متعبا أخفي جراحاتي وراء ثيابي
بغداد طرت على حرير عباءة وعلى ضفائر زينب ورباب
بغداد يا هزج الأساور والحُلَى يا مخزن الأضواء والأطياب

بغداد هي.. الخلفاء، الدخلاء، السلاطين، الملوك، الجمهورية، وبغداد الآن.. جرح في الزمان؟!

بغداد ٢٠٠٢م، شارع فلسطين، حي المهندسين، تم التوقيع على عقد الإيجار في منزل العم قيس، وهي شقة في الدور الثاني من الفيلا. الشقة تتكون من غرفتين على السطوح، البغداديون يفضلون الدور الأول لأسباب تتعلق بالمناخ. العم قيس مهندس معماري عراقي متقاعد (شاب) في أواخر الستينيات من عمره، قسمات وجهه المرسومة والمنتظمة تنم عن وسامة صارخة. ذات ليلة أخبرني أنه منذ وقت قريب فارق ليالي الأنس مع الأصدقاء وال... بعد أن أدّى فريضة الحج.. روحه

الشبابية وغمزاته ولمزاته تجعلني أشك في رواية الاعتزال عن تلك الحياة.

طورت الأيام علاقتي مع العم قيس، وبعد أن وثق العم قيس في شخصي (ووثقت فيه) كان كثيرًا ما يدعوني للجلوس بجانبه في حديقة منزله. وكنا نستمع بصوت معقول لإذاعة لندن وخاصة أخبار العراق الساخنة، وتدور بيننا حوارات تحليلية تبدأ ولا تنتهي حول العراق ومستقبله والحرية الأمريكية المزعومة والمنتظرة، في أحد الحوارات قال لي العم قيس: "اسمع (يا دكتور) نحن صحيح نتمنى أن يزول نظام البعث في العراق وخاصة الشيخ الكبير وأسرته، لكننا شعب سريع الغضب عندما يرى الجنود الأمريكان يدنسون شوارع بغداد" فقلت له: "يا عم قيس إنني أتفهم مشاعرك وربما لو كنت مكانك لقلت ما قلت، ولكن الجنة الأمريكية محفوفة بالمخاطر". واستطردت: "إن العراق والعراقيين غير مستعدين لقبول حرب جديدة فيكفيهم حربان غبيتان فاشلتان ما تزال تبعاتهما ثقيلة على كاهل الناس، وهما وإن سكتت مدافعهما فقد أسكتت في الوقت نفسه روح العراقي الأبية وجعلته محاصرًا في وطنه وفي نفسه.. إن الحل ليس عند الأمريكان وليس في حكم البعث، الحل عند الله.." لم تتأخر ابتسامة العم قيس عن ابتسامتي، وسكتنا برهة.. إن ثقافة الخوف في مجتمعات الاستبداد تجعل الناس البعيدين عن السلطة (بسيطهم وكبيرهم) أكثر قدرة على قول ضمنية الكلام وتجنب ظاهرة.

عندما أفرغ من العم قيس يتوجب الأمر الاستعداد لمواجهة أصدقاء مجاورين، إنهم كلاب الجيران وعددهم خمسة (أم وأطفالها).

داخل سور الفيلا وخارج مبنى البيت، يوجد السلم الحديدي الموصل إلى سطح البيت ومنه إلى شقتي، ولأن السلم يقع بالقرب من فيلا الجيران لتلاصق حوشيهما من هذه الناحية فإن المسافة بيني وبين الأصدقاء لا تتعدى المترين، وهذا التقارب الجغرافي خلق علاقة خاصة بيننا، فالأصدقاء لم يبخلوا منذ اليوم الأول في أداء واجب الترحيب والتوديع عند صعودي أو نزولي من السلم بوساطة النباح المزعج، ولأن المسافة قريبة فكان صوتهم يخترق أذني بشدة، وأحيانًا يحدث عندي نوع من الاهتزاز الداخلي عندما أنسى هذا الاستقبال.

في البداية كنت أصبر نفسي بالقول: إنني حديث العهد وإن الأمر يحتاج بعض الوقت حتى يفهم الأصدقاء أن الغريب أصبح مقيمًا، ولا داعي (لحفاوة الاستقبال)، وعندما أصروا على ما هم عليه بدأت في التفكير في المواجهة والبحث عن الحلول. وقد مرت العلاقة بيني وبين هؤلاء الأصدقاء بثلاث مراحل:

- **مرحلة الشكوى**
- **مرحلة الصداقة**
- **مرحلة العداوة والخداع**

في المرحلة الأولى شكوت عند العم قيس وأخبرته أن يشكر بالنيابة عني الجيران على حسن الاستقبال والتوديع الرسمي والمنتظم.. ضحك العم قيس وقال: إن جيرانه من مسيحيي العراق قد تعرضوا لحادثة سرقة في بيتهم وإن بقاء الكلاب شكل من أشكال التنبيه والحماية لهم، ثم نصحني بعرض المشكلة على الجيران والتفاهم مباشرة معهم.

عصر يوم جديد وقفت بالقرب من الباب الخارجي لمنزل الجيران عندما لمحت أن أصحابه يستعدون للخروج، وعندما رأتني السيدة أخذت ابنها ودفعت به إلى مكان قريب من زوجها، حينها أدركت مدى الخوف والرعب الذي تعانيه هذه الأسرة الطيبة، والتمست لهم العذر.. بعد نصف دقيقة جاءني صاحب البيت مهرولًا ومبتسمًا وبدا كأنه على دراية بالشاكي والمشتكى منه والشكوى، ومع هذا أخبرته بما عندي وأعربت له عن تفهمي لاحتياطاتهم الأمنية، واقترحت عليه بقاء الكلاب على سطح منزلهم مع ربطها بحيث لا تستطيع أن تكون قريبة من سطح منزلنا وتعجز من أن تدلي برأسها وأيديها بمحاذاة السلم. ولكنه بدبلوماسية وخبث اقترح حلًا آخرَ وهو رمي فضلات ما آكله في سطح منزله قل أو كثر، وأن هذا ربما يفتح مجالًا جديدًا للصداقة، وحقيقة الأمر أعجبني المقترح وعلى العموم نجرب..

مرحلة الصداقة:

تعودت بعد أن أفتح باب شقتي بثوان مشاهدة الأصدقاء على استعداد لأداء معزوفة الوداع، ولكن تغير الوضع بعد أن نفذت مقترح جاري، إذ أسهمت رشوة الصداقة في خلق علاقة مقبولة بيننا، سكتت بموجبها الأبواق المزعجة إلى حين! وحالة السلام الجديدة جعلتني أشاهد أحيانًا تفاعل الأصدقاء مع هذه الرشوة، وما لفت نظري أنانية الأم فلا يجرؤ الصغار على الاقتراب من الطعام حتى تأخذ حاجتها، وأمام هذه الأنانية المفرطة، ولتحقيق مبدأ العدالة بين الأصدقاء تعمدت رمي الرشوة على دفعات وفي أماكن متفرقة. وقد حالف هذا الإجراء نوع محدود

من النجاح، ومع هذا كان الصغار لا يجرؤون على الأكل المرمي إلا بحذر وخلسة. وزيادة مني في توثيق عرى الصداقة تعمدت مداعبة وملاطفة الأصدقاء، وحتى هذه اللحظة كنت أعزو هذا النجاح لجاري الطيب، فقد جعلني أصيب هدفين بسهم واحد: الهدف الأول هو التخلص من الزبالة بأبسط الطرق، والثاني المساهمة في إطعام حيوان وفي ذلك من الفضل والثواب ما فيه، وإلى جانب ذلك انتهت المشكلة!!

وهكذا طعم الجميع حلاوة الصداقة وشهدنا أيام السلام، حتى كنت أظن أنهم يؤدون دور الحراسة لي إلى جانب الجيران. ولكن هذا الاعتقاد الطيب المتفائل تجاه هذه الصداقة (المفروضة) لم يكن راسخًا عند الطرف الآخر.

لأسباب لا أعلمها بدأ يتغير سلوك أصدقائي!!.. لعل الطمع دخلهم، وأرادوا المزيد؟ أو لعلهم شعروا أن اتفاقية الغذاء مقابل السلام لم تعد كافية؟ لعل...؟ المهم بدأ الأصدقاء صراحة يعبرون عن سخطهم بشكل تدريجي مع إحداث أصوات متقطعة ومنخفضة، ولكنها عبارة عن رسائل تحذيرية فهمتها في حينه. لكنني لن أقبل الابتزاز.. وعندما لجأ الأصدقاء إلى التصعيد اضطررت إلى الدخول في المرحلة الثالثة..

مرحلة العداوة والخداع:

كانت العادة في أيام السلام بعد فراغي من تناول الغداء رمي رشوة الصداقة بصورة دائمة، ويسمح لي ذلك التصرف بالخروج بهدوء لأداء صلاة العصر في المسجد مع نظرات خاطفة.

في المرحلة الجديدة تغير الوضع وبدأت تسمع أصوات مزعجة مطالبة بالمزيد، وكما تغيروا، تغيرت! وآثرت تقديم الرشوة عند خروجي لأداء صلاة العصر.....، كنت أتألم عندما أشاهد الأصدقاء في انتظار الوجبة في الوقت المعتاد. وعزائي أن الصداقة التزام، وحقوق وواجبات. أفلح هذا الإجراء مؤقتًا، ثم استأنف الأصدقاء صوت العداوة والسخط دون اعتبار لأي شيء ووصلت الأمور إلى درجة خطيرة من التدهور. إذن أعلنوا الحرب من طرف واحد! فضّلت التروي لعل في الأمر شيئًا ما! دفعت بالتي هي أحسن، دون أن أقدم تنازلات. لقد اعتقد الأصدقاء أن ما يقدم لهم حق وتجرؤوا على طلب ما وراء ذلك. كان لا بد من تدارك الوضع واتخاذ إجراءات مناسبة.

بعد أن فشلت سياسة السلام مقابل الغذاء وتعمد الطرف الآخر التصعيد غير المبرر، بدأت من جانبي في اتخاذ إجراء تأديبي وهو منع الطعام لمدة يوم أو يومين، ولكن رسالتي لم تفهم بل ولم يكترث لها، وخلصت إلى اتخاذ إجراء ثابت وهو الاستمرار في خطب ود الصداقة مهما كان تفسير ذلك عند الطرف المقابل. وحقيقة الأمر كان القرار قاسيًا بالنسبة لي لأن المعادلة تحولت إلى الغذاء مقابل الأذى!!! وتذهب الشطحات بي بعيدًا عندما أبحث في تفسير الأمر وتصل في ذروتها إلى الظن أن هناك مؤامرة، وما أكثرها في تلك الأيام!

رغم قبولي بالهزيمة أو هكذا شعر الأصدقاء فقد حاولت التقليل من مشاعر النصر المطلق بأن لجأت إلى أسلوب الخداع، كنوع من التسلية وتجنب الأذى.

ففي البداية حرصت عند مغادرتي للمنزل أو رجوعي إليه ألَّا أحدث صوتًا ينبه الأصدقاء لقدومي، وعندما يشمون الرائحة الخفية يتقدمون بسرعة فائقة، ولكن يفشلون في تلبية رغباتهم الكلاسيكية في الاستقبال والتوديع، لقد نجحت الخطة لأيام.. يبدو أن مجلس حرب الأصدقاء رفض الهزيمة وقرر اتخاذ أساليب جديدة تحقق النصر، ولاحظت ذلك من خلال تردد أصدقائي على الجانب القريب من السلم فيما يشبه الدورية، ولأنني منتظم في أوقاتي فقد سهل لهم ذلك فرصة المراقبة والمتابعة، كما سهل مهمتهم -إلى جانب ذلك- استخدامي لنوع معين من العطر، الأمر الذي مكنهم من رصد تحركاتي قبيل الدخول إلى الفيلا، فما إن أدخل من البوابة الرئيسة إلا والرؤوس متدلية في سخرية واضحة، وعندما أغير نوع العطر يفشل الاستقبال من بعيد.. إن أصدقائي مصرون على الانتصار في حرب فرضوها وأعلنوها وكنت مصرًا على بقاء علاقة حسن جوار، لهذا استمررت في رمي رشوة الصداقة والتحرك بشكل عادي دون اكتراث لمسرحية اللقاء والوداع. لكن لا بأس في مزاح لغرض التسلية وأثبت من خلاله أن استطلاعاتهم ورادارتهم يمكن اختراقها أو تعطيلها ولو مؤقتًا، وأن نصرهم المزعوم في حقيقته منقوص وأنه نابع من استسلام اختياري. المهم كان ليل بغداد الطويل وقتًا مناسبًا للتورية والمزاح. عندما أعود إلى البيت في المساء أستفيد من دعوات العم قيس لي بالجلوس بجانبه في حديقة المنزل، وأتعمد فتح مواضيع متعددة، ليطول انتظار الأصدقاء ويعتريهم الملل والتعب. وفي وقت مناسب أصعد بهدوء وخفة إلى السلم وعندما أكون وليتهم ظهري يتنبه الجميع ثم أسمع

أصواتًا غريبة لعلها نبرات التشاجر والعتاب فيما بينهم.. أو لعلها نبرات اعتراف بهزيمة جولة وتوعد بجولة جديدة، الله أعلم.

ولأننا في سنوات الحصار على بغداد، فإن هناك فواتير كثيرة لا بد أن يدفعها أهلها والساكنون فيها، من ذلك الانقطاع المتكرر للكهرباء، ويأخذ كل حي سكني نصيبه من الظلام وفق نظام حصص منتظم، وعند ما تأتي حصتنا من الظلام اعتدت السير والجلوس على سطح المنزل أستمع للراديو. ويشاركني بل يؤنس وحدتي الأصدقاء (الأوفياء)، الذين يساورهم الشك بأنني ربما أغادر المنزل، لهذا تظهر الرؤوس بصمت وتختفي وعندما تقترب خطاي باتجاه السلم يشعر المكلف بالمراقبة بالخطر ويستعد، وفي حقيقة الأمر تعلم الأصدقاء من تكرار تلك الخطوات التروي وعدم إعلان حالة الاستنفار إلا للضرورة القصوى. ومن جانبي التزمت بقواعد اللعبة ولم أقترب من خط يمكن أن يستفز المراقبين وذلك حرصًا مني على استتباب الهدوء في ليل بغداد الحالك والطويل.

وأحيانا أستفيد من سواد الليل بالجلوس على كرسي في سطح المنزل دون حراك لفترة من الزمن حتى أرصد مدى قدرة الأصدقاء على اكتشاف أمري، وبالطبع يحدث استنفار لرصد مكان الهدف وتيقن الكلاب أن في المكان القريب غريبًا وإن فشلت عيونها في تحديد مكانه تستمر في حركة دؤوبة، وعندما أشعر بالنجاح أتعمد الظهور حتى لا أفقد أصدقائي الثقة بأهم حواسهم ثم يعودون لشأنهم.. بينما أستمر في التأمل والدعاء إلى الله أن يأتي النهار ويزول ليل بغداد الطويل!

المرتقالة.. والبرتقالة

دمرت الجرافات سفح الجبل، بعد أن كان (سومًا) ما له مثل، وصاحب الحظوة ما شبع بعدما أكل. اللهم غبطة لا حسد ولا زعل.. ولكن رب ضارة نافعة. فهذا العمل ساعد على أن تتراءى صديقتان قريبتان فرقتهما السنون والشعاب والجبال، وتجمعني بهما أيضًا قرابة مشتركة. وقد دار حوار بين الصديقتين كنت حاضرًا فيه بالصدفة تخلله الكثير من العتاب والمرارة والسخرية، وللأمانة سأذكر فقط ما أتذكره.

بداية لا توجد ندية في الجمال والحسن بين المتحاورتين، **فالمرتقالة** قطعة أرض صغيرة متلاصقة من ثلاث جهات تقع خلف سفح الجبل، لا يمكن الوصول إليها إلا سيرًا على الأقدام وبمهارة عالية وحذاء بدوي حضرمي قديم. أما **البرتقالة** فهي أكثر حظًا وجمالًا، مساحتها يجري فيها الحصان ويترنح عليها الضان، وهواها لها الموج يلف ويغازلها البحر بالمرجان والصدف، لهذا فخطابها كثيرون وعشاقها مهيمون من إنس ومن جان فكانت ولا تزال لها شان وشان.

بدأت البرتقالة الحديث بثقة محلاة بالحياء والشفقة وقالت:

- وصلتني الأخبار أنه أخذك رجل قريب ولكنه فقير.. لعله يحبك فمن أجلك كما سمعت تمزقت حذاه، وفي البحث عنك كثيرًا ما تاه.

كان ظني حسنًا في ما قالته البرتقالة ولم أحمله تهمة الغمز واللمز، ولكن المرتقالة بحساسيتها المفرطة كان لها فهم خاص وعلى الفور ردت:

- نعم هو فقير.. ونعم هو..... ولكنه مني وأنا منه، ولن يتخلى عني ولن يبيعني بالغالي ولا بالرخيص.

البرتقالة مقاطعة:

- لم أقصد التقليل من قريبك فهو قريبي ولكنني في غاية الشوق أن يلم الله شملكما ونشهد في شعبكم الأنوار والليالي الملاح والزوار.

لم تجدِ هذه اللغة المهادنة واستأنفت المرتقالة هجومها:

- لكنني سمعت أنك بعت نفسك للأغراب وما تزالين معروضة في سوق النخاسة كالعبيد.

لم تستطع البرتقالة السكوت وقالت بغضب:

- لا فائدة، تلفظي بحقدك الدفين وغيك العظيم الذي لم تغيره السنين. نعم أخذني الغريب ولكن بعد أن جحدني ابن العم والقريب. وحتى هذا السامع كم مشى في ساحتي ولعب واستحم بجواري ولم يعرني أي اهتمام.

ولأن الكلام وُجِّه إليَّ تنبهت وقلت:

- عفوا أخت برتقالة لا تدحرجيني لعراككما اللئيم..

ثم استدركت للغزل الدفين الذي خيل لي أنه يتوارى بين أنفاسها كي لا أستبينه، ولهذا دون شعور دافعت عن نفسي:

- ما منعني من قوامك الفارع ولحمك السمين هو إخواننا الكاذبون الذين قالوا

إنك محجوزة لواحد من المهمِّين.

فطنت المرتقالة لتغير مجرى الحوار وما انكشف من ضعفي أمام الحسان. ولعلها أخذتها الغيرة، ولكنها قالت بشفقة وصدق:

- يا سامع.. ولا يهمك، الشعاب والجبال هي عزك ومأوى لك ولأمثالك من المحرومين المظلومين. فلا تكن بجمالها من المفتونين، وبلسانها من المخدوعين...

لقد أفقدني الحوار توازني، ولم أتمكن من متابعته وانشغلت بنفسي ولنفسي. لقد صرت طرفًا في نزاع من غير أن أدري ولكنه بشكل أو بآخر يعنيني. لقد زادت ضربات قلبي وتحركت كل بطونه، وحضرت أحلام كانت مدفونة. فأنا بين أمرين: جبال شبه مضمونة وأشجار برتقال لغيري مرصونة. إن شعاب وجبال المرتقالة تعني الكفاح والصبر والنار، وأحضان البرتقالة الزهو والدفء والعار.. بقايا شيطان المراهقة يوسوس في صدري (إنها ابنة عمك وواجبك أن تحميها وتسترها ولا تأبَه بالتاريخ وفكر في التباريح). ولكن التاريخ هو التاريخ، فهي من الغواني اللواتي غرهن الثناء، فساعدوني يا إخواني في اتخاذ القرار حتى يرتاح البال. فجسمي وعقلي متجهان نحو الجبال، وقلبي وبصري مع وهم البرتقال.

وللكويت.. كلمات وفاء

لم أزر الكويت حتى حينه، ولم يكن لي قريب مقيم في أرجائها، ولكنني أعرفها كل المعرفة بل ومصر أنني أعرفها!! إنها تسكن دواخلنا فإذا ذكرنا المهجر الدافئ ذكرنا الكويت وإذا ذكرنا الوفاء ذكرنا الكويت، وإذا ذكرنا الكرم ذكرنا الكويت، إنها ليست الكويت العاصمة أو مدينة الجهراء أو السالمية.. إلخ. إنها عنوان مضيء للعروبة والثقافة والحرية واحترام الإنسان.. إنها عاصمة مجلة (العربي) وسلسلة (عالم المعرفة)، والقائمة تطول...

لم تنخدع الكويت بلعبة السياسة وأوراقها المتناقضة ودهاليزها الغامضة. كانت تدرك كل الإدراك أن السياسة شيء والعمل العروبي الأخوي شيء آخر. كانت مع أهلنا في الجنوب ومع أهلنا في الشمال، ومع أهلنا في كل أرجاء العروبة.

لكننا في حضرموت ثم جنوب اليمن لنا في ضميرها مكانة خاصة مشهودة، فعندما تدفق الخير في كويت الخير تدفق أبناء حضرموت إليها وبخاصة أبناء شرقيها، وفتحت الكويت أبوابها بلا تحفظ. وكانت قد فتحت مدارسها الثانوية وجامعتها لطلاب العلم مجانًا بل وتدفع راضية مرضية مؤونة العيش لهؤلاء الشباب، وكان اتحاد الطلاب الحضارم في الكويت الهيئة الاعتبارية لهم.

وفي العهد الجمهوري الجنوبي وفي أيامه العسيرة قدمت الكويت بنفسها تبحث عن أرض تبني عليها مدرسة هنا ومستشفى هناك يعالج الناس ويخفف آلامهم. وصبرت وهي المانحة على شروط إخواننا الرفاق وعلت عليهم عندما

بنت بلا منَّة أو نفاق.

لقد شاهدت بنفسي السيارة المكتوب عليها مكتب دولة الكويت وهي تجوب شوارع المكلا، لا نعرف منصب راكبها، ولكنني شاهدته يتحاور بنفسه مع المقاول المعروف (سعيد بهيان) أكثر من مرة. لعلهم كانوا يتباحثون في تفاصيل المشاريع.. ثم نشاهد ونسمع في القريب أن هناك مشروعًا قد أنجز. والغريب وبينما سيارة العربي الشقيق تجوب شوارع المكلا كانت لوحة في بيت ما يعرف في المكلا ببيت الوزير (أو بيت آل عبد العزيز) مكتوب عليها: الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي، ومع هذا مضى الكويتيون في البناء (لا تعليق)، ثم اختصر الثوار طموحاتهم لتكون اللوحة الجديدة (تحرير عمان)، ثم اختفت اللوحة..

ما يميز عطاء الكويتيين أنه جاء في زمن امتنع الكثيرون القادرون عن العطاء لأسباب تتعلق بمنطق السياسة، وربما كانوا محقين، ولكن الكويت علت على منطق السياسة الآني وهرولت بروح الأخوة العربية وصفاء الرؤية الإنسانية.

ولم تكن الكويت فقط حضنًا لطلاب العلم والراغبين في العمل بل كانت ملجًا لطالبي الشفاء من الأمراض المستعصية... نعم فتحت الكويت مستشفياتها للعلاج المجاني لمواطني جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وصرفت لهم الدواء المجاني (لا تعليق)، وبهذا أدخلت الأمل والسرور في الكثير من البيوت كان بيتنا واحدًا منها، فقد عانى أحد إخوتي لسنين من الألم وتقلصات

الكلى وجرب الأدوية المتاحة دون جدوى، وعندما استعصى الأمر على الأطباء بإمكانياتهم المتواضعة كانت الكويت الحل الوحيد، ومضى أخي في رحلة العلاج يحمل تقريرًا معمدًا من وزارة الصحة، وفي الكويت فتحت له المستشفى، وخرج بفضل الله معافًى سليمًا، وعاد عزيزًا كريمًا.

وبقي أن نقول ما قاله الشاعر الكبير حسين المحضار:

خلوا سبيلي وسيبوني على ما بغيت لا تسألوني لوين أبغى بغيت الكويت

فيها خليلي لي ما تناسى جميلي لا يحسب اني لعهده تناسيت

يا مودي الودائع سلك بالله ودني ع الكويت



المكلا والصيف

دخلت هذه الأيام وبالتحديد اليوم السابع لنجم (الفغر)، وهو ما يعرف في المكلا بالأربعينية، مدشنًا بذلك موجة الحر والرطوبة الشديدتين، التي تنتهي مع اليوم السابع لنجم (القلب). وينشغل معظم سكان المكلا هذه الأيام بتنظيف مكيفاتهم أو إعادة تأهيلها أو شراء الجديد منها، وهو أيضًا موسم للمهندسين والتجار. ومعروف أن المكلا شهدت (عصر الكهرباء) منذ منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، ويقال إنها سبقت مدينة جدة في ذلك. ولا غرابة في ذلك، فسلطان السلطنة القعيطية وقتئذ هو السلطان المثقف صالح بن غالب القعيطي وكان على علم بالهندسة الميكانيكية من ضمن أمور متعددة كان يجيدها ويؤلف فيها. كان موقع المولدات الكهربائية بالقرب من مسجد عمر أو ما يعرف في المكلا الآن بفرن (باسويد). ولم تنتشر المكيفات في المكلا إلا منذ تسعينيات القرن الماضي، وكانت مسألة إدخال المكيف إلى المنزل تحتاج إلى ترخيص مسبق من مؤسسة الكهرباء في الجمهورية اليمنية الجنوبية.

ونعود إلى عهد السلطنة القعيطية حيث التيار الكهربائي لم يكن بهذا الانتشار في بيوت المكلا، ولم تعرف في مجملها المكيفات إلا فيما ندر، لهذا جرت العادة عند قسم كبير من سكان المكلا على الذهاب إلى القرى والغياض القريبة لقضاء أشهر الصيف أو ما يسمى الخريف. ومن أشهر هذه القرى: فوه، لرمي، زمن، خبه، الخربة، الحرشيات، العيص، ثلة وغيرها. وتعد هذه المناطق سلة المكلا الغذائية بخاصة الخضار والفواكه، ويمتلك فيها بعض سكان المكلا

البيوت والمزارع، وأمام هؤلاء تكون فرصة للبقاء في ممتلكاتهم والتمتع مباشرة بها، وقسم كبير من أهالي المكلا يذهب عند أقربائه أو أقرباء جيرانه، وقسم منهم يكوّنون لهم غرفًا مؤقتة من سعف النخيل (القصام)، وهدف الجميع المشترك الهروب من الحرارة والرطوبة الشديدتين وبقصد التغيير والترويح عن النفس وانتظار موسم نضج الرطب و(الأنبة). وتستغل أيام الانتظار لجمع الحطب وتخزينه. وشجع على ذلك الخروج شبه الجماعي بساطة الحياة الاقتصادية في مدينة المكلا في تلك الأيام وعفوية العلاقات الاجتماعية. وهناك يتعزز الترابط وتتوطد الصداقات بين هذه الأسر المكلاوية.

كان المتاع يسيرًا والزاد قليلًا ولكن القلوب عامرة بالمحبة والفرح. وتتوالى الأيام ثم تنطق الأرياف بخيراتها وتنضج بعض الفواكه ويأكل الناس ويشبعون، ثم تصل الخيرات إلى المدن والبلدات القريبة. ولكن يظل الأهم هو غذاء الأرواح والنفوس حيث الصفاء والطبيعة وليالي السمر في البرية وحكايات عنترة وأبي زيد الهلالي.

ومن لم تسعفهم الظروف للذهاب إلى الأرياف القريبة، فإنهم يجدون العزاء والحنان في بحر المكلا الذي يداعبهم ويغازلهم بنسماته الليلية، وتكون أسطح منازل المكلا مكانًا مناسبًا للقاءات والوجدانيات وينام الناس بأمان الله ووفاء البحر ويحلمون.. وتمضي أيام الخريف ويعود الغائبون وتظل المكلا أم الجميع، ويستمر البحر في عزف سيمفونية الحياة والعطاء، ويشمخ جبل القارة في ثباته الأبدي...

ثقافة الصيف ورهافة الشتاء

يردد بعض سكان المكلا القول إن فصول السنة فيها أربعة هي: صيف - صيف حار - صيف هادئ - وصيف محسن. قد يكون هذا التقسيم مبالغًا فيه، ولكن المؤكد أن مدينة المكلا لا تعرف الشتاء، وحتى خلال ما يوصف بالشتاء عند بعضهم، تجد في بيوتهم المراوح الكهربائية (البنكات) مستمرة الحركة ليلًا ونهارًا، والقليل الذي يشعر بالبرد يغلق المراوح، ولكن تظل النوافذ مفتوحة.

خلقت هذه الحقيقة ما يمكن تسميته بثقافة الصيف، ونلحظ هذه الثقافة سائدة في تفاصيل المدينة.. وإذا ابتدأنا بالملابس تجدها في أزياء الرجال الذين تغطي نصفهم السفلي معاوز(صوارين) مفتوحة من أسفل تسمح بدخول الهواء، إلى قمصان قطنية فضفاضة تغطي نصفهم الأعلى. وإذا دخلت بيوت المكلا ستجد الملابس الرهيفة التي تسمى (بالدروع) وهي التي ذكرها الشاعر المكلاوي الرقيق صالح المفلحي (يرحمه الله) بقوله:

بالدروع الهيبة فوق قلبي يسحبين عانك الله يالعاشق على قسوة البين

ولا تظهر ملابس الأطفال أن المكلا صديقة للشتاء. ورؤوس أكثر الرجال عارية طليقة حرة، ومن تعمم يضع العمامة على الأكتاف، وقلة تلفها حول رأسها، والناس مذاهب وأصناف. أما الكوفية فقد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بكبار السن.

وتدخل ثقافة الصيف في المأكولات والمشروبات فنحن - المكلاويين- نشرب العصائر لبرودتها وليس لمذاقها أو أن المذاق يأتي في المرتبة الثانية، صحيح

يقل الإقبال على المبردات في فترة (الصيف المحسن) ولكنها تظل معروضة في المشارب، وهو أمر يعني وجود الزبائن واستمرار الطلبات. وتكاد تختفي اللحوم من المطاعم عند وجبة العشاء ويفضل الطعام الخفيف القليل فالأجسام لا تحتاج للسعرات الحرارية التي يحتاجها إخواننا أصحاب ثقافة الشتاء. والدجاج في المطاعم يباع بالأرباع وليس بالأنصاف، ولا علاقة لذلك بالبخل.

وفي المكلا القديمة نجد (معالمة البناء) وقد ترسخت خبرتهم في ثقافة المكان، ففي غياب الكهرباء شيدوا البيوت وفق هذه الخبرة المكتسبة التي أعطت للتهوية مساحة كبيرة جعلت المسكن معقولًا، ومن ذلك الحرص على ارتفاع سقف الغرف وتعدد النوافذ واتساعها، وتصميم المناور وهي فتحات تقع أعلى النوافذ لتضمن استمرار التيار الهوائي الذي لا يبخل به البحر الوفي، والبعض يصعد إلى السطوح ويفضل أن يكون سقفه السماء، ولحافه الفضاء، وخليله الهواء.

وعلى عكس المعماريين القدامى البسطاء غير المتعلمين، نجد الكثير من المهندسين المعماريين (المتعلمين) قد جهلوا ثقافة المدينة، لهذا صمموا المنازل لبيئة غريبة عن المكلا. وإذا تقاربت والتصقت منازل المكلا القديمة بعضها ببعض لأسباب اجتماعية واقتصادية وتاريخية مقبولة، نجد (هؤلاء) والمساحات الواسعة تحت أيديهم رسخوا ثقافة التلاصق، وعشقوا المساحات الضيقة للمنازل الكارهة للخضرة والزهور، وحسبنا الله الحكيم الصبور. وحتى بيوت المكلا الحديثة تكاد تخلو من سخانات الماء وسخانات الهواء وإذا أسهمت المكيفات المنتشرة في المدينة بتبريدها من سخونة الهواء، فإن هذه

السخونة تعود مع فواتير الكهرباء.

لقد استعد المهندس القديم للمطر (رغم ندرتها) وحاول أن لا تكون ضيفة مزعجة على الغرف فتعمد ميلان أسطح البيوت ليسهل نزول الماء عبر الميازيب (المراعيض) وتعهدها بالرعاية المستمرة بطليها بالجص (النورة) كما ترك (المهندس) القديم الشعاب والوديان وحالها، وظن أن المدارس ستأتي بمن هو أولى لها. وعندما نسى الناس حكمته من ذلك أو تناسوها حدث فيهم ما حدث.

ونسي مما نسي مهندس اليوم الشعاب والوديان، وبدا الأمر وكأنه (عمياء تخطط مجنونة). وهذه الطرقات قبل المطر مدت لمرور السيارات، وبعد المطر مكانًا للمستنقعات، (شفقة) في البعوض والحشرات.

إن المكلا بالنسبة للبحر والجبل هي مثل الحلاوة في قطعة (السندوتش)، وسحب البحر ولو قليلًا من هذا التمازج اللذيذ أفقدها جانبًا كبيرًا من طعمها وملامحها. إن فصل البحر عن مكلاه القديمة شاق شاق، يقال إن الشتاء قادم بثوب جديد، المكلا لا تخاف، وكما عاشرت الصيف، ستعانق الشتاء، فقط اتركوها وشأنها، أيها الناس لتكن منكم أمة أو أمم تردم بحار الأرض ومحيطاتها، افعلوا إن استطعتم، إلا بحر مكلانا القديمة، أرجوكم أن تعيدوه، أرجوكم...

كلمات في الرياضة وشوطات

يتحمس الكثير من عشاق كرة القدم لأنديتهم، ويتطور هذا الحماس عند البعض إلى مرحلة التعصب، والتعصب سلوك غير حميد يقذف بصاحبه إلى مربعات ضارة وغير سليمة. فأصحاب هذه الروح نجدهم في الملاعب وقد قذفوا لعناتهم على الجميع، أو بالأحرى على من خاب ظنهم فيه، أو تأكد ظنهم، أو سوء نيتهم في الآخرين، سواء أكان حكامًا، أو لاعبين، أو ما وراء الحكام. ولله في خلقه شؤون.

لكن أصحاب الروح الرياضية وهم كثر إذا انتصر فريقهم يفرحون، وإذا حلت به الهزيمة يحزنون، ولكنهم، في الحالتين، باللعب النظيف يسعدون، ومن اللعب العنيف يشمئزون، وباللمسات البارعة يشيدون، وللهجمات النافعة يهللون، ويظهرون إعجابهم باللاعبين الموهوبين، ولا يقولون ما يقوله المتعصبون.

وقد تميزت فترة سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي ببروز كوكبة من نجوم كرة القدم في حضرموت وتنوعت مواهبهم في كل مواقع الملاعب (الدفاع والوسط والهجوم) وللبعض منهم لمسات وحركات ولزمات مميزة - سنشير إليها- جعلتهم يشتهرون بها. واللافت في نجوم تلك المرحلة تعدد اللاعبين الموهوبين في منطقة الوسط.

وجيلي سمع عن لاعبين كبار ولم يشاهدهم ولم يتمتع بإبداعاتهم عندما كان جميع اللاعبين يتعاملون مع لعبة كرة القدم بوصفها هواية وعشقًا صادقًا ما

بعده عشق، من هؤلاء أحمد بخيت، زكي باعقبة، وغازي عوض وآخرون. بل يلقب بعض المتميزين من أترابنا بأسماء هؤلاء مما يدل على الصدى الطيب الذي تركوه وتجاوز جيلهم. كانت الأندية الرياضية على جانب معقول من الندية وحتى ما يحسب من الأندية المتقدمة فإن انتصاراتها غالبًا ما تكون بشق الأنفس وبعد جهد جهيد وأعصاب من حديد. وسمعون وأيوب ثنائية فرضت نفسها على كرة القدم في حضرموت وبهما قالت الشحر نحن هنا، وكذلك قالت الديس الشرقية بالثنائي الجميل صالح الصنح وباسماعيل.

وديس المكلا بوصفه الحي الناهض وقتئذ، زخر ناديها بنجوم مثلوا القاعدة الصحيحة والصلبة والشابة لنجوم اليوم الذين يلعلعون في سماء الكرة الحضرمية والساحة اليمنية، وتوارت عن الأنظار أندية كان بالبنان إليها يشار. يا نادي المكلا أين أنت؟؟ يا نادي الأهلي بغيل باوزير أين أنت؟؟ أأيقاظ أنتما أم نيام؟؟؟

وعودة إلى اللمسات الرياضية لا بد أن أعترف بدايةً بأنني من مشجعي نادي الوحدة ببرع سدة المكلا القديمة، ثم نادي الهلال ثم نادي المكلا الذي تشكل من دمج نادي الهلال ونادي الوطن لتشمل مساحته أحياء المكلا القديمة برع السدة والحارة والبلاد أو أحياء السلام والشهيد خالد وحي الصيادين حسب تسميات حكومة الثورة. وهذا الاعتراف سيشفع لتركيزي على ذكر لاعبي المكلا الأصيلة أو القديمة ليس تعصبًا بل لأن هذا الانتماء الكروي جعل الذاكرة تحتفظ بلقطات معينة والقريب من العين قريب إلى القلب.

في نادي الهلال الرياضي لن أنسى صخرة الدفاع (الضنّي)، وهو من الرعيل القديم ويشتهر مما يشتهر به بضربات الجزاء الناجحة بل هو المتخصص فيها، وعندما ينطلق نحو هدفه المؤكد تكون في بطوننا بطيخة صيفي ميفعي حمراء. ولا بد أن أذكر معاصره في خط الدفاع، وهو الرياضي والمسرحي يحيى عمر بن علي الحاج الذي ارتبط باسمه هتاف (الوحدويين) الذين يرددون: **وحدة ما يغلبها غلاب... يحيى يوصلها من الباب للباب**. نعود لنادي الهلال ونتمتع بخط الوسط حامد رحيم خان، صديق الكرة أو الكرة صديقته، ومهما جرت أو اندفعت فتحت أقدامه يا ما استقرت، وفوق فخذه كم تدللت، وعندما يرسلها لصديق تكون في مكان يخيف (الأعداء)، وغالبًا ما تكون قريبة من أقدام أمين بشير وجواد باعقبة. وبعودة إلى خط الدفاع لنادي الهلال لا بد أن نذكر شعلة النشاط صالح حيابك وخلفه في المرمى الحارس الذكي بو حامد.

وأول من سنذكر من نادي المكلا اللاعب المخضرم عمر سويد المكينة التي لا تعرف الكلل والتعب، وعمر سويد ونادي المكلا يعني خط الوسط بخير، ويشتد هذا الخط عندما يكون في الملعب محمد باسالم، وسعيد الناخبي، ومحمد رحيم خان.

ولن ننسى إن نسينا نجوم الكرة في ساحل حضرموت اللاعب طاهر باسعد فهو لاعب كل المواقع، وعندما نتحدث عن الموهبة الحقيقية، والليونة العبقرية، والخفة الربانية، فنحن نقصد نجم نادي المكلا والمنتخب الوطني الكابتن طاهر باسعد.

ولن ننسى صبر كرباش، ويقظة ناصر الناخبي، وحلاوة ألعاب حسين الهندي وحيل أحمد بلعلا، وجبهة صالح الجهوري الذهبية وبراعة حارس المرمى حاج بامقنع، والقائمة تطول...

والسيل في الغيل وفير، فإذا ابتدأنا بخطوطه الوسطى فلا بد أن نذكر الكابتن عبدالله باعامر وأخاه فرج، وسالم الشيبة الذي تظهر موهبته أكثر في غياب زميله عبدالله باعامر، ولا زلت مسحورًا بصدر عمارو العجيب الذي يحتضن الكرة كعصفور يستقر في عشه. ولا أخاف عند زيارتي للغيل إلا إذا تذكرت انطلاقة سعيد باشطح والشاطر من لحقه...

ويكفي نادي التضامن مباهاة وشرفًا حارسهم الخلوق متعدد المواهب صالح الشاحث، فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ فلتة من فلتات الكرة المكلاوية رحل مبكرًا، وترك ما ينتظره من مجد عظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما نادي الشعب المتدفق دائمًا شبابًا فهو النادي العنيد الذي يمتلك الإصرار عند الهزيمة وبعد النصر ولم لا؟ ومن نجومه سالم عيضة ومحمد الكثيري وشيبوب والصامت والرائع سالم بخيت، ولأنه عنيد استمر في حين تراجع الآخرون، ودائمًا يتجدد شبابه مع اتساع الديس.. ولا يزال...

لا شك أن هذه اللقطات والشوطات سينالني منها عتاب بخاصة من الذين لم أذكرهم وهم يستحقون، وعذري أنني أتحدث من مقاعد المتفرجين وأرسل فقط قبسات من وحي ذكريات، لعل الوقت يسعفني وأكون قريبًا من الذين يستحقون

الإشارة والإشادة ليس فقط لموهبتهم بل لأنهم مارسوا هذه اللعبة بهواية وصدق فأدخلوا السرور في عشاق كرة القدم دون أن ينتظروا جزاء أو شكورًا.

و(الشوطة) الأخيرة التي أحببت أن أرسلها إلى عشاق كرة القدم.. أنه بالإمكان أن يكون الآن والمستقبل أفضل مما كان، والتراجع هو سنة من سنن سالف الزمان، المهم كيف سيخطط المخلصون؟ وبأي آليات سيعملون؟؟ وإلى أي مدى من الإخفاقات سيعتبرون؟ ومن زخم الماضي سينهلون؟



عشاء رياضي سيئوني

ارتبطت الأوقات التي أمكثها في مدينتي سيئون وتريم بالدراسة الجامعية العليا ولاسيما أيام البحث الميداني، وإذا عدّت تريم كنزًا أصيلًا للتاريخ وأسراره فإن سيئون مكان مهم لصناعته وأخباره، والحقيقة أن المدينتين من التاريخ والتاريخ منهما. والبعض يفضل الماء في سيئون على سمن البقر في شبام العالية. وفي مثل هذه الظروف غالبًا ما أكون وحدي في السكن، وحدي في المكتبة، وحدي في المطاعم، وحدي في الطريق، ومعظم الذين أسمعهم وأتفاعل معهم هم أموات في صفحات التاريخ الحية.

ذات يوم قررت التمرد على الأموات والتوحد والعزلة، وأعود إلى الحياة في ذروة كثافتها البشرية، والفكرة أتت صدفة، فبينما كنت جالسًا في إحدى المقاهي السيئونية الشعبية سمعت توعد مشجعين من مدينتي شبام وسيئون بالنصر لفريقيهما في مباراة اليوم القادم. ولأن ملعب كرة القدم يكتظ عادة بالناس على الفور قررت في صدري بأن أسفر عن قرار التمرد عند الالتحام بالجماهير الغفيرة (وهارد لك) يا توحد، و(باي باي) يا عزلة، وإلى اللقاء يا تاريخ.

أنا الآن في وسط الجماهير المشجعة، قلة معرفتي جعلتني أجلس في منطقة تلاحم مشجعي الفريقين، ولكن رب ضارة نافعة فمع استمرار المباراة اكتشفت أنني في المكان المناسب، فمن جهة وفر المكان لي نوعًا من الدفء في الشتاء السيئوني، ومن جهة أخرى استطعت أن أرصد كثافة انفعالات الجماهير. ومما

لاحظته تجاوز مرحلة الحماسة عند بعض المشجعين إلى العصبية بالقول، كما أن قرب مشجعي الفريقين من بعضهم البعض وإظهار انفعالاتهم السارة والغاضبة جعل هذه المنطقة أكثر حيوية.

ومضت دقائق المباراة في البداية صامتة، ولكنه الصمت الذي يسبق العاصفة. ثم حدث شبه تناغم في السخونة بين اللاعبين والمشجعين، فتارة يسخن اللاعبون بكلمات وتشجيع المتفرجين وأخرى تلتهب الجماهير بأداء اللاعبين، ثم بدأت تبرز تداعيات المباراة بين الفريقين والجمهور. كانت الألعاب الخشنة من لاعبي الفريقين أمرًا معتادًا في مباراة كرة القدم، ولاسيما عندما تكون المباراة مشحونة بالتوترات. والجديد هو صبغ بعض المشجعين للخشونة بكلمات وهتافات بدت غريبة بالنسبة لي وظريفة، من ذلك قولهم: "أقُّه عشاك" "دُقُّه ولا يهمك اتحاد القِتِّه" (كبده) (عكنه)، إلخ، هذا فضلا عن الشتائم الممزوجة بالدعوة بالشر والطرد من رحمة الله، نحو(لبوه لعنه) (لبوك مكفي) ولا بد من ترجمة لهذه الألفاظ للقارئ من خارج حضرموت، ونبدأ بـ(أقُّه عشاك): وهي تعني اعمله عشاك وتأتي عندما يثخن لاعب منافسه برمحة تسقطه أرضًا، وهو منظر يشبه انقضاض الوحوش على فريستها في بحثها الغريزي عن الطعام. أما دُقُّه: فهي من الدق والضرب أو من الدقيق، وتأتي هذه اللفظة في المباراة للدلالة على سرور المشجع بما أصاب لاعب الخصم من إصابة تمناه أن يكون بعدها دقيقًا أو ترابًا. والقِتِّة: هي مصطلح لأهلنا في وادي حضرموت تعني الكرة، ولعل أصلها من لغة دول المهجر كألفاظ كثيرة متداولة عندهم. أما

(كبِدُه): ويقصد بها هنا اقطع نفسه، وتأتي بعد أن تصل ضربة الكرة القوية ظهر أو بطن اللاعب من الفريق المنافس. أما (عكُنُه): فيقصد بها اجعله كومة من الطين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عندما حدثت زميلي وصديقي الدكتور رزق الجابري بهذه الألفاظ (ذات الروح الرياضية)، مات من الضحك رغم أنه معتاد سماعها، وأكد على قولها، ثم إنه ذكر لي قصته مع المشجعين في مدينة سيئون عندما كان في أول الشباب. ففي تلك الأيام تم اختياره رغم صغر سنه مهاجمًا مع فريق مدينه ساه فخرج اللاعب الأسمر تسبقه حماسته وأمله في الإجادة ليكون عند حسن ظن من ظن فيه الظن الحسن. كان اللاعب رزق رأس حربة لفريقه.

المتوقع فوز سهل لنادي سيئون العريق، فريق عاصمة المديرية. وتدور الكرة في الملعب ثم تأتي بالقرب من المهاجم رزق وببراعة يقذفها نحو المرمى ولكن العارضة تصدت لها في ذهول حارس المرمى، والجمهور، ولكنها ربما تكون صدفة (هكذا قال البعض في سره). دقائق أخرى مضت وتصل الكرة إلى قدم اللاعب الأسمر فيقذفها كما أختها ويردها القائم، ولم يتمالك مشجع من جمهور الفريق المنافس أعصابه وهتف بأعلى صوته (لبوه لعنه ده بيليه ده). أما أخونا رزق فلم يعدَّ ذلك مدحًا، ولا لعنًا، إنما عده ضربًا من العين والحسد ظل خائفًا منهما إلى ما بعد المباراة بسنين ولكنه والحمد لله لم تصبه بأذى وكانت في حقيقتها طلقة إعجاب، ولكن صديقنا ردد في نفسه كما نردد: وضربة العين تأتي أحيانا من محب..

وعودة إلى المباراة وما بعدها، فإننا نقول إذا كانت الرياضة تعد من أساسيات الصحة وفنًا وأخلاقًا فإن التشجيع يجب أن يكون كذلك، وروعة المباريات وحلاوتها نجدهما في اللعب النظيف وفي سخونة المشجعين وتفاعلهم ولكن بدون أذى، والرياضة في بدايتها وفي نهايتها تنافس شريف يحمل الكثير من المعاني الإنسانية الممتعة والمفيدة.

مساء ذلك اليوم رجعت وحدي إلى مكان سكني ولكنني ممتلئ حتى الثمالة بالحياة والناس والحركة، وعدت أقلب أوراقي بأنفاس جديدة وروح رياضية عالية استهلكت عدة ساعات من مساء ذلك اليوم، ثم شرعت أدون في مذكرتي الخاصة ألفاظ المشجعين (الرياضية). كان الليل قد أرخى سدوله، وتناقص طوله، وأغلق كل صاحب مطعم بابه بقفوله، وصرت بلا عشاء في شتاء سيئون بهوله، والتفتُّ يمنة ويسرة فلم أجد إلا كتب التاريخ، وقبل أن أموت نومًا كانت قرقرة بطني تناديني ساخرة: (أقّها عشاك).



جنة (إندع) وناره

نعم.. (إندع) رجل مكلاوي خمسيني، اشتهر بهذا اللقب، أسمر اللون، في شفتيه بقع وردية، إذا لم تكن من علامات البرص فهي من أقاربه، لا يعد من قبيلة (المنغوليين) وإن كانت استدارة وجهه وبروز جفنيه تجعل المتسرع يحسبه منهم، أو تابعًا لهم، كما لا يحسب من المجانين (الأقحاح) لكن ثمة شبهات تحوم عليه. يعمل (إندع) حمالًا، مؤهلاته العضلية ساعدته على هذه المهنة، بيد أنه غير ملتزم في عمله، ويعوض العجز المالي في حياته الخاصة بما يجود به تجار المدينة.

(لإندع) هواجسه النفسية الغامضة يعبر عن بعضها في وريقات يلتقطها من فضاء السبيل، في هذه الوريقات يلعب مع نفسه لعبة الجنة والنار كما يراها ويتوهمها، جنة (إندع) وناره معدة لصنف واحد من الناس، هم تجار المدينة، فهؤلاء بحسب وثائقه يدخلون الجنة ويخرجون منها إلى النار في اليوم الواحد أكثر من مرة، لا يكتب في وريقاته أسباب دخول التجار الجنة أو خروجهم منها، إنها جنته وناره، وعندما نسترق النظر أو نستدرجه لكشف وثائقه نجد أن باعيسى وبادحمان وباصم وباطاهر في النار بينما نجد باجابر والناخبي وباعوم والشرفي وباحجري في الجنة، ويتبادل هؤلاء المواقع، وتتعدد أسماء الداخلين جنة (إندع) وناره بحسب ما يراه ويقرره، ويتذوق تجار المدينة حلاوة هذه الجنة ويكتوون بنارها، فربما أصحاب جنة الصباح يكونون مع أهل النار في المساء،

وهكذا، وهناك أسماء لبعض التجار المشهورين (بالحرص الحاد) تتكرر في خانة أهل النار مما يدل على أن الأمر لا يخضع فقط للهواجس.

وإذا كان (لإندع) ناره وجنته التي خصصها لصنف التجار، فهناك من يرى الجنة بغير عين (إندع) وظنونه، من ذلك من يرى قرب المحبين هي الجنة وجفاءهم هو النار، وآخر يفضل النار مع الحبيب ولا الجنة عند الأهل (نارك ولا جنة أهلي)، ويحرص ثالث على القلوب أن تعشقا وفي ضرام الحب أن تحرقا، وهكذا فبينما جنة (إندع) وناره وليدة الهواجس في المعقول واللامعقول نجد أهل الشعر والهوى تتقلب لديهم الموازين والمقاييس ويخوضون في المجاز، إن جاز أو ما جاز، يكتبون بقلوبهم، لا يلتفتون لفتاوى القرضاوي ولا الشيخ بن باز.

إن الجنة التي نتمناها والنار التي نخافها لا تدخل في مجال لعبة (إندع) وخيالات الشعراء، إنهما من دخلهما لا يخرج منهما، والفائز من زحزح عن النار وأدخل الجنة، ويكفينا رعبا من النار أنها نزاعة للشوى، ويكفينا طمعا في الجنة أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وليسمح لنا أخونا (إندع) باستعارة لعبته ولكن باختيار شخصيات متنوعة في مدينة المكلا ومع تغيير يسير في أصول اللعبة، بحيث يضع من استهدفته اللعبة نفسه في الجنة أو النار. فإن كنت عزيزي القارئ من أحد الأصناف المختارة أو عكسها ضع نفسك في المكان المناسب، وانطلق، وليكن تحديدك سريًا وشخصيًا، ولنا رجاء عندك من قبل الدخول في حلبة اللعب ألّا يكذب أحد على

نفسه ولو في هذه اللعبة، فمن في الجنة ومن في النار؟

طبيب عيناه على جيب المريض، مسؤول خان الأمانة، رجل دين يتكلم عندما يكون السكوت من ذهب ويسكت عندما يكون الكلام من ذهب، رجل ينمو لحمه ويتغذى دمه من مال حرام، مدرس يزرع الخوف وينشر البلادة، قاضٍ تناسى ضميره، إنسان مصلحته أولًا وأخيرًا، متسلق على حساب الآخرين، متذبذب يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول، منافق يبيع الكلام...

واللعبة بسيطة، والمهم أن يلعب من لعب بصدق، وإذا كانت لعبة (إندع) أكثر عملية من حيث التحديد المباشر - وإن تغيرت عنده مواقع التجار بحسب الهواجس والصدقات- فإن لعبتنا فيها من التداخل والغرابة ما يجعل معايير أخينا (إندع) ترتبك أمامها، أما إذا بحثنا عن جنة الشعراء ونارهم فسنجد الناس في واد وهم في واد. وجنة الخلد لها معاييرها وسبلها الأكثر وضوحًا، ويصل إليها من سعى لها سعيها وشملته الرحمة الربانية القريبة من المحسنين، أما النار...



ثالثًا:

رجال في محطات

عكاشة.. الحنين إلى المكلا

العيش والملح،.. العشرة ما تهون إلا على أولاد الحرام، عبارات وحكم تحتل حيزًا مهمًا في ثقافتنا الشعبية العربية، وتقال عندما تحضر المناسبة، وتدفع (أولاد الحلال) للارتباط بالمكان والناس. ويشتد هذا الارتباط عندما يشع بالذكريات الجميلة ويدفأ بالجيرة الطيبة، ويتعزز بالصداقات الصادقة والآمال السامقة. ومدينة المكلا بوصفها مستلقية بأنوثتها وكبريائها على محيط عظيم آوى إليها الناس من كل حدب وصوب وباختلاف أديانهم وثقافاتهم سمحت وهي الحرة الشريفة أن تتلاحق في سوحها الثقافات العابرة (ويتمكلل) فيها من استقر، ويتلاشى من اعتسر.

إن مريدي وأصدقاء مكلانا كثر، وصديقها في هذا المقال هو الأستاذ الدكتور محمد عبد الكريم عكاشة (أطال الله عمره) فلسطيني الأصل يمني الجنسية. عندما قدم مكلانا جاء بقلب يحمل جراح وطنه الأسير، ولكنه مؤمن بالعروبة والتحرير. شاهد هذا الصديق آخر عهد سلاطينها وبداية عهدها الثوري، عمل مدرسًا في ثانويتها وارتبط فيها بشباب الجيل الثاني للجبهة القومية الحاكمة.

شهدت المكلا الصرخات الأولى لعدد من أبنائه، ولأنه صديقها تبلل برطوبتها، واكتوى بحرارتها، وتلذذ بفاكهتها، وشبع من أسماكها، والتصق بأهلها، ودنا من تاريخها. كانت أطروحته للدكتوراه (قيام السلطنة القعيطية والتغلغل الاستعماري في حضرموت ١٨٣٩ - ١٩١٨م). استقر عكاشة الدكتور

في عدن المدينة والجامعة، ولكن ظلت مكلاه تناديه ويلبي، إن تأخر لا تعاديه ويبكي، ويبوح لها بما يعانيه ويشكي.

شاء الله أن أمثل بين يديه عندما كان ضمن لجنة اختيار طلبة الماجستير الجدد في جامعة عدن، فقد قذفت بي المقادير ورغبتي الجامحة لاستكمال الدراسة إلى عدن ولم تسعفني خبرتي اليسيرة أن أدرك تفاصيل لازمة مثل التخصص التاريخي الدقيق المراد من الدراسة (قديم/ وسيط/ حديث)، لهذا لم أعط أعضاء اللجنة جوابًا شافيًا. ولكن صديق المكلا لم يفقد الأمل فعندما تكون إجابتي موفقة في التاريخ الحديث يهلل ويؤكد أن معلوماتي في التاريخ الحديث (تخصصه) أقوى وأفضل، وكان لا بد أن يمضي زمن لأعرف الأهداف (النبيلة) البعيدة. والظريف في المقابلة أنني عندما ذكرت عنوان كتابه استبدلت باسم والده عبد الكريم اسم أسامة فانفجر بالضحك وعلق: (أنت غاوي مسلسلات) وهكذا زج بي عكاشة في المربع الذي يريده لعله حنينه إلى المكلا!! ولم لا وغريمه من المدينة التي عشقها وكتب عن بعض تاريخها.. ومن أجل عين تكرم مدينة..

ولأنه يعرف مداخل الشخصية الحضرمية السهلة جاءت الصداقة من قريب، وأحيانًا يكون بيته مكانًا للقاء. حدثته مرة عن بعض المشاريع التي أفكر في تسجيلها لرسالة الماجستير، كان يتابع بإنصات ثم استوطنته ابتسامة استمرت حتى فرغت من الحديث، هل الابتسامة لحرارة الطرح وجديته أم لسطحية المطروح وخفته الله أعلم!!! ولكنه أفصح في هذه المناسبة عما يضمره وقال

مباشرة: إن موضوعك للماجستير والدكتوراه إن شاء الله موجودٌ ومتاحٌ ففي الماجستير بإمكانك أن تكمل ما انتهيت إليه (هو) حتى الحرب العالمية الثانية، وتستكمل في الدكتوراه الحديث إلى الاستقلال الوطني ١٩٦٧م. حينذاك تذكرت بقوة مقابلة القبول الأولى.

بعد أن استكملنا السنة التمهيدية لم أعمل بنصيحة أستاذي عكاشة في أول الأمر لأسباب خارجة عن إرادتي ولا داعي لذكرها هنا، ومرت بضعة أشهر دون أن أحدد موضوع الرسالة. في إحدى عصريات المكلا الجميلة كنت قادمًا من منطقة شرج باسالم باتجاه المكلا القديمة (برع السدة)، وبينما كنت محاذيًا لسور القصر السلطاني القعيطي، لمحت شبح رجل طويل القامة عريض الجسم كان واثق الخطوة يمشي مرحًا. الكتلة الجسمية ليست غريبة، إنني أعرفها ومع هذا أكذب الظن ثم صدق ظني عندما اشتبكت أيدينا وتلامست أجسادنا بالأحضان والقبلات، وانسحبت كل الحواجز.. نحن في معقلنا المكلا.

في المقهى المقابلة لقبة المحجوب (جوار مسجد بازرعة) دار نقاش خطير في حياتي ومستقبلي، كان الأستاذ يعرف كل مصاعبي ويتفهمها وكان يقول: إنه مدرك لإمكانياتي ثم زف لي بشرى وصول وثائق يمنية من الأرشيف البريطاني في ستة عشر مجلدًا، وأخبرني أنها ستجعل من فكرته لمشروع الماجستير أكثر أصالة وواقعية وستبدد مخاوف لطالما أفصحت له عنها.. وقال الكثير المشجع، لا أدري بعد هذا اللقاء الرباني من كان منا أكثر حاجة للآخر.

صديق المكلا مغادرها الساعة العاشرة صباحًا. كان أمامي عمل طويل ووقت قصير حتى أفرغ من كتابة ملخص البحث بمصادره، وأهميته وخطته الأولية حسب الموضوع القديم الذي اختاره أستاذي، وقبل تبييضه كان لا بد من أن يطلع عليه في مكان إقامته حسب اتفاق (المحجوب).

في الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً كانت المسودة جاهزة، وبعد إجراء بعض التعديلات عدت إلى البيت أسابق الزمن.. قبل أن يغادر عكاشة مكلاه كانت الأوراق جاهزة.

من عدن أخبرني أن الموضوع سجل وهو المشرف حسب اتفاقنا، وقلت في صدري على بركة الله. شاء الله أن يعود عكاشة إلى غزة الفلسطينية شبه المحررة ومضت سنون ولم يعد المشرف على رسالتي، ويوم المناقشة تفاجأت بحضوره في القاعة فقد جاء إلى عدن لمشاغل خاصة. كان اللقاء حميميًا، ومشحون بالتساؤلات الصامتة!

في مدينة المكلا وقبل ثلاث سنوات من تاريخه كان آخر لقاء بيني وبين الدكتور (باعكاشة) كما يقول له أصدقاؤه في الدائرة الضيقة.. ليومين لم أفارقه، وفي إحدى الأمسيات المكلاوية كان ضيفًا في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بالمكلا. كان الحديث حديث الذكريات وقد تعمد أن ينعى أخاه الذي درس في كلية التربية وكذا ابنه ابن المكلا اللذين استشهدا من أجل فلسطين والعروبة.. في رحلة العودة أخبرني أنه كادت أن تتساقط الدموع من عينيه، قلت: إن تساقطت

فمن حقها ولكن يظل العزاء في حسن الجزاء الذي يتمتعون به.. ثم شرد إلى بعيد.

وعلى حد علمي لم يكن للزيارة هدف واضح!!! هل الزيارة حنين دفين لمرتع الشهيد؟؟ على كل حال عاد الأسد العجوز إلى عرينه القديم. هل هي الزيارة الأخيرة؟ ظني أنه سيعود إن كتبت له العودة وتيسير السبيل، ويقينًا ستتحرر فلسطين السليبة، وكل موطن سليب.



عبد الرحمن الملاحي.. ذاكرة الشحر

ترددت كثيرًا عندما راودتني فكرة الكتابة بطريقة الخواطر عن أستاذي القدير عبد الرحمن الملاحي؛ لأن ذاكرتنا الجمعية (العربية) تعد ذلك ضربًا من التشاؤم والفأل غير الحسن، رغم إيمان الكثير منا العميق بالقضاء والقدر. وما شجعني على الكتابة معرفتي الخاصة بتدين أستاذي ومسحته الصوفية. إن الذكر الحسن لمن لهم أفضال علينا لهو من باب الوفاء المحمود وله فوائد كثيرة.. ولأن ما نكتبه عبارة عن خواطر فليعذرنا القارئ أن الخاص فيها سيطغى على العام.

أنا والملاحي في الهواء..

كانت أول معرفة لي بالأستاذ الملاحي عن طريق قراءتي لما يكتبه في الصحف والمجلات، ثم ما أسمعه عنه من بعض الأصدقاء عندما نتجاذب أطراف الحديث في الشأن الأدبي والتاريخي، بخاصة تاريخ الشحر والملاحة البحرية. أما أول مشاهدة مباشرة فكانت سنة ١٩٨٩م في كلية التربية بالمكلا (جامعة عدن) عندما حضر مشاركًا في ندوة المقاومة الشعبية في حضرموت، وكنت حينئذ طالبًا في المستوى الرابع تخصص تاريخ. ثم جرت أيام ودارت شهور وانطوت سنين، وإذا بي أرى الأستاذ الملاحي للمرة الثانية في صالة مطار الريان وكلانا كان مستعدًا للسفر إلى عدن.. كنت في ذلك الوقت طالب ماجستير في كلية الآداب جامعة عدن في السنة الأولى التحضيرية، وقد كلفت ضمن تكليفات أخرى من قبل الأستاذ الدكتور سيد مصطفى سالم تحقيق بضع أوراق

لمخطوطة يختارها الطالب، وقد اخترت مخطوطة (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر)، وفي أثناء التحقيق واجهتني بعض المصاعب في تفنيد وتفسير بعض الأحداث التاريخية وبعض الألفاظ العامية (الشحرية) التي تعود إلى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. لهذا مثّل الملاحي هدفًا وغنيمة لا بد من الظفر بها، ولأن صالة المطار غير مناسبة (للغزوة) فقد دبرت خطة سريعة أضمن بها جلوسي بجانبه في الطائرة أو بالقرب منه.. وتحقق ما أريد، ها هو هدفي بجانبي وكتفي بجانب كتفه، وبيدي تحديد لحظة الانقضاض. وما إن استقرت الطائرة في الهواء وأذن لنا بفك الأحزمة المقيدة لتحركاتنا، حتى بدأت هجومي المباغت، فأمامي ٥٠ دقيقة لا بد من استغلالها في حوار مركز ومباشر ثم - وهو الأهم - أحاول تثبيت أساسات جسور علاقة صداقة مستقبلية.. ولكن النوايا الماكرة التي أحملها، والمؤامرات المدبرة، والخطط المرسومة، فشلت في دقائق معدودات وتحول السحر على الساحر، ولكن مع تعديل ذكي في أسلوب المواجهة من قبل أستاذي، تكسرت بموجبها حواجز، واختصرت مسافات وأصبح البساط (شحري) وجرت بيننا مناقشة هادئة وودية وتحصلت على أكثر مما أريد. والوقت في الهواء مر كالهواء.

وفي الشحر مستمرة اللقاءات..

في أواخر سنة ١٩٩٤م أنهيت السنة التحضيرية لدراسة الماجستير ولم أحسم بعد قراري في اختيار موضوع الرسالة، وكنت أميل قليلًا لتحقيق مخطوط

(النفحات المسكية في تاريخ الشحر المحمية) لباحسن، وكان لزامًا علي أن أشد الرحال للمرة الثانية إلى مكتبة المخطوطات بتريم لأطلع عن قرب على النسخة الأصلية، وأنسخ بعض الأوراق لتقديمها مع مشروع البحث، وفي تريم التقيت بالشيخ علي سالم بكيّر..

ثم كان لا بد من زيارة الشحر والملاحي للتشاور. وبعد ترتيب يسير للقاء وجدتني في عقر داره ومعقله، وقد ذكرت لأستاذي خياراتي في تحديد موضوع الرسالة شارحًا وجهة نظري، ثم عقب على هذه الخيارات مبينًا أهميتها جميعًا، وبدبلوماسية الشحري تعمد أن يكون القرار النهائي نابعًا من قناعاتي، بعد ذلك غادر الغرفة لثوانٍ وأحضر لي نسخة مصورة من مخطوطة النفحات المسكية (مشروع الرسالة) وعرض تقديمها لي عند استقرار رأيي على دراستها وتحقيقها.. المهم شاء الله ألّا تكون هذه المخطوطة موضوع الرسالة لأسباب لا داعي لذكرها.. بعدها عيّن الدكتور أحمد محمد بن بريك (الشحري) مشرفًا على رسالتي بموضوعها الجديد. ولعلاقات الصداقة الخاصة بين الأستاذين فقد أشار عليَّ المشرف بعرض بعض المباحث على الملاحي للاستفادة من خبرته وثقافته، وقد فتحت هذه المشورة المجال لاستمرار التواصل بيننا. وواقع الأمر كانت الملاحظات والتصويبات التي دونها الأستاذ الملاحي أو التي قالها شفاهة بمثابة دروس حية نبهتني إلى أمور كثيرة تتعلق بالبحث التاريخي ومسالكه الوعرة.

إن من أفضل ما تعلمته من أستاذي الملاحي - وما زلت أتعلم - التواضع، الاستماع الجيد، الإخلاص في الرأي والنصيحة، الروح المرحة، اللمحات

الذكية، والكرم العلمي الواعي. وهذه الصفات والقيم لا يدخلها التكلف من قريب أو من بعيد، بل نجدها جزءًا طبيعيًا من سلوكه وشخصيته. وبعد إحدى زياراتي للملاحي دونت انطباعاتي ومما جاء فيها.. إنه ابن الشحر وابن المدينة الذي لا تمل مجالسته ولا تستطيع أن تفعل شيئًا حياله، إلا أن تحبه وتحترمه.

لا تزال متنوعة إبداعات أستاذنا الملاحي من الأدب والعادات الاجتماعية والهجرة.. إلى الملاحة البحرية والتاريخ، وتحتل الشحر وأهلها الحيز الأوسع في اهتماماته. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنه ذاكرة الشحر وحارس تاريخها.



الأستاذ علي البيتي.. عندما يخلص الرجال

١) مصيدة البيتي:

عدت إلى المكلا، بعد رحلة التكريم للمتفوقين في عيد العلم، وهو تقليد سنوي كان يقام في مدينة عدن (العاصمة) واستمر ساريا إلى ما قبل الوحدة اليمنية. كان ذلك في العاشر من سبتمبر عام ١٩٨٩م، أي كان ذلك آخر تكريم في عهد التشطير على ما أظن، فشهر سبتمبر للسنة التالية تغيرت الخريطة السياسية في مناطق مختلفة من العالم واختفت جمهوريات وظهرت جمهوريات جديدة.

عندما قدمت أوراقي للمسئول في التعليم الثانوي بالمكلا، عاملني الموظف المختص بعناية لافتة إذ وجد في شخصي ضالته المنشودة، فقد كان يبحث لثانوية الزبيري بالجول (مديرية حجر) عن مدرس لمادة التاريخ. كانت نقلة المعلمين إلى حجر بمثابة عقوبة تأديبية، فقد كانت حجر - وما تزال- مشهورة بأنها معقل مرض الملاريا الخطير، فضلًا عن وعورة طرقها وتباعد مناطقها.

كان رفضي الأولي متوقعًا.. ثم ظهرت بشائر الترغيب العديدة، التي منها ارتفاع علاوة الريف، صرف الغذاء المجاني، السكن الحديث المريح، إمكانية الإجازة في منتصف الفصل الدراسي لكل المعلمين المنقولين، توفير وسائل النقل في بداية العام الدراسي وقبل وبعد الفصول الدراسية.

كان وراء **(مصيدة)** الإغراءات الأستاذ الفاضل المرحوم علي عبدالله البيتي، مؤسس التعليم الثانوي في مديرية حجر، الذي كان مدركًا أن سمعة حجر المكان لا

تشجع على مجرد التفكير في الذهاب إليها. والمديرية تحتاج إلى ثانوية بل ثانويات، والكادر من أبناء المديرية لا يستطيع أن يغطي أكثر المقررات. ولكن أبناء حجر سئموا الداخليات البعيدة، وأستاذنا القدير بوصفه مديرًا لإدارة التربية بالمديرية يدرك ذلك ويعايشه همًّا يكدر الحال، ولكن زواله عند همّة الرجال غير محال. كان رَحِمَهُ اللَّهُ ينظر إلى بعيد بوعي واقتدار، ثم قدر له أن يرى بنفسه حلاوة الثمار.

٢) البيتي تلميذ:

في (مدينة) الجول عاصمة المديرية التقيت بأستاذنا القدير وكان أول حوار مباشر بيني وبينه. كان الحوار سهلًا ومفيدًا ومشجعًا، ولكن هذا اللقاء لا يعني أول مشاهدة شخصية له فكنت أعرفه اسمًا وشكلًا عندما استكمل دراسته الجامعية في كلية التربية العليا بالمكلا، لا نعلم كم مضى من سنين عمره حتى حينه ولكن كنا ندرك أنه ليس من جيلنا بل كان واضحًا أنه من جيل قبلنا. والدرس الصامت الذي تعلمته من (التلميذ البيتي) أن العلم لا يعرف الحدود ولا مراسي له، وحتى نغترف من خيره ونوره لا بد أن نمخر عبابه، ولا نلتفت لمن أقفل على نفسه بابه.. شكرًا يا بيتي...

٣) البيتي في بيته:

استقر المقام والعمل بأستاذنا البيتي في المكلا، وفي صحفها الأسبوعية أطل علينا بأبواب ثابتة تدل على سعة الثقافة، وقوة الذاكرة، وشباب الكلمات، وهمس الأنات. وفي مقر اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بالمكلا وهو بيت الجميع تداخلنا معًا في حوارات الفعاليات. كان رَحِمَهُ اللَّهُ يتعمد الحضور في

الفعاليات ذات النكهات الثقافية الخاصة، ويفضل الجلوس في المقاعد الخلفية ويرفض العروض العديدة في التقدم إلى الأمام ويكون حظه في الحديث مع المتأخرين الذين لا يترك لهم المتقدمون من الملاحظات إلا القليل..

الكلمة للأستاذ البيتي.. يتقدم الصفوف بهدوء ووقار.. يقرب الميكرفون إلى فمه ويقترب إليه.. بعد البسملة يسلم على الحاضرين ويسكت برهة.. ويتساءل البعض في صدره ترى ماذا سيقول بعد ما قيل؟؟ ومن قريب يحدد أستاذنا عدد النقاط التي يريد أن يعلق عليها.. ثم يستعرضها شفاهة غير معتمد إلا على ذاكرته السليمة، فيتفاجأ الناس بجديد ما استعرض وتندفع الكلمات وتبني لها جدرانًا ذات عماد، وينصت الجميع ويقتنعون أن البيتي يتحدث مِن وفي بيته...



الأستاذ مدرك عبيد مدرك
(مسرحة الدرس)

تحتل الشخصيات المؤثرة وأحيانًا غير المؤثرة أهمية خاصة في وسائل الإعلام لأسباب منها منطقي ومنها غير ذلك. أما ما سنقوله فهو اقتراب يسير من شخصية سهلة كان لها دور في المجتمع محدد ولكنه مهم وحيوي، إنه المعلم والمربي الفاضل الأستاذ مدرك عبيد مدرك أطال الله عمره. ربما يقول البعض: إن الحديث عن مثل هؤلاء الناس غير مثير ولا مشوق، ولهم في ذلك بعض الحق، ونحن نقول إن الحديث عن الناس العاديين هو ميل للأغلبية (وتعصب مفيد لهم) بل وخروج مؤقت للصحافة من أبراجها العالية لتتلمس عن كثب مشاكل الناس وهمومهم وأحلامهم، والأهم أن مثل هذه المقالات تخلو من النفاق والمصلحة.

لسنوات طويلة كنا (أنا وزملاء المدرسة) نكرر أن أستاذنا مدرك عبيد مدرك لم تدركه السنين بل نقول: إن الزمن توقف وفشل في إحداث تغيرات بارزة في تكوين جسمه النحيل، ولكن في السنوات القريبة لم يعد الأمر كما نقول أو نظن فقد مالت الكفة قليلًا لصالح الزمن، ها هو الرأس اشتعل شيبًا، ثم إن هناك اختراقات طفيفة مست أجزاء من الجسم النحيل، ولكنه لم يستطع الاقتراب من المناطق (المهمة) فقلبه ما يزال في حيوية الشباب، وذاكرته في أدائها المعتاد، بل زادتها السنين تماسكًا وخبرة، وفي روحه المرحة تجدد وأمل.

بعد خمسة وثلاثين عامًا من العمل معلمًا في سلك التربية والتعليم غادر معلمنا – وبصمت – المدرسة، فقد أحيل إلى المعاش في السنوات الماضية القريبة

ليصبح اسمًا أو رقمًا ضمن آلاف الأسماء في مكاتب البريد التي تتسلم عبرها حصاد السنين أو هكذا يفترض. إن المتقاعدين في مجتمعاتنا العربية اسم ورقم خارج دائرة الضوء والاهتمام، بل تتحول القسوة تجاههم إلى تصرفات وإجراءات لا تليق بهم وبكرامتهم وحرمتهم. إن الاهتمام بالمتقاعدين في مجتمعاتنا (النايمة) يعد ضربًا من الترف والخيال، ولفظة المتقاعد عندهم كلمة مركبة من (مت - قاعد). والخلاصة أن التقاعد والمتقاعدين وجع وهَمٌّ لا أول له ولا آخر.. وعندما أخبرني أستاذي أن راتب المعاش الشهري الذي ما عاش ولا شهر يمكن أن يموت بعد أسبوع أو يزيد قليلًا. قلت له: والاستراتيجية؟ قال: الله كريم.. الله كريم.

لقد حافظت على علاقة طيبة مع الكثير من أساتذتي في مراحل التعليم المختلفة وأكن لهم الاحترام والتقدير، وزاد إدراكي لأهمية ذلك عندما صرت معلمًا.. فكم هي مهنة التعليم شاقة ومتعبة! ولا شك أن لمعلمينا وأساتذتنا بصمات متفاوتة التأثير فينا وكل له جهده ومنهجه. إن الحديث عن المعلم (مدرك) يجرنا إلى الزمن الجميل حيث الطفولة والبراءة، ويسحب من الذاكرة مواقف فيها من الطرافة والذكريات ما فيها.

في بداية سبعينيات القرن الماضي كنت طالبًا بمدرسة الحرية الابتدائية للبنين بالمكلا، في الصف الثاني الابتدائي، وكان الأستاذ مدرك معلمًا للغة العربية، وإن نسيت الكثير من ذكريات هذه المرحلة فلن أنسى حصة الإملاء الغيبي وتفاعلاتها وتداعياتها وغصاتها!! على أن هذه الانفعالات تتجلى في حصة الإملاء اللاحقة حيث يتم توزيع الكراسات وما أدراك ما الكراسات.. وللأستاذ

مدرك طريقته الإيحائية الخاصة، فغالبًا لا نلاحظ علامات الرضا أو الغضب في تعبيرات وجهه عند توزيع الكراسات، بل نستطيع تخمين علامة الزميل من خلال ذكر أستاذنا لاسم التلميذ وطريقة استلامه لكراسته..

يبدأ الشحن النفسي المنظم أولًا بطلب أستاذنا من طلاب الصف الأمامي جلب الكراسات من المكتب، وكانت دقائق الانتظار تمر بالنسبة لنا كساعات، ويستغل أستاذنا هذه الدقائق للإشادة ببعض الطلاب المتفوقين حينًا وانتقاد المخفقين.. ها هي الكراسات على الطاولة وتكاد قلوبنا الغضة تبلغ الحناجر، ولكن أستاذنا ليس في عجلة من أمره. ثم تأتي اللحظة الحاسمة.. إذ يستدعي كل طالب لاستلام كراسته، وفي أثناء سير التلميذ يتفحص أستاذنا بشكل سريع العلامة المتحصلة، ففي حالة العلامة الممتازة يسلم أستاذنا الكراسة بيده مع بعض كلمات الثناء، وتتراوح الإيحاءات الإيجابية بالنسبة للناجحين حسب العلامة المتحصل عليها وتصل في أدناها إلى الصمت. أما غير الناجحين فمصيبتهم كبيرة وشبه معلنة سواء كانت بالكلمات أو بتعمد تغيير تعابير الوجه، وفي أسوأ الحالات بقذف الكراسة قبل أن يصل التلميذ ذو العلامة المتدنية إليه.

في إحدى الحصص جلب أستاذنا بنفسه الكراسات وكانت مفروزة مجموعتين غير متساويتين، وقبل توزيعها أخذ يحدثنا كمن نفد صبره وطال به الأمد أو هكذا يخيل إلينا.. كان معظم التلاميذ قد أخفقوا في اختبار الإملاء وكنت منهم، وطلب أستاذنا من (الفاشلين) عدم مغادرة الصف بعد نهاية الدوام،.. ها هم تلاميذ المدرسة ينصرفون وكان علينا انتظار أمر غير سار بالطبع..

دخل الأستاذ مدرك الصف و(الشر) يتطاير من عينيه ودور الغضبان قام به كأحسن ما يقوم به الممثل المحترف.. أعلن بعد اتهامه لنا بالكسل واللعب المفاجأة الصاعقة وهي عزمه على تنزيلنا إلى الصف الأول الابتدائي، ولكنه ظل يعطي ويأخذ معنا في الكلام ويتظاهر أنه غير مصدق لتعهداتنا بالاجتهاد والمثابرة، ثم يتدخل بعض المعلمين في موقف رتب بشكل مسبق (لم ندركه في حينه) وبعد إبداء استغرابهم لنتيجتنا غير المشرفة يتوسطون لنا عند الأستاذ مدرك بأن يعفو عنا، ولكنه يتظاهر في البداية أن لا فائدة، وبعد إلحاح منهم وتعهد جماعي منا بالاجتهاد يوافق الأستاذ مدرك على مضض ويطلق سراحنا.

وعلى الرغم من أن ما قلناه يوحي بصرامة شخصية أستاذنا إلا أن الأمر ليس كذلك، فهناك عناصر كثيرة إيجابية كنا ندركها في وقتها، منه ما يضفيه من مرح وتعليقات (غير جارحة) للعتاة أو الضالعين في الفوضى من التلاميذ بل يصل الأمر أحيانًا أن الضحية نفسه تضحكه تلك التعليقات اللاذعة. أطال الله عمر أستاذنا وأعانه على مدة ما بعد التقاعد وليعذرنا عن التقصير، وله منا التحية والتقدير والاحترام.



العم عمر.. رجل من زمن مضى

ذات يوم اتصل بي الدكتور محمد سعيد القدال لأرتب له لقاءً مع الرجل الطويل الأبيض علّه يجد عنده إجابة عن بعض الأسئلة، وذلك في أثناء زيارته الميدانية للمكلا في إطار إعداده مع الأستاذ عبدالعزيز القعيطي للكتاب الذي نشر فيما بعد بعنوان (علي بن صلاح القعيطي ونصف قرن من الصراع السياسي في حضرموت).

أما هذا الرجل الطويل الأبيض فهو السيد عمر محمد العطاس رَحِمَهُ اللَّهُ وهذا الوصف سمعته كثيرًا من آخرين وهي من مميزاته الجسمانية.

والعم عمر (بو علي) رجل شحري المولد مكلاوي السكن، وهو شخصية اجتماعية واعتبارية معروفة ليس في المكلا والشحر حسب، بل أيضًا في الكثير من بلدات وقرى حضرموت، ساحلها وداخلها، ففي عهد السلطنة القعيطية عمل قائما في كل من غيل باوزير ودوعن وحريضة والديس الشرقية ونائبا للواء شبام. وفي أثناء عمله في هذه المدة تروى الكثير من الحكايات ذات الدلالة والتي لا مجال لذكرها هنا. وبعد استقلال جنوب اليمن تقلد بعض الوظائف القيادية الإدارية في مدينة المكلا منها إدارة المياه وإدارة البلدية.

وقد يظن من لا يعرف هذا الرجل ذا القامة المهابة والقسمات الرجولية البارزة أنه يميل إلى الصرامة والتكبر، ولكني أقول بكل صدق على الأقل في السنوات التي عرفته فيها إن هذه الصفات أبعد ما تكون عنه وعكسها هي من صفاته. ولأنه شحري فالنكتة منه وهو منها وتطال تعليقاته غير اللاذعة الجميع.

وقد اكتسبت منه شرف العمومة من خلال زواجي بابنته.

أبو علي شخصية مثقفة وله أصدقاء كثر من المثقفين المقربين كالأستاذ حسين محمد البار (وهو أعز أصدقائه)، والشاعر عبدالرحمن باعمر، والأديب حسين شيخان والأستاذ أحمد عوض باوزير (رحمهم الله) فضلًا عن صداقته وعلاقته الأسرية مع الشاعر الكبير الراحل حسين أبوبكر المحضار، وأفضل هدية تهدى له كتاب أو مجلة أو صحيفة.

عُرف العم عمر أكثر في المكلا في أثناء توليه إدارة المياه بخاصة تلك المدة التي شهدت المكلا أزمة حادة في تموينات المياه، ولا يعرف إلا القليل أن المدير يغيب بالأيام عن أسرته يتابع شخصيا الإصلاحات في المضخات وحفر الآبار الجديدة مشجعا للعمال ويشاركهم الأكل والمنام. أخبرني بعض الأقرباء أن العم عمر كلفه تقديم طلب لسكرتير الحزب ليصرف له عددًا من أكياس الإسمنت لإجراء ترميمات، بالنظر إلى أن البيت مؤمم وملك للدولة، وقال: إن (جبران) في بداية الأمر سخر من الطلب، وبعد أيام اعتذر وهو غير مصدق أن هذا البيت بالإيجار.

وفي حادثة مشابهة كنت حاضرًا فيها سأل محافظ حضرموت الأسبق الأخ صالح عباد الخولاني العم عمر عن البيت وهل يملكه؟ ولم يصدق أيضًا الإجابة ثم قال بصراحة: يا عم عمر أنت حضرت ثلاث حكومات (القعيطية واليمنية الديمقراطية واليمنية) كيف خلال هذه الفترة لم تتمكن من بناء بيت شخصي لائق؟؟ ولم يتحصل المحافظ الأسبق على الإجابة المقنعة التي تشفي غليله.

نعم يملك العم عمر بيتًا صغيرًا في الشحر أُمِّم، ثم سلم له بعد الوحدة وقد صار خرابًا. وللأمانة لم أشعر في يوم من الأيام أن العم عمر نادمٌ على أنه لم يستفد من وضعه ووضع أقربائه المتقدم في السلطة لتحقيق مكاسب شخصية، وكانت القناعة إحدى صفاته الجوهرية.

في العشر السنين الأخيرة من عمره لزم البيت لأسباب صحية، ورب ضارة نافعة فهذا المكوث جعله قريبا أكثر من عائلته وهو المشهور بحب السفر والتنقل. رغم الجلسات الطويلة التي جمعتنا في بيته أو في بيتي عندما يقيم عندي لأيام كنوع من التغيير، لم يتكلم عن نفسه ولو حضرت المناسبة بما نعرفه من الآخرين. ولا أتذكر أنه خاض معنا عندما نخوض أحيانًا في رذيلة الغيبة ويكتفي بالتعليق بلازمة معينة يحرك فيها يديه وشفتيه.

رحم الله العم عمر، لقد امتد حيًّا في أبنائه، وانتقلت بعض صفاته فيهم وفي أحفاده، وسيظل مثلًا طيبًا وذكرى عطرة في ذكراه الثالثة لكل من آلمهم فراقه وأوحشهم بعاده.

القدّال ثنائية العلم والتواضع

من دون موعد سابق دخل رجل قاعة الدرس لطلاب الماجستير في التاريخ كلية الآداب بجامعة عدن، كان طويل القامة ممتلئ الجسم إلى إفراط، تماشت خطواته الأولى مع ابتسامة شبه مقيمة مرسومة بين شفتيه، ولكنها ابتسامة العالم الجاد. إنه الأستاذ الدكتور محمد سعيد القدّال. ولمثلي من أبناء منطقة حضرموت يرتبط اسم القدّال بما عرف في المكلا بحادثة القصر الشهيرة الأليمة (١٩٥٠م)، عندما تولى القدّال الأب منصب السكرتارية (الوزارة) في السلطنة القعيطية، وقبل ذلك ارتبط اسم القدّال الأب بالنهضة التعليمية التي شهدتها حضرموت عقب توليه نظارة المعارف. وهو أمر معروف وموثق بخاصة عند من تناول بالدراسة تاريخ التعليم في حضرموت. إنها مفارقة غريبة بين العلم والدم.

إلى ذلك الحين كانت قراءتي لحادثة القصر تعتريها الضبابية والغموض، ومسنودة النظرة بزخم عصر رافض وثائر على ما قبله، الحسن منه والقبيح. يقول المؤرخ محمد عبد القادر بامطرف: إن رواية حادثة القصر حمالة أوجه. هل كان القدّال الأب (الوزير) مرفوضًا في حضرموت؟ لقد دعاني غموض التاريخ وتواضع معرفتي إلى قاعة الدرس في جامعة عدن لعلّي أكتسب منها آليات البحث الصحيحة ونور المعرفة.

ولكن هل هذا القدّال الجديد شاهد عيان لزمن مضى أو طرف فيه؟ ماذا يريد هذا القدّال في عدن وجامعتها العريقة؟ لماذا أتى؟ كانت هذه الخواطر

حاضرة ومكثفة في ذهن التلميذ الغض الصغير. لم يكن يعنينا كثيرًا كيف جاء القدّال، ولكننا كنا نفهم أن حضوره كان لتصرف واع وذكي من رئيس قسم التاريخ وعميد البحث العلمي والدراسات العليا بجامعة عدن وقتئذ، فقد حرص هذا الرجل على استقدام ثلة من علماء التاريخ لإلقاء محاضرات لطلبة الماجستير، وللأمانة والتاريخ نقول إن القدّال كان هدية علمية من الأستاذ الدكتور صالح علي باصرة عندما كان متوليًا المناصب السابقة.

وبمهنية الأكاديميين ومثاليتهم حاول واجتهد القدّال في تقديم عصارة خبرته البحثية والمعرفية. كانت المحاضرات مفتوحة على مصراعيها وفيها من روح المحاورة أكثر من كلاسيكية المحاضرة، وفهمنا مما أراد أن يقوله أن رسالة التاريخ عميقة وشاقة وأن أكبر ظلم للتاريخ سرده السرد البليد، وأن حقه علينا أن نفكر فيه وفي حركته وملابساته ونحكم عليه إن استطعنا الحكم. والقدّال يقدم بضاعته بأسلوب سلس جميل وكلمات معبرة وألفاظ دالة وبلهجة لذيذة.

ما زالت ثنائية الدم والعلم تحلق في المكان. ولكن القدّال الأخير في موعد مع القدر، إذ ذهب إلى حضرموت مطاردًا بهذه الثنائية التي تكاد لا يظهر لها مخرج في الأفق القريب. وحقيقة الأمر أن القدّالين لم يكونا غريبين عن حضرموت وأهلها رغم الفاصل الزمني بين حضورهما القديم والجديد، فكلاهما ارتبط مع حضرموت بالتاريخ والوجدان والعشرة. لقد قدّم القدال الكبير الكثير لحضرموت وقابلت حضرموت ذلك العطاء بالوفاء وشرفته في كتب التاريخ.

أما القدّال الجديد فقد جاء حاملًا رسالة التاريخ وحنينه، وأثمر وجوده في حضرموت بالدفع والتحريك لمشاريعه البحثية المتعلقة بتاريخها. يقول القدّال في مقدمة كتابه (الشيخ القدال باشا معلم سوداني في حضرموت) ما يلي:

"...ثم تشاء الظروف أن أذهب للعمل في كلية التربية بالمكلا حضرموت وهي المسرح الذي شهد أهم سنوات سيرته (والده). واعتبرت أن تلك الصدفة هيأتها نوايا الشيخ القدال فانفتح المجال أمام هذه الدراسة"

كنت عندئذٍ مسجلًا رسالتي للماجستير وقد كانت سعادتي غامرة بقدومه إلى المكلا، ويبدو أن نوايا القدال الأب وصلت وحلقت في أكثر من مكان. ولم يعد الأمر يحتمل عناء الاتصال ومقدماته، واختبار النوايا وتوجساتها، فالصداقة العلمية تعززت في قاعات الدرس في عدن ومكتباتها وتحولت في المكلا إلى حميمية عندما تجردت من رسمياتها المقيدة إلى شراكة وتعاون علمي، فكلانا في هم البحث تاريخ، ولكنني كنت في حاجة له أكثر من حاجته لي. حصلت منه على آلية كتابة المعلومة التاريخية، ومن خلالي عرف بعض مواطن هذه المعلومات، وأحيانًا يكون القدّال مصدر المعلومات عندما تتوافر له بعض المصادر التي لم أستطع الوصول إليها أو العثور عليها.

ولعله من المناسب في هذا التأبين الوفي أن نستعرض جوانب شخصية مضيئة من سيرة هذا الرجل الذي أحبنا وأحببناه. كانت لقاءاتي بالقدّال في مدينة المكلا بمعرفة وتشجيع أستاذي المشرف الدكتور أحمد بن بريك، وكان القدّال

بمثابة المشرف المساعد ولكنه في الواقع أسهم بفعالية المشرف الحقيقي من خلال قراءته فصول الرسالة كلها وكتابة ملاحظاته. والأجمل والأهم في الأمر أن أستاذنا القدّال كان يفعل ذلك تطوعًا، ولم يدر في خلدي ولا في خلده أن ذلك ربما يتطلب حقوقًا مادية من الجامعة، والأغرب من ذلك أنني عندما أتأخر في الاتصال به حياءً وشفقة كان يتصل معاتبًا!!

وخلال مدة الدراسة عاد القدّال مرة أخرى إلى عدن وظل الاتصال مستمرًا. كل لقاءاتي في المكلا أو عدن كانت منسقة هاتفيًا، وفي كل مرة يتحقق الوعد باللقاء بحسب الساعة التي يحددها. تفاجأت مرة عندما سألني عن خطة تحركي لبحثي الجمعي للمادة في عدن فقلت له: إني ذاهب لمركز البحوث التابع للجامعة للاطلاع على تاريخ اليمن وما يخص بحثي في الموسوعة البريطانية ...Records of Yemen فاتفقنا على تحديد موعد للذهاب معًا حتى يسهل مهمتي خاصة أنه يعرف أن إلمامي باللغة الإنجليزية يقارب في حينه مستوى الوسط.. في المكتبة كنا نتصفح معًا المجلدات وكان رَحِمَهُ اللَّهُ تتدفق منه حماسة الشباب ويتجلى فيه إخلاص العالم وصبره وتبرز مشاعر الأبوة الصافية بلا ضجر ودون منّة. إنه مشهد لن أنساه.

عندما ترجم أستاذنا كتاب (حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها) للمؤلف (فان در ميولن)، جاءتني هدية كتاب الرحلة الثانية لهذا المؤلف باللغة الإنجليزية، وكانت نسخة نادرة، لهذا شددت الرحال إلى القدّال في عدن وقلت له: إن من المناسب - وقد خبرت أسلوب المؤلف - أن تستأنف ترجمة هذا

الكتاب. وطلبت منه أن يحتفظ بنسختي حتى لا يُفسد التصوير بعض الأحرف والكلمات. عندما ترجم الكتاب وطبع أرسل لي نسخة هدية وعندما ترتب لقاء جديد به كان هناك ترحيب إلكتروني، فكانت لفظة القدّال يرحب بكم تدور على شاشة الكمبيوتر، كان يدرك رَحِمَهُ اللَّهُ أنني قادم معاتبًا وربما مغاضبًا، فأراد أن يمتص بعض ا توقع وظن.. لحيظات يسيرة وأظهرت عتابي إذ لم يشر إليّ من قريب أو بعيد بشكر أو فضل وسوغ هذا أن هناك خطًا طباعيًا وأن عنوان الكتاب المترجم ليس كما ترجمه فعلًا، وأنه ناقص وأحضر نسختي الإنجليزية.. بعد ذلك صدقته ولكن ظل في الخاطر شيء. والآن أشهد الجميع على نفسي أنْ ليس في الخاطر إلا التقدير والذكر الحسن وهذه الكليمات بعض من ذاك.

استمرت الرعاية القدّالية إلى مرحلة المناقشة وقبيلها وكان الوسيط بيني وبين عمادة كلية الآداب وقسم التاريخ واستلم بنفسه النسخ المعدَّة للجنة المناقشة. وقد تم الاتفاق على تحديد موعد مناقشتي وزميلة أخرى في يوم واحد، وقد سمعت مصادفةً هذه الزميلة تقول: إنها تريد تأخير يوم المناقشة إلى أيام قادمة، ولكن القدّال أصر على التقديم شفقة عليَّ من كلفة الإقامة في عدن. كان الرجل يتحرك بصمت وإخلاص، بعد المناقشة وعند احتضاني للقدّال فقط بكيت.

من ظريف ما قاله لنا إن الباحث أو مؤلف الكتاب يجب عليه - رحمةً بالقارئ- توضيح موضوعه في السطور الأولى، لعله يموت في أثناء قراءته للصفحات الأولى أو قبل أن يفرغ من صفحاته الأخرى..

هل قال القدّال كلمته قبل الرحيل؟ أظنه قال الكثير ودفع في بعض المواقف ثمن تمسكه بهذه الكلمة! ولهذا من حقه على الخرطوم وعدن والمكلا وحيثما حل وأحب أن يذكر وتحفظ كلماته وتقدر مواقفه، وأن يطلب الجميع من الله له الرحمة.



رابعًا:

حكايات مهجرية

خالي في طريقه إلى خاله

انتصرت الإرادة الهندية سنة ١٩٤٧م، وخرج البريطانيون من الهند بعد أن وضعوا كعادتهم بذور الفوضى والانقسام. وتلاشت الكيانات السياسية الصغيرة، وانقسمت الهند إلى جمهوريتين باكستانية بأغلبية مسلمة، وهندية بأغلبية هندوسية. مثل المهاتما غاندي المثالية الوطنية الهندية، بينما مثل كل من محمد علي جناح، وجواهر لال نهرو الواقعية السياسية.

وما يعنينا من هذا الحدث التاريخي والسياسي المهم، أن هذه التداعيات أثرت على النفوذ العربي، والامتيازات في الإمارات الهندية المسلمة، ووضعتهم هذه الأحداث أمام خيارين لا ثالث لهما: الأول، العودة إلى أرض الوطن والتغني بمجد كان وانتهى، والثاني البقاء في الهند بقسميها مواطنين عاديين. وهؤلاء عليهم الصبر على محنة الهند عندما اشتعلت فيها الفتنة بين (الإخوة) الهنود مسلمين وهندوس والتي سالت على إثرها شلالات من الدماء البريئة، لم ينتصر فيها أحد ولكن ما تزال جراحها العميقة في الوجدان الهندي.. خالي في بداية الطريق وقصته مع خاله لم تبدأ بعد..

(الهند فيها الهناء وفيها المنى) هكذا قال الشاعر الكبير حسين المحضار، ولكن الأجداد، عرفوا ذلك قبل أن يخلق شاعرنا بآماد. ومن أجل الوصول إليها ركبوا السفن وجاهدوا جهادًا، وعاد منهم من عاد. كانوا تجارًا وأهل دعوة وجنودًا، بخاصة في الدويلات الإسلامية ومن أهمها الإمارة في حيدر أباد. كان ضمن هؤلاء الجنود خال خالي، الذي هاجر إلى الهند في العقد الثالث من القرن

العشرين، وساعده على ذلك انتماؤه لقبيلة نهد الحضرمية المعروفة. ولأن القبائل هم حملة السلاح في حضرموت وقتئذ، فقد كانوا مشروع مقاتلين بالتنشئة، وهيأهم ذلك، مع حاجة الإمارات الإسلامية للجنود العرب في أن تتوفر لهم فرص العمل والإقامة بسهولة.

رغم جانب السطوة التي مثلها الجنود العرب تجاه أهل الهند، وتجاوزات البعض منهم، لم تحدث أحداث كبيرة بعد استقلال الهند تنم عن الانتقام تجاه هؤلاء الغرباء، وهذا ما يجعلنا نضع في الميزان المثل الحضرمي القائل: "ما في الرز قوّة وما في الهندي مروّة". صحيح أن المثل لم يأت من فراغ، ولكن هل المروءة حكر عربي تاريخي؟؟ ثم من حقنا أن نتعجب مع من يتعجب من المروءة العربية التي تختفي عندما يغضب الحكام العرب على بعضهم البعض، وعندما يدفعهم الغضب وحماقته إلى الطرد الجماعي للأبرياء من طلاب العلم، والرزق، والمشهد في وطننا العربي ليس ببعيد!! أما الرز فهو قوي، بل سيد المائدة العربية، والغريب أنه يزيد سعره إذا دال (قَدُمَ)، ويصرف لجلبه الأموال، ولا يأتي في كل الأحوال، وسبحانه مغير الأحوال.

خال خالي وأسرته آثرت البقاء في الهند الهندوسية. وفي الوضع الجديد انغمست الأسرة في رحلة الكفاح من أجل العيش الكريم، وأسهم ذلك مع ضعف الاتصال بالوطن الأم لتوقف خط الهجرة، وأسباب أخرى، إلى أن تقطعت السبل بين المهاجرين وذويهم. ولكن ظلت الاتصالات مستمرة في حدها الأدنى وكان جيل (الولايتية) أي المولودون في حضرموت أكثر حرصًا على تتبع أخبار

الوطن، ويبعثون لمن لرسائلهم في سهن. ولكن توالي السنين نجحت حتى مع هؤلاء في تفتيت عرى الحنين.. ما يزال خالي في الطريق.

كتبت على خالي خطًى إلى الهند مشاها ومن كتبت عليه خطًى مشاها، فقد قدر عليه المرض أن يشد الرحال إلى الهند بحثًا عن العلاج، وكان مسنودًا بدينار جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية السابقة، الذي ظل صامدًا جلدًا أمام الدولار الأمريكي، رغم فروق العافية بين ذويهم!! واستغل الدينار انكسار الروبية الهندية التي دللته بقولها له بالهندية (نمستا) أي بالعربية مرحبًا. ثم يجد حامله - الدينار - فرصة للعلاج والدراسة والسياحة ولكن إلى حين.

استكمل خالي العلاج في بومبي، وكما رتب لنفسه بعد العلاج، زيارة خاله الذي يسمع عنه ولا يعرفه، وكان عليه للوصول إلى هدفه الذهاب أولًا بالقطار إلى مدينة حيدر أباد ذات الأغلبية المسلمة، ثم يستقل منها سيارة (باص) للوصول إلى القرية التي يسكن فيها خاله.. خالي يتحدث اللغة الإنجليزية، ولكن بالقدر الذي يمكنه من تصريف الأعمال!! ولعشق الهنود للغة الإنجليزية سهلت أمامه الكثير من ضرورات التواصل.

الآن خالي في طريقه إلى هدفه الأخير، معظم سكان الباص من القرويين لا يجيد أكثرهم اللغة الإنجليزية، سائق الباص في بداية الرحلة هز رأسه يمنة ويسرة دليلًا على معرفة الهدف، فهو قبل المحطة الأخيرة، ولكن من يضمن بقاء سائق الباص وأمانته في براري حيدر أباد.

شعر خالي وكأنه خارج السيطرة، ازداد قلقه بعد مغادرة أكثر الركاب. وبينما فتح الشيطان له ألف باب، لمح خالي أحدهم يضع في فمه الشمة أو (المضغة) على الطريقة الحضرمية، كان مثل طوق النجاة، لم يُضع خالي الوقت وسقط بنفسه أمام غريمه، وتهللت أساريره عندما رد الغريم السلام بلهجة عربية ونكهة حضرمية. انتهت مشاكل خالي ومخاوفه، فجار السفر هو جار خاله وصديقه (ورب مضغة خير من ألف ميعاد).

وصف خالي مشهد اللقاء قائلًا: "في قرية خليط من الهنود والعرب يقع بيت خالي، وهو بيت متواضع أقرب إلى العريش، وبعد أن تجاوزنا شيئًا يشبه السور، وجدت العجب العجاب، وظننت أنني ما أزال في أرياف حضرموت، فالرجل المسن الجالس القرفصاء ليس فيه من الهند إلا أنه ساكنها، لفَّة العمامة التي على رأسه وجلسته (بالحبوة) العربية الحضرمية والنارجيلة (المداعة) أو (الرشبة) الخشبية، وملبسه، وطريقة لبسه، ولهجته البدوية الأصيلة، كل ذلك يلغي التصديق أن الرجل غادر حضرموت قبل أكثر من خمسين عامًا، ولولا أنني تحسسته – هكذا أكد خالي – وعرفته، لقلت: إنه رجل قدم من حضرموت قبل خمسة أيام!"

عاد صديق الباص إلى بيته، واختلى خالي مع خاله، وتحاكيا في قصة السفر، وسفر الطريق...



جدتي.. ودموع بأثر رجعي

واضحة فرحة الطفل ذي الثالثة عشرة من العمر وهو يخطو خطواته الأخيرة استعدادًا للسفر إلى إندونيسيا، فقد بعث له والده يحثه على القدوم إليه. صباح يوم الرحيل كان (مبارك) يودع آخر أصدقائه.. وقبل أن يغادر وتبدأ رحلة ثمانية الأيام مشيًا على الأقدام إلى (بندر) المكلا التفت إلى والدته الصامتة وإلى أخيه الصغير وكتم فرحته.

أما جدتي فقد لفّت يديها بالساق وأيقنت أنه الفراق لهذا لم تقو على قبلة العناق.. كان قد مر على مغادرة زوجها سبع سنوات عجاف، وسمعت أنه تزوج، وهناك حيث الخضرة والماء كون له أسرة جديدة، ولن يعود، فالسفر بعيد والمسافة طويلة وحضرموت قاحلة رتيبة. ولكنه لم ينس ولديه وابنته الكبرى فكان يرسل ما يسد الرمق ويجود إذا جادت عليه الأيام، وأنى للجود أن يعوض الجيد ولكنها إرادة الله!

ووسط ظلمة الفراق وغصته كانت هناك بارقة فرح تشق طريقها وسط المحيط وعلى أطراف البحار، إنه الابن البكر قادم في رحلة تبادل كتبت بماء الدموع وأحرف القدر. ولكن (مبارك) لا يزال صغيرًا كيف له أن يتجاوز المحيطات اللعينة والبحار الرهيبة ثم هل يسعدهما الحظ ويلتقيان؟؟

وكما هاجر الأحباب وفلذات الأكباد هاجرت جدتي.. نعم هاجرت ولكن في داخل أعماقها وضاقت الأرض عليها بما رحبت. ثم أعلنت الحرب على

أنوثتها وانتصرت، وضغطت على ملامحها حتى ذبلت، ولكنها لأولادها أخلصت وتفانت، ولنازلات الزمان صبرت ومن غدره احتسبت.

لقد نسيت جدتي الزوج والزواج ولكن (مبارك) لا يزال هناك والحرب الوحيدة التي خسرتها هي أن تنسى مبارك لعل الأرض الغريبة لا تعجبه لعل شوقه لأمه يسحبه لعل.. لعل.. واستمرت (لعل) تلاحق جدتي. وبين فينة وأخرى تحضر (لعل) عند جدتي، وأكثر ما تحضر عندما يشتد الليل ويهجع الناس.. الكلاب تنبح.. (لعل).. الأبواب تهتز (لعل).. أصوات الرصاص البعيدة (لعل).. ويمعن الليل في الاشتداد وتخور أعصاب جدتي ثم تجهر بعدائها المؤقت تجاه (لعل) التي لم تصدق معها ولو مرة واحدة. وفي الوقت المناسب تدرك (لعل) حدودها وتغادر بينما جدتي تنهار نومًا.

ومضت خمس وثلاثون سنة، جدتي تستعد للرحيل الأخير، كانت مصرة على أن تسبغ الوضوء قبل الصلاة كعادتها القديمة وعندما ألاحظ أخي الكبير ووالدتي تسند جدتي إلى مكان الوضوء أعرف أن إصرار جدتي انتصر. لم تكن خائفة من الموت. كان عمي الأكبر يعاودها في بيتنا، لقد خسرت مبارك!! وفقدت ابنتها قبل ثلاثين عامًا بعد ولادة متعسرة، ولكن كان عزاؤها في أحفادها الذين ملأوا حياتها صخبًا وبراءة. لم تتعب جدتي في رحلة الوداع كما تعبت في رحلة الحياة. وفي مقبرة الشيخ يعقوب ووريت الثرى.

العم مبارك عاد إلى الوطن!! ولكن بعد ما يقارب العشرين عاما من رحيل

والدته وأكثر من نصف قرن منذ "رحيله" الأول. ها هو حلم جدتي القديم حاضر بيننا ولكن بدون جدتي!! لهذا لم يمض وقت طويل حتى أحببناه لأنه حلمها!! وذات يوم وباستحياء طلب مني أن نزور قبر جدتي. كان الأمر بالنسبة لي زيارة عادية وإسقاط واجب بل سألت العم مبارك سؤالًا فضوليًا مغلفًا بالعتاب وهو: لماذا لم تفكر في زيارة والدتك؟ ألم تشعر أنها حلمت وتمنت هذه الزيارة؟ كان الجواب السريع متوقعًا.

نحن الآن تجاوزنا باب المقبرة، لا نعرف على وجه التحديد قبر جدتي ولكننا سلمنا على الجميع وترحمنا عليهم، أما عمي فقد غاص في الزمن وتدفق الماء من عينيه، ثم انتقلت عدوى الدموع إلى جاره وإذا بي أستحضر محطات الفراق. ثم سقطت كل (لعلاها) على رأسي وانتحبت، وفي لحظة واحدة عظمنا لبعضنا البعض الأجر، وغادرنا مقبرة يعقوب واجمين...



عندما بكت حبيبة

ركب أجدادنا البحر والمحيط واتجهوا شرقًا وغربًا يحملون رسالة الحياة والخير.. نعم هاجر القسم الأكبر منهم لطلب الرزق، ولكن بسلوكهم الخاص وأدبهم الجم أرسوا ثقافة سواحل المحيط الهندي الحضرمية، بنكهتها الصوفية. وانتشر الإسلام أو تعزز بهم. وكانت ثقافة الآخر موضع احترامهم وتفاعلهم المرن.

كانت الصومال أحد المهاجر التي ألقى فيها المهاجرون اليمنيون عصا الترحال جاؤوها شعثًا غبراً لا يحملون ما يبيّن هويتهم خلا قرابة الجغرافيا وأخوة الإسلام ووجدوا في الصومال الكبير حضنًا أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وتدور الأيام وتتغير الأحوال وتضيق الأرض بأهلها. ها هي أرض الخير ترد إلينا بضاعتنا وجزءًا من بضاعتها..

حمل الفارون مأساة وطن كان اسمه الصومال. من بين هؤلاء (حبيبة) امرأة في منتصف العقد السادس من عمرها بدأت مأساتها عندما أبى إخواننا الصوماليون إلا أن يتعاركوا ويدمنوا التعارك، وعندما ارتد الساسة منادين بأعلى صوتهم (وا قبيلتاه) ونسوا أو تناسوا نداء وطنهم الخالد (وا صوماله) ليعود الصومال إلى ما قبل دولة القبيلة وربما أبعد من ذلك.

ولكن لماذا غادرت حبيبة وطنها؟ وكيف طاوعها قلبها وتحركت أعضاؤها وهي تفارق فلذات أكبادها؟ ثم لماذا لم تتراجع عندما سمعت صراخ طفلها الذي لم يتجاوز السنتين؟ هل ماتت أمومتها؟ أم هي كالحجارة أو أشد قسوة؟

أرجوك عزيزي القارئ لا تظلم حبيبة قبل أن تعرف ولو نتفًا من حكايتها.

لقد عاشت حبيبة في وطنها أكثر من مستورة، ومصدر نعمتها ما يملكه والدها من أموال وأعمال. وعندما اختفت دولة قبيلة زياد بري اختفى النظام وانعدم الأمن وتسلق المجرمون الدور وأعملوا فيها النهب والقتل.. حمل والدها وأشقاؤها السلاح للدفاع عن شرف العائلة قبل مالها وفي جولات الدفاع الشريفة سقط الوالد شهيدا وسقط الأشقاء وشاهدت حبيبة مصرع القوم.. في الدهاليز سكت الأطفال واختنقت الدموع وماتت الرغبة في الحياة، أما الأشاوس فقد اكتفوا هنا بالغنيمة وكانت أهم وأكبر من أن يفكروا في غيرها..

عملت حبيبة في عدد من بيوت مدينة المكلا، كانت أمانتها وعزة نفسها وإخلاصها في عملها موضع تقدير من عرفها. نسجت الأيام علاقة صداقة خاصة مزينة بمشاعر إنسانية نقية بين أم محمد وحبيبة. كان بيت الأولى متنفسًا أمينًا لعواطف جياشة ومرفأ لدموع لا متناهية.. لكم عبرت حبيبة عن شوقها لعائلتها وبخاصة أمها وطفلها الصغير. لقد أنست السنين حبيبة ما قدر لها أن تنسى ولكن تفاصيل يوم الفراق الكئيب ظل يلازمها في كل الأوقات.. إن حبيبة هي المصدر الرئيس لبقاء العائلة فوق مستوى الفاقة. كان إلحاح والدتها للعودة يطاردها ونداء الأمومة ومرارة الغربة يدفعها إلى حسم صراعاتها الداخلية لصالح قرار العودة المؤقت، ولكن طريق الصومال كلها نوف..

في يوم جديد وبينما حبيبة على وشك إفراغ شحنتها الكلاسيكية جاءت

إحداهن بالخبر المشؤوم! لقد ماتت أم حبيبة! فانفجرت الدموع.. دموع الصومال كله..

في أثناء هذه اللحظات تداعت أمامي الخواطر مسرعة وذهبت إلى زمن تفاؤلي بالساسة الصوماليين عندما كنت أظن أن مساحة الخراب وغزارة الدماء المسالة ستجعل الجميع يعلو فوق كل المصالح.. ثم خطر لي منظر أعضاء البرلمان الصومالي المؤقت وهم يتعاركون بالكراسي في أحد اجتماعاتهم خارج وطنهم فأجهشت بالبكاء ولا أدري أبكيت على أم حبيبة أم على الصومال...



ضحكت صفية وبكت

لم تصل صفية إلى مرحلة الخطر! فقد بلغت السابعة عشرة من العمر، وهذا المبلغ جعلها في منتصف الطريق، وأنقذها من الوقوع في شبح العشرينيات وما بعدها، وهي محطات تقرب إلى خانة العنوسة إذا لم تكن العنوسة نفسها.

تناثرت أسرار خبر زواجها رويدًا رويدًا، إذن الفارس المنتظر من أقربائها، ومن بلدتها، ولكن لا بد عليها أن تتظاهر بعدم الدراية، وأن تتلقف الكلمات المسموح لها بالتسربل بالحياء، حتى يلقى (السر العميق) جملة وتفصيلا.

لا مجال للكتمان، الفارس المنتظر في عجلة من الأمر، كان يخطط أن يكون فارسًا، ولكن في مكان آخر بعيدًا عن بلدته الحضرمية وهو كأترابه سلم أمره للأيام في البلاد الغريبة لتفعل به ما تشاء ليعود حلمًا حقيقيًا إن سمحت تلك الأيام ليبني بيتًا ومصلى قريبًا من بيته، ومثواه الأبدي. لقد ضاقت البلدة بشبابها عندما تمردت أحلامهم وضاقت، وعندما...

فشلت أحشاء صفية بعد سبعة أشهر أن تضع ذكرى للرجل المسافر كما ألح عليه ذووه قبل أن تحين لحظات الرحيل، لم تكن خائفة كثيرا، سيرحل ويعود كما يفعل الرجال ولن ينساها، لقد أعطته كل شيء، كل شيء.. وستنتظره...

جاءت الرسل والأخبار من الأرض البعيدة، لا تستطيع وبعد عشر سنين من الانتظار أن تكشف عن لهيب النار، ويدرك الأخ البار بعض الأسرار وحاول أن يقترب ويخفف من الأوار، وقال لصفية:

- إنه نوى العودة، ولكن مشاكل عديدة حالت دون نفاذ القرار، وقال ما قال...

أطرقت وقالت في صدرها: إذن نوى، وانسحبت خجلًا، ثم رفضت حاجة دعتها إلى المرآة، إنها لا ترى ما فيها فحسب بل تشعر به، فهي كبستان أينعت ثماره وحان موعد قطافه.. ثم استعاذت من الشيطان الرجيم، وتركت أمرها للرحمن الرحيم.

الخالة صفية بدأت تخفي مداعبات الزمان في شعر رأسها، كانت تخشى أن يصل (الحبيب) ما يسوؤه منها، تريد أن يراها كما تركها!، وتمضي الخالة صفية.. يدفعها إلى الحياة شراع الأمل، وإن بدأت تئن مؤخرا من ثقله. صفاء قلبها جعلها تشارك وتجامل في أفراح أبناء أترابها، وينقبض قلبها لأجلهم، عندما تشعر أن قصتها بل مأساتها ربما تكررت في غيرها من جديد.

لم يخف الزمن إعجابه بها، بل أثنى على صبرها، ومسح بيده البيضاء على رأسها حتى اشتعل شيبًا. قبلت الخالة صفية المزاح المكشوف مع الزمان، ثم ما لبثت أن تعززت الصداقة بينهما، ولكن الزمان آثر التحرك ببطء، وفي الخفاء، بينما جهرت وبشجاعة بهداياه وبصماته.

كان لا بد أن تذهب إلى مكان لطالما تمنّت أن يكون مع الخليل البعيد، وعندما عز الحبيب لبى الحفيد، وذهبت إلى بيت الله الحرام طالبة من الله حسن الختام.

الجدة صفية ذات السابعة والستين تمازح النساء الصغيرات، بينما انشغلت الكبيرات بخبر الممات ثم تجرأت إحداهن غير مكترثة بالعواقب والتبعات وقالت:

- صفية لقد مات زوجك وعليك أن تكفي عن المزاح والكلام المباح وادخلي مثل النساء العدة لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام من الصباح...

أما صفية فقد ضحكت ثم بكت.. وضحكت وضحكت حتى بكت، ثم بكت وبكت حتى بكت...



بشرة سوداء وقلوب بيضاء

حدق في مدى البحر البعيد الواسع بانبهار، هذه أول تجربة له في ركوب البحر، تأمل السفن القادمة والمستعدة للرحيل، ترى كيف لهذه السفن الشراعية البسيطة أن تمخر عباب هذا البحر الرابض، ابن المحيط الغامض. ولكن ركوب البحر والوصول إلى الأرض المجهولة أهون من تلك اللحظات قبيل الرحيل من بلدته التي تقع وسط الوادي الكبير واحتضانه لولديه اللذين لم يتجاوز أكبرهما أربع سنوات. تتدافع الأمواج أحيانًا بحنق ولكنها تتكسر وتمتثل لشروط السواحل وقانون البر. السيد عبدالقادر كالأمواج التي عرفها من قريب تنتابه حالات من مشهد تلك الإيقاعات الخالدة، لكنه يدفعها برفق.

يدرك عبد القادر ما يدور في قرارة نفسه، نعم غادر بلدته بحثًا عن فرصة جديدة في الحياة تكون سندا لحياته في بلدته عند عودته كما يفعل الآخرون. ولكن أحلام الثراء لم تكن قريبة من هواجسه وتطلعاته. تلقى السيد عبد القادر تعليمًا دينيًا لا بأس به ولكن لا يساعده في احتلال مركز مرموق أو متقدم عند أقرانه الذين تعمقوا في العلوم الدينية وتفرغوا لها. ولأن تسعة أعشار الرزق تكمن في التجارة فلتكن التجارة...

حرص عبد القادر أن يحسب تاجرًا من الشطار لا من الفجار، كان سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى، تطلبت تجارته البسيطة الانتقال إلى قرى داخلية بعيدة عن موانئ السواحل الشرقية الأفريقية. تواصل مع أسرته الصغيرة بحسب التساهيل

والفرص. كونت رحلته الداخلية المارة بعدد من القرى علاقات طيبة مع السكان القرويين عززها تعامله البسيط، وخفة روحه. وبمرور الزمن صارت استضافته من الأمور العادية، فما إن يفرغ من الإمامة بالصلاة المفروضة حتى يسحب إلى مكان المضيف في مؤامرة لا دخل له فيها.

وهكذا كبرت عائلة عبد القادر، أما عائلته الصغيرة فلم يزرها إلا بعد ست سنوات من هجرته الأولى، لم يطل به المقام في بلدته. كانت ضغوط السفر أقل حدة مما كانت عليه في رحلته الأولى، اختلفت الدوافع، إنه الآن يهاجر حاملًا دعوة ورسالة عظيمة أيقن أن أهله البعيدين يستحقونها، بابتسامة هادئة قابل لوم اللائمين وتبرم المتبرمين.

كانت ساعة فراق انفصل فيها عبد القادر عن ذاته وملذاته ومضى يهيم في لذة منفعة الآخرين، في القرى المتناثرة سحبته السنين وسحبها، ثم قنع بالعيش في قرية بعيدة نائية يعلم الصغار ويؤم الكبار، يشاركهم أفراحهم وأحزانهم، يقضي بما يعلم بين المتنازعين، حانوته الصغير يفيض عن متطلباته البسيطة..

أما أسرته الصغيرة فقد سارت بها السبل إلى مرافئ هادئة، الابن الكبير مواطن في دولة الإمارات العربية المتحدة يحتل موقعًا لائقًا.. لسنوات طويلة نازعته مشاعر من اللوم الخفي من ذلك الوالد الذي هرب من مسؤولياته الأسرية وذهب إلى ما تشتهي نفسه، ومن جانب آخر كان يشعر بوخز الضمير لعدم بذله الجهود الحقيقية لمعرفة مكان والده ومصيره، وفي ساعة من ساعات النور اتخذ

(أبو عبد القادر) القرار الصحيح.

لم يكن الأمر هينًا فبعد اتصالات واستفسارات مضنية عرف أن والده حي يرزق، فقرر الذهاب إليه.. فرغ عبد القادر من الصلاة الجامعة، سلم عليه أهل القرية كعادتهم قبل مغادرة المسجد، أما أبو عبدالقادر فلم يستطع الحركة البتة، وبعد جهد جهيد رمى بجسمه المكدود في أحضان الشيخ الكبير..

رضخ السيد عبد القادر أمام إصرار ابنه في اصطحابه معه في الوطن الجديد، تفرغ الابن الوفي لخدمة والده لم يترك شيئًا إلا هيأه أو وفره له: السكن المريح والسيارة الخصوصية بسائقها، زيارة الأماكن المقدسة.. إلخ، لقد عزا أبوعبد القادر سر تفوقه ونجاحه إلى دعاء هذا الوالد الصالح، لن يسامح نفسه على تلك الظنون القبيحة إلا بمزيد من العناية والرعاية للوالد العظيم.

ومضت شهور، ودخل عبد القادر مع أبي عبد القادر في جدال طويل، لم يصدق الابن رغبة الوالد في العودة الأكيدة إلى تلك القرى البعيدة حيث لا مال ولا ولد. ولكن عبد القادر طمأن ابنه أنه سيكون وسط أهله من ذوي البشرة السوداء والقلوب البيضاء.. وبعون القادر، وصل السيد عبد القادر...



الوفاء بالوفاء

اجتمع العرب، وما اجتمعوا إلا اختلفوا، وإن اختلفوا اجتمعوا ليختلفوا. اختلافهم اجتماع واجتماعهم اختلاف.. تسمر الطرفان في مكانهما تحدثوا بعواطف نارية. ونسوا أو تناسوا جلب العقول والأبصار ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ وانتهى الاجتماع.. اليوم التالي كانت القوات العراقية تمرح في أرض الكويت وفي غمضة عين تتحول إلى محافظة من محافظات العراق، لا يعنيني متابعة خطى الظالم والمظلوم، ولا أريد إضافة هم على الهموم، وما حدث في جوهره (غشم) ولعب، مارسه الكبار، ووقع فيه الصغار.

ضجت الدنيا، وانتشرت الفوضى، وأدميت القلوب، وفرح تجار الحروب، وانتشرت ثقافة الهروب. في غياب أصحاب المال قرر (مبخوت) إخفاء سبائك الذهب والمجوهرات في مكان أمين، لهذا حفر حفرة في حديقة بيت الغائبين، ووضع الأمانة والأثقال، وقال هيا على الجبال. في رحلة طويلة عابرة للدول مشحونة بالذهول والمستقبل المجهول والجيب المنخول. تساقطت مشاهد وتوقعات غريبة في ذهن (مبخوت). لقد انتهت الكويت، وتلاشت فرصة العمل بالراتب مع الربح في عمله المربح المكين، تمنى ألا يموت حتى يعرف السر أصحاب السر.

وبينما هو في مهب الريح، اسودت الحياة في عيني (مبخوت). في الكويت الأخ العربي يقتل أخاه ورخصت الدماء، واكتظت فتاوى العلماء، هذا مع ذاك وهذا مع ذا، ساعات محدودة قذفت بأمراء. عبود صديق عمره، وقائم على

حانوته، لكن لم لا؟، فخلال أربع سنوات من الغربة تزوج عبود للمرة الثانية ولا يوجد ما يدل على ملكية الحانوت إلا شهادة عبود وأمانته، (هل عبود هو ذاك هو أو شي انقلب في عبود؟!) لعله سيتكرم في أحسن الأحوال بالشراكة، ليكن الأمر كذلك حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا..

بصدقات نبيلة وصل (مبخوت) إلى مشارف بلدته، لا يحمل إلا نفسه، وقميصه البالي، عزت عليه نفسه أن يراه أهله وناسه بالهيئة المحزنة والمثيرة للشفقة، انتظر ساعات حتى حل الظلام. كاللصوص شق مبخوت طريقه وسط الأزقة الضيقة المظلمة، ها هو الآن يلمح مدخل منزله.. ولكن كان هناك من يتتبع خطى مبخوت، فبعد أن قضى (عبود) حاجة لأهل مبخوت واطمأن عليهم رمق هذا الشبح المريب، وأرد أن يستوثق.. قبل أمتار من محطة الوصول سمع مبخوت النداء وعندما التفت وجد أمامه صديق عمره.. اغتسل في بيت صديقه ولبس قميصًا جديدًا.. وبينما كان يستعد مع هديته بالخروج كان سيل الأخبار المفرحة يتدفق إلى قلبه المجروح كالماء والبرد، وتجمد (مبخوت) بعد تلك الأيام الكئيبة الساخنة.. إذن تجارة رابحة وأموال محفوظة وحسابات مضبوطة، وصداقة ورعة، وهدية مفرحة..

وعلى مشارف الكويت امتلأت الأرض بالجيوش، الأغنياء منهم والوحوش، أكثرهم يحلم بالفلوس، وعلى الشرف العربي يدوس، وما في النفوس يعلمه رب النفوس.. وكان لا بد للكويت أن تتحرر، وهذا ما حدث،

وعاد الكويتيون.. من فرط حرص مبخوت جعله يفشي السر لصديق عمره في أثناء محاولاته للاتصال بأصحاب الأمانة، فالأعمار بيد الله ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ وفي يوم من الأيام انزاح الهم عن صدر (مبخوت)، وخف وزنه، فقد تمكن من الاتصال بأهل الأمانة، وعاد بعد أن عادت الأمانة لأهلها، ثم نام (مبخوت)، كل (مبخوت) نام...

استأنف مبخوت حياته برفقة صديقه من نقطة البداية. ولكن دوام الحال من المحال، ففي الخفاء كان هناك من يدبر التدابير ويحيك (السوء) ليقذف بمبخوت وراء البحار.. ونجحوا.. فقد وصلت له إخبارية من الكويت بأن يجهز نفسه وأهله لاستلام عمله القديم بميثاق جديد. ترك مبخوت وصية أشهد عليها ثقاة وسلمها مغلقة لعبود، وطلب منه ألا يفتحها إلا بعد الوصول..

في محطة العمل الجديد قوبل (مبخوت) بما يستحق وأكثر وسلمت له خزائن (الأرض). بينما كان (مبخوت) يبكي فرحًا الحظ العظيم، كان عبود يبكي من السخاء الكريم.



أيام من الشدة في الطريق إلى جدة

لازمت ظاهرتا الهجرة والاغتراب بنسب متفاوتة حياة أهل اليمن عبر العصور، وتعددت أسباب الهجرة باختلاف العصور والظروف، على أن القاسم المشترك بين هذه الأسباب هو بحث الأفراد أو الجماعات عن فرص معيشة أفضل، وفي حياة الناس المغادرين أوطانهم من التجارب والمواقف ما يستحق الذكر والتأمل، وما يؤمل منه الدرس والفائدة، وما نقوله قصة حقيقية خاض غمارها (الراوي) حكاها لي ذات يوم وسمعته يقولها لآخرين.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ العالم يتنفس الصعداء وسعى المتحاربون إلى لملمة جراحهم، وأما الذين لم تصلهم نار الحرب ولظاها فقد وصلهم لسعها، ومن لم يرجفه دوي انفجاراتها وصله صداها. وقد اكتوت حضرموت بنتائج الحرب غير المباشرة وعانت من تدهور في أوضاعها الاقتصادية ما عانت خاصة ما يتعلق بانقطاع تحويلات المهاجرين وتوقف الهجرة الخارجية بوصفها الرافد الحيوي للاقتصاد الحضرمي وقتئذ. ومما زاد الأمور سوءًا تصاعد حالة الجفاف التي شهدتها حضرموت في أثناء الحرب العالمية الثانية، ونتج عن كل ذلك أزمة اقتصادية خانقة عرفت في حضرموت بسنوات المجاعة، وكان لها آثار اقتصادية واجتماعية وديموغرافية مأساوية.

قال الراوي: في أثناء هذه الحرب وفي سنواتها الصعبة التحقت بمدرسة أولاد البادية التابعة لدار المستشارية البريطانية في المكلا، ومكثت فيها ما شاء الله أن

أمكث. وفي أواخر الأربعينيات من القرن الماضي كان عمري ما بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، وكانت تلك السنوات في وقتنا تعني بداية الرجولة وتلزمنا بشق طريقنا في الحياة.

وسكت الراوي.. مدينة المكلا مزدحمة بالسكان ولم تر عين الراوي مدينة بهذا الاتساع والتزاحم، النشاط الاقتصادي في الميناء يثير الآمال ويشجع على المغامرة وركوب الخطر، والمناشط الاقتصادية الأخرى محدودة. البحث عن فرصة عمل تلبي الطموحات يعد ضربًا من المستحيل، انتماؤه القبلي يفرض عليه الابتعاد عن بعض المهن داخل الوطن وقبولها خارجه. فكرة السفر كانت طاغية بل هي الخيار الشائع عند الرجال الكبار و(الصغار).. المكلا هي البوابة الجنوبية الخارجية لحضرموت.

قال الراوي: لم يكن بيني وبين الوصول إلى العالم الخارجي إلا ركوب هذا البحر، وقبل ذلك كان لا بد من التوكل على الله واتخاذ القرار وتحديد مكان الاتجاه.

ويستطرد الراوي: قررت السفر إلى المملكة العربية السعودية.. أيام قليلة ها أنا الآن على متن الساعية الشراعية. صوت الصخب في الميناء لا زال يرن في أذني، كنت خائفًا ولكنني كنت متماسكًا، تحركت السفينة باتجاه جنوب غربي، تمخر عباب البحر في تروٍّ وهدوء حتى اتخذت لها مكانًا مناسبًا بعيدًا عن الصخور وقريبًا من اليابسة بحيث كنا نحدد الملامح العامة الظاهرة منها، كان النظر إلى اليابسة مبعث الآمال والأمان في قلبي حتى أدمنت النظر إليها، كان من ضمن المسافرين

رجال ونساء وأطفال ولا أعرف إلا صديقًا من قريتي. وسكت الراوي...

حتى هذه اللحظة كانت تعبيرات الفرح كثيرًا ما ترتسم في ملامح وجهه فلعل ذاكرته استرجعت ذلك الشعور القديم الذي انتابه وهو يخوض ولأول مرة تجربة السفر البحري أو ربما أمانة السرد وتلقائيته جعلت سرده لسير الرحلة يتلازم مع بروز انفعالاته في المواقف المتعددة حسب خط سير الرحلة.

استمر الراوي في الكلام: عبرت الساعية مضيق باب المندب متجهة شمالًا.. حتى تلك اللحظة لم يعترض سيرنا أي مشاكل تذكر وسارت الأمور على ما يرام. لحظات الوصول إلى مدينة جدة تعززت أكثر في مخيلتنا وانتعشت أحلامنا الصغيرة، وكانت طمأنينتنا تزداد عندما نسمع هنا وهناك أن جدة على بعد بضعة أميال.

لبرهة سكت الراوي ولم يعد الحماس هو الحماس، وتعابير الوجه ليست كما كانت في بداية الأمر، حتى ظننت أن ذاكرته خانته ونسي بعض الأحداث...

بصوت خافت قال الراوي: على سواحل منطقة جيزان ارتطمت الساعية بإحدى الصخور البحرية الضخمة المخفية ومالت الساعية بحيث كانت المسافة بين طرف حافتها اليمنى وسطح البحر لا تزيد عن متر. استنفر النوخذة الجميع وطلب منا الوقوف في الاتجاه المقابل لإحداث التوازن.. عناية الله، وتيار بحري مساعد أعاد التوازن إلى الساعية. ثم هرع البحارة إلى (خن) الساعية لسد الثقوب التي أحدثها الارتطام.

وفي مكان ما بالقرب من مدينة جدة بدأت تسوء الأحوال، إذ سارت الرياح بشكل عكسي ومعاند ووصل غضب هذه الرياح إلى قيامها بدفع ساعيتنا إلى أعالي البحر أو إلى اليابسة، وكان بحارة الساعية يجاهدون الرياح ويحوّلون اتجاهات الأشرعة حتى تستقر الساعية في مكانها عندما عز تقدمها إلى الأمام، وهكذا صارت الخيارات أمام ربان السفينة (النوخذة) محدودة للغاية..

ازداد تركيز الراوي وظهر بريق عينيه ونظر إلى شيء ما في الغرفة وكأنه يشاهد من خلاله تلك اللحظات العصيبة. وفي هذه اللحظة فقط ذكر أنه لا يجيد السباحة على الإطلاق، وهو وإن اشتكى الزمن وما فعله بالذاكرة بحيث نسي بعض التفصيلات لبداية الرحلة فالعكس هو الصحيح هنا..

استأنف الراوي: ليوم وليلة كنا ندعو الله أن يزيح عنا الغمة ويهدّئ من روع الأمواج التي دخلت معنا في لعب قاتل ومخيف. وبعد الله كانت الأنظار متوجهة إلى ربان الساعية الذي بدا مشغولًا ومنهمكًا. وأمام خطورة الوضع قرر الربان العودة إلى الخلف باتجاه أحد الرؤوس البحرية حيث تقل سرعة الرياح، ثم أعلن تنظيمًا صارمًا لتوزيع الطعام والماء الذي أوشك على النفاد.. لمدة سبعة أيام كاملة كانت الساعية تنطلق من موقعها السابق باتجاه أعلى البحر ثم يقوم البحارة بمهارات خاصة تتعلق بوضع الأشرعة وتحريكها باتجاه يساعد على دفع الرياح لها بالاتجاه المطلوب، ولكن الرياح تأبى بشدة ولم تنطل عليها حيل البحارة ويعودون بعد منتصف النهار منهكين لعلها ترضى في اليوم الجديد، وهكذا استمر الوضع..

كان هدف الربان وصول السفينة سالمة بمن فيها، لهذا فقد توقع الأسوأ وبدأ يوزع الغذاء بحيث يكون لكل فرد (قُمحة) من الطعام (الذرة البيضاء) وكوب صغير من الماء ولمرة واحدة في اليوم. كان الأمل هو دافعنا الوحيد بعد الله في الوصول إلى بر الأمان، وتسير الرياح كما تشتهي السفن ومع كل يوم يتجدد الأمل ولكن باتجاه تنازلي حتى شعر البعض منا أن سيدنا عزرائيل (عليه السلام) في مكان ما ليس بعيدًا عن هذه الرياح العنيدة.

اليوم الثامن؛ الصحة لم تعد هي الصحة، والطعام الذي يكاد يبقي على الحياة أوشك على النفاد، الشكوى التي في القلوب بدأت تبرز صوتًا عاليًا متذمرًا، وزاد الهرج والمرج.. ثم قرر الكبار أن تترك الحرية لمن يرغب في النزول إلى البر الخالي من السكان على أن من يسعفه الحظ ويحصل على مساعدة عليه أن ينقذ الآخرين. وقد قبل النوخذة هذا الوضع على مضض بعد أن أخذ تعهدًا مكتوبًا من الراغبين في النزول من الساعية لتحمل تبعات ما يترتب عن ذلك من نتائج.

تنفس الراوي الصعداء وقال: كنت مع من نزل إلى اليابسة مع صديقي. كنا لا نزيد عن خمسة وثلاثين ولا نقل عن ثلاثة وثلاثين أي ما يقارب نصف سكان الساعية، على الفور أخذ أحد الرجال المبادرة ونصب نفسه قائدًا علينا وطلب منا أن نسير متقاربين حتى لا نتوه في الطريق من جهة وحتى يساعد بعضنا البعض في المكاره المتوقعة من جهة أخرى. ثم أشار علينا برأي صائب وهو السير بعد المغرب لعل وعسى نسائم الليل تحافظ على ما تبقى فينا من طاقة وجلد.. وبمحاذاة الساحل

وباتجاه مأمول يوصل إلى مدينة جدة أو ما قرُب إليها كانت جهة السير.

حافظ الجميع على تماسكه حتى الصباح الباكر. كنا طوال الليل نسير وآذاننا صاغية وأبصارنا شاخصة نبحث عما يدلنا على أن في القريب يسكن البشر، ولكن كل ما حولنا صامت وربما يهزأ بنا. مضينا نسير.. إرادة البقاء في الحياة تغلبت نسبيًا على الاستسلام والجوع والعطش الذي بلغ منا كل مبلغ، لم نعد نقوى على الكلام، الإشارات وسيلتنا الوحيدة للتواصل، بعد أن كنا متقاربين من بعضنا صار أولنا لا يرى آخرنا. عند منتصف النهار سقط نصفنا في منطقة معينة.. لقد خارت القوى ولم نعد قادرين على السير. يبدو أن عزرائيل عليه أن يستريح ويأخذ ما أمر به، ها هو سيدنا عزرائيل قادم في شكل بدوي.. لقد جاءت الراحة الأبدية، ولكن بالقرب منه جمل وهو عليه السلام لا يحتاج إلى جمل أو أن يتنكر في هيئة شيء آخر. صاح أحدنا: إنهم بشر.. تحركت ما تبقى من عروق الحياة وإذا بنا جميعًا واقفين مستبشرين وغير مصدقين، ولكن الفرحة ما تمت فقد شهر أحدهم السلاح علينا، وعندما سمعوا قصتنا وأننا ربما نكون لقمة سهلة لأضعف الحيوانات تركونا وشأننا دون أن يتفضلوا علينا بقطرة ماء لاعتبارين: أولهما أنه لو أعطونا من مائهم سينفد ولن يستطيعوا مواصلة رحلتهم، وثانيهما أخبرونا أن بالقرب من موقعنا هذا مركز شرطة سعوديًا يمكننا أن نتزود منه بما نريد.

توجه قائدنا برأسه إلينا ومارس صلاحياته كقائد طالبًا الاستمرار في المضي لعل الفرج قريب. استجمعنا آخر قوانا واستأنفنا المسير بخطوات بطيئة ومنهكة، لم نعد نلتفت يمينًا أو يسارًا ولم نكترث كثيرًا بقربنا لبعضنا بعضًا، الشمس على

وشك المغيب ولا بارقة أمل. وعلى تل قريب تجمعنا من غير ترتيب، لأول مرة نشعر جميعًا بالنهاية.. الشمس اختفت، جيوش الظلام شرعت تسود الفضاء رويدًا رويدًا، لعل سيدنا عزرائيل أشفق علينا وقرر أن يخفف من روعنا ويأتينا بعد نومتنا الاختيارية إلى نومة الدنيا الأبدية الإجبارية.. الظلمة في ازدياد وتكاد تكسو السماء بحلة سوداء قاتمة، توجهت أنظارنا إلى السماء أخذنا نتمتم بكلمات الرجاء والمغفرة، حاول أحدنا إعادة وضع ظهره على الأرض استعدادًا للنومة الأبدية وفي أثناء قيامه بهذا العمل أبصر نورًا خافتًا يأتي من بعيد، تروّى وجلس.. لعلها أضغاث أحلام، لعلها.. ولكن الإضاءة حقيقية، المركز.. المركز.. نهض الجميع لعلها لوثة جنون (شرعية) أصابت صاحبنا، وعندما نظرنا إلى ما ينظر إليه ذهلنا من المفاجأة، لم يكن يعنينا أن يكون مركزًا أو غيره المهم مكان لوجود الناس وبالتالي الماء.. الماء.. لا ندري من أين جاءت العافية.. ها نحن في وسط المركز السعودي ننعم بالماء والطعام ونستبشر بإخواننا الذين لم يلحقونا بأن الفرج قادم لهم مع الجنود الذين هبوا لإنقاذ المتأخرين.

بينما كان الراوي يرتشف في مخيلته ماء الحياة كنت أبحث عن قطرة تبل الريق، وإذا بدمعات صامتة لم أشعر إلا بطعمها...ثم شردت بالخيال إلى بعيد..

عاود الراوي الحديث كأنه وصل لتوه من تلك الرحلة وبمشاعر الوصول بعد العناء.. قائلًا: أجرى المركز اتصالات مع جدة. أخبرهم بنكبة الساعية الحضرمية وانتشر الخبر في المدينة وتبرع اثنان من المغتربين الحضارم أحدهما بسيارته والآخر بالطعام، وفي الصباح وصلت سيارة الإنقاذ الحضرمية وسارت

بمحاذاة الساحل حتى لمح السائق الساعية المنكوبة فأطلق عيارات نارية، أدرك الربان أن النجدة وصلته وأرسل قاربًا صغيرًا كي يحمل الماء والطعام حتى فرغت حمولة السيارة.. أيام معدودة كنا وكل رفاق رحلة الساعية في مدينة جدة نحمد الله على سلامة الوصول..



مال ما هو في بلادك لا لك ولا لعيالك

غنية مفردات الثقافة المهجرية الحضرمية، فقد تشبعت بأصالة الخبرة، وعجنت في حوض التجربة، وحملت بين جنبيها وفي أعماقها عصارة الأيام، وتدفق السنين، وتنورت بالحكمة، وامتلأت بالعبر التي نسجت خيوطها من أهوال المعاناة، وحبال الصبر، وحرارة الآهات. من حركة ذهاب السفن وإيابها، وتعرجات رحلات قوافل الجمال رسمت ملحمة الإنسان المغادر لأهله ووطنه.

(سالم) سمع كثيرًا من الأمثال والحكم، ولكنه لم يع إلا القليل. لعله قبل أن يغادر وطنه لم يعرف المال ولم يرزق بالأسرة والعيال، ولكنه أخذ قسطًا من التعليم جعله أوفر حظًا من زملائه الذين تركوا مقاعد الدرس مبكرا وانتشروا في أرض الله. لم يتأخر سالم عن قافلة المهاجرين محبةً في العلم وأهله، بل اضطرارًا لخدمة والده العجوز، ففي مجتمع بلدته عليه أن يواجه ثقافة تزدري من يقدم على الهجرة في مثل ظرفه ولاسيما أنه السند أو المعين الوحيد وآخر أهل العجوز.

وتوالت الأخبار السارة القادمة من بعيد، سالم يسمع كما يسمع الناس، ولكن مشاعره تختلف عنهم. إنه يرى السنين تتقدم بأكثر مما ينبغي وليس في الأفق ما يدل على أن (الفرج قريب) ثم بدأت أحوال سالم تتغير، لم يعد يكترث بأمور كثيرة مهمة، التقط العجوز سياسة الضغط من بعيد وبكل حنان الأبوة ومشاعرها الصادقة النقية بدأ العجوز يضغط هو الآخر باتجاه إتمام قرار الهجرة المؤجل.

لم تنطل على سالم وهو الشاب الذكي مناورات العجوز ولكنها عبرت عما

يتمناه ويجيش في صدره، وبقليل عناء استسلم لهذه (الضغوطات) ولم يقاومها ونظر إليها وكأنها التأشيرة السحرية لكل أبواب العالم، وعبور آمن وسط ثقافة كان يظن أنه من ضحاياها. سالم فهم معنى الأبوة وتضحياتها، وكان ذلك آخر درس تعلمه في الوطن.

في أرض الغربة وصل سالم سالمًا، التعليم اليسير الذي ميزه عن زملائه المهاجرين جعله يتقدمهم رويدًا رويدًا، ثم انغمس في أتون الحياة في بلاد الناس. لم يعد يربطه بوطنه سوى ذكرى شهرية عابرة عندما يرسل لأبيه ما اعتاده من مال يكفيه في أيامه الأخيرة، أسرته الجديدة هي حياته ومستقبله، كان ينتظر خبر وفاة العجوز لكي تتلاشى أوجاع ضمير تنتابه بين فينة وأخرى، أو عندما يقوم ناصحًا في تعزيز فضيلة طاعة الوالدين وسط أسرته.

في أرض الناس سعى سالم ليعيش في محيط ضيق بعيدًا عن أهل بلدته وعن همومهم ومشكلاتهم وأفراحهم وأتراحهم. لم يعد بينه وبينهم سوى قصة عجوز دنت نهايتها. ارتبط سالم بحياة مجتمعه الجديد المترف، وعاش كما يعيشون وأنفق كما ينفقون، كان يرى خطوط المستقبل آمنة أو هكذا يظن، فالأبناء يشقون طريقهم في صفوف الدرس بأفضل ما يكون، وليس هناك ما يثير الخوف في مجتمع عربي مسلم معزز بخير وفير في ظاهر الأرض وباطنها، ثم إن العجوز القديم مات بعد أن تم تلبية رغبته الأخيرة في استلام ما يخصص له لثلاث سنوات قادمة.

ودارت الأيام.. وقبل أن تنتهي هذه السنوات الثلاث ضاقت الأرض على سالم وأسرته بما رحبت، ولم يعد لهم عاصم في أرض الغربة إلا ما رحم ربك، وكان لا بد أن يشد الرحال.. وصل سالم إلى بلدته، لا يدري لماذا عاد إليها، إن قصته معها انتهت فعليًا منذ أن غادرها وكان آخر الخيوط التي تربطه بها قد انقطع قبل حين، إنه لا يعرف من هذه البلاد الواسعة (الغريبة) إلا هذه البلدة. هل في ما صار له غضب من الله؟؟ يدرك في داخله أنه غادرها دون رضا والده ثم إنه لم يكلف نفسه ولو مرة بعد غربته زيارة أبيه، وفي صمته الحزين دفعته رغبة لزيارة قبر أبيه، ولكن هناك بعض الناس قادمون، إنهم أبناء بلدته الذين لا يتذكر منهم إلا من زامله في أرض الاغتراب، سالم يدرك أنه غير مرغوب فيه فقد ابتعد عن بعضهم في حين كان يستطيع مساعدتهم، إذًا هو مهرجان الشماتة وزفة الساخرين، وعليه أن يدفع الثمن..

سلم القادمون على سالم وأسرته بحرارة ظاهرة وحفاوة بالغة، كان سالم يظن أن في اللقاء استدراجًا أوليًا للمسرحية الكبرى التي تنتظره. لا شك أن حظه من مشاهدها سيكون قنابل من اللوم وسهاما من التسفيه. أما القادمون فقد عادوا أدراجهم وخلصوا نجيا، ثم تشاوروا في كيفية إيواء سالم وأسرته فبيت أبيه لم يعد صالحا للسكن.

تحرك سالم بوجوم، وحتى عندما استقر وأسرته في ما رتب له كان سالم صامتًا في انتظار المشهد الأليم، ثم أكدت له الأيام أن ظنونه وتوجساته مجرد أوهام، فالتحايا كانت حقيقية والترحيب من القلب، والمؤازرة مخلصة بلا أذى

أو من. في رحلة المغادرة الأولى من بلدته تعلم سالم من أبيه درس الأبوة الصادقة، وعندما عاد إليها شعر لأول مرة في حياته بحضن الوطن المكين، وتذوق حلاوته.

وسكت الروع عن سالم وعاد الهدوء إلى نفسه.. في البلدة هناك من قدم يبحث عنه، ويحمل إليه الخبر الجديد. كان سالم يسمع ولا يرى، فقد اغرورقت عيناه بالدموع...

حرص العجوز أن يستبقي جزءًا مما يرسل إليه في بناء بيت جديد صغير بدلًا من بيته القديم وليكون بيتًا لابنه عند عودته، ولتلبية هذا المشروع الأبوي الأصيل حرص العجوز أن يعيش بأقل القليل، وعندما استشعر بدنو الأجل طلب من ابنه إرسال دفعة ثلاث سنوات وباع البيت القديم بشرط أن يبقى فيه إلى يومه الأخير في هذه الدنيا. دخل سالم وأسرته بيتهم الجديد، ووجد فيه متاعه القديم قبل مغادرته بلدته، ووسط هذا المتاع وجد مبلغًا يسيرًا من المال تعمد العجوز ادخاره تحسبًا للزمن.. وكأنه بلسان حاله يقول: **"مال في بلادك لك ولعيالك"** وكان ذلك آخر دروس العجوز لابنه وأسرته.



والرزق أحيانًا يحب (الجنبية)

(قتل تحت حصن)، (الرجال تطحن وتطعن)، (قع دَرَّه تأكل سكر)، (كل قرصك وادخل خلصك).. في ثنايا الموروث الحضرمي الكثير من مثل هذه الدلالات الراسخة في الوجدان الجمعي، والمعبرة عن ثقافة المجتمع ونظمه الاجتماعية. يستحضرها الحضرمي عندما تحضر المناسبة، وتعكس في جوهرها ما يمكن وصفه بالثقافة الداخلية للتراتبيات الاجتماعية التي كانت تفعل فعلها بقوة في زمان ليس بعيدًا من تاريخ حضرموت المعاصر.

فالقبيلي في حضرموت منذ التنشئة، مشروع مقاتل للدفاع عن نفسه وحياض قبيلته، وأهل الحواضر والمدن، تنظم حياتهم منظومة متداخلة قد تمثلها السلطة القائمة أو حرمة الحوط أو الحماية القبلية ذاتها بأعراف وتقاليد معروفة لديهم. وبين هؤلاء وهؤلاء، وفي مرتبة أعلى تتحرك أسر حضرمية من السادة والمشايخ معززة بالعلم الذي تحمله والنسب الرفيع المعترف به. وكان من نتائج هذا التراتب الاجتماعي أن تقاطعت العادات والقيم في جوانب، وتداخلت في جوانب أخرى، وعندما غادر الحضرمي وطنه، تكثفت في وجدانه تلك الثقافة الجمعية الأصيلة التي مكنته من الدخول في المجتمعات الغريبة بيسر وسلاسة ولم لا؟ وجميع هؤلاء المهاجرين يرددون بلسان حالهم (يا غريب قع أديب).

(جمعان) واحد من هؤلاء الذين قطعوا آلاف الأميال وعبروا بحارًا ومحيطات من أجل لقمة العيش الشريفة، والحياة الكريمة الملبية للآمال

والطموحات التي فشل الوطن في تحقيقها. ينتمي جمعان إلى تراتبية القبائل، عندما وصل إلى جزيرة بتافيا (جاكرتا) استقبله ثلة من أصحابه، لا يحمل من المتاع إلا قميصًا احتياطيًا ومئزرًا أو فوطة غمس في ردفاتها جنبيته العزيزة على نفسه، يكاد جمعان يخلو من المؤهلات والمهارات التي تجعله يتطور بسرعة في هذا المجتمع الكبير.

وفي غياب الخيارات، وضعف الإمكانيات اضطر جمعان لامتهان تجارة البضائع المفروشة على قارعة الطريق في الأسواق الشعبية، أجبرته هذه المهنة على حمل بضاعته يوميا إلى السوق والعودة إلى مقر سكنه، وفي ذلك تحمل مشقة كبيرة، ولكن وقد أخذ قرار السفر فعليه الصبر، والمزيد منه.

في المدة التي كان جمعان يتلقط رزقه كانت الجالية الصينية تمثل المنافس التجاري للجالية الحضرمية في جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) الواقعة تحت الاستعمار الهولندي. وبحكم الوحدة الإسلامية بين الحضارمة والإندونيسيين كان نصيب الحضارمة في الاندماج داخل هذا المجتمع أفضل وأقوى، أما الصينيون فقد عوضوا عن هذه الميزة للجالية الحضرمية بأن صاروا أكثر تماسكًا وتعاونًا فيما بينهم وعزز من مواقعهم أن منافسيهم الحضارمة انشغلوا وأُشغلوا مدة من الزمن بخلافات هزت من صورتهم، وسمعتهم.

جمعان لا يفهم كثيرًا ما يدور حوله، معركته الحقيقية يراها في السوق، وعندما يعود إلى مأواه يكون بحاجة إلى النوم والراحة استعدادًا ليوم جديد

عصيب، التزام جمعان في عمله ومعاملته الطيبة مع الزبائن جعل وضعه المادي يتحسن وموقفه في السوق يترسخ. وكان هناك من يتابع نجاحه بقلق وحسد، ثم أخذوا يثيرون المشاكل والعراقيل أمامه لإجباره على مغادرة مكان تجارته، ومنبع رزقه. سكت جمعان على الكثير من الاستفزازات علها تزول (ويا غريب قع أديب)، ولكن السكوت أرسل رسائل خاطئة عند الطرف المعادي الذي تمادى باستخدام العراك ضده بطريقة الكاراتيه.

في إحدى الجولات أُشبع جمعان ضربًا مهينًا بعد أن أحيط بأربعة من المهاجمين، لم يشكُ جمعان حاله لأحد، وأخذ يقلب الأمر في صمت، ثم حسم أمره، وأدرك أن وضع الجنبية يجب أن يتحول من وظيفة ذكرى الوطن الجميلة إلى وظيفتها الحقيقية، أو ما صنعت له في الوطن.

يوم جديد، تقدم المهاجمون للتسلية بجمعان، مستغربين عودته إلى السوق، فما كان منه إلا أن وثب على أحدهم وهو يدافع عن نفسه، وغرس جنبيته في بطنه حتى سقط جثة هامدة. لم يغادر جمعان المكان وتمسك بجنبيته وسط ذهول الجميع.

اجتمع وجهاء الحضارمة بين مستهجن ومؤيد لما حصل، يرى أصحاب وجهة النظر الأولى أن العراك إلى حد القتل غريب على الحضارمة في المهاجر وربما يهز الصورة الإيجابية عند الآخرين الذين ينظرون إليهم بوصفهم دعاة سلام ويميلون إلى الهدوء، وينبذون العنف، أما وجهة النظر الأخرى فترى أن جمعان ما فعل فعلته التي فعلها إلا بعد أن فاض به الكيل وأن سكوته سيزيد

المعتدين عدوانًا على عدوان وعليه فإن ما فعله يستحق عليه التقدير. وعلى الرغم من تعارض وجهتي النظر تكاتف الجميع لإخراج جمعان من السجن، وتخفيف العقوبة عليه فأحضروا له خيرة المحامين.. يقول الراوي:

جمعان تمكن من الهروب إلى حضرموت قبل انقضاء مدة السجن بمساعدة الطرف المؤيد لفعلته، الذي يرى أن الرزق يحتاج أحيانًا إلى القوة، وعندما طال أمد السلام بين الجانبين كانوا يهمسون أن هذا من ذاك. وبالنسبة (لإخواننا) الصينيين فقد نسوا الحكاية وبحثوا عن قوة جديدة تدعم تجارتهم فوجدوها في العلم مع التجارة والتجارة مع العلم، أما أهلنا في المهاجر فقد داروا طويلًا حول حكايات قديمة وعندما تنبهوا بعد سكرتهم وجدوا الصينيين قد بلغوا مبلغًا بعيدًا.

واسترجع جمعان حكايته لأهله في الوطن، ومن منطق المكسب والخسارة الذي تعلمه في أرض الناس أدرك أنه خسر الكثير من المال، ولكنه ظل سعيدًا بربحه لعزة نفسه، أو لنفسه وعزتها..!



رب (خصام) خير من ألف ميعاد

خيم الصمت على أبناء الشيخ أبوبكر، فقد كان في لحيظاته الأخيرة، لم يعد يقوى على الكلام لكنه يشعر بما يدور حوله، ويرمق بنظرات خاطفة الأشباح الإنسانية التي تحيط به، إنهم أجيال متباعدة من حيث تفاوت السنين والعقليات، تملكه شعور غريب بالندم.. هل يستطيع هذا الخليط العمري بين الإخوة والأشقاء أن يتماسك بعد الرحيل؟ وإلى أي مدى؟، ثم هل كان مخطئًا أو غلبت عليه شهوته عندما رآكم الأبناء من زوجات متعددات وفي بلدان متباعدة؟ ما ذنب أبنائه في وطنه الأم الذين لا يعرف بعضهم إلا وهم لحوم طرية أو ملفوفون في قطع من قماش أبيض، وبعضهم غادر أمهاتهم بعد أن وضع ما وضعه في أحشائهن. ما هو مصير هؤلاء؟ هكذا كان الشيخ يسائل نفسه.

في هذه الأثناء دخل غرفة الشيخ أصغر أبنائه البالغ من العمر سنتين، كان يصيح لأمر ما أزعجه، فرقع صوته الصمت الحزين، وبنبرة الشفقة الأبوية الحانية الوجلة تجاه الصبي، وبدافع الهواجس الأخيرة التي دارت في رأسه، ردد الشيخ أبوبكر آخر وصاياه وكلماته: ليُعطَ كل ذي حق حقه.. ليُعطَ كل ذي حق حقه، وسكت، ثم سكت إلى الأبد.

في شرق الأرض الأقصى، وضع الشيخ أبوبكر عصا الترحال، وهناك تمكن من تكوين أسرة جعلته يستطيب الإقامة في تلك البلاد، في سنوات الغربة الأولى اجتهد اجتهادًا عظيما حتى يكون ثريًا أو من الأثرياء، وهو الحلم الذي قدم به من

أرض الوطن، بعد عشر سنوات من غربته عد من الأغنياء، شجعته هذه المكانة أن يلتفت لنفسه ورغباته، فوجد ضالته في الزواج، والأسفار. كانت آخر مغامراته الزوجية في وطنه الأم، فرغم زحمة أرض الغربة وما تعنيه من أسرة واسعة وتجارة متناثرة ، كان ثمة شعور مؤرق قديم وجديد يدفعه لتكوين (ذكرى) له في أرض الوطن.. عندما سكت الشيخ سكتته الأبدية، ووصلت الأخبار، جلست الزوجتان الصغيرتان تبكيان الشيخ الزوج بعيون وقلوب يملؤها التمزق والخوف من مصير مجهول لأيتام تحت أقدامهن، وفي أرحامهن.

كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب، اليابانيون يتقدمون في بلدان الشرق بشجاعة وجدارة، فعصر الشرق الياباني قادم ويجب أن تشرق شمسهم على الجميع، زلزل العالم زلزالًا عظيمًا، وجرت في تلك الحرب أكبر مذبحة في التاريخ، اختفى ملايين الناس سقطت حكومات، وأبيدت مدن، وأذهل كل راعٍ عن رعيته. في هذه المأساة العالمية غابت فرصة تقسيم ثروة الشيخ أبوبكر بين أبنائه، وما إن انتهت تلك الحرب الرهيبة حتى تكونت حكومات جديدة بأنظمة وأيديولوجيات جديدة تقطعت بموجبها أوصال المهاجرين وتوقفت الهجرة ومنع إخراج الأموال خارج الأوطان. كان لا بد لأيتام الشيخ أبوبكر في الوطن البحث عن سبل كريمة للعيش، لهذا نزحوا إلى المدن القريبة..

وعندما سكت الغضب الجامح عن الحكومات الوطنية وذهبت سكرات الثوار، حدثت بعض المراجعات، ولكن في زمن خمدت فيه جذوة الشعور الأخوي خاصة في جيل الإخوة الكبار المسيطرين على ما تبقى من إرث الشيخ

الراحل، وحدثت تجاوزات بقصد وبغير قصد، في لحظات صحوة الضمير كانت المستحقات التي ترسل لأيتام الوطن بمنزلة الروح الذي ينفخ في مشاعر الأخوة من بعيد، ويدفع القلوب لتهفو إلى لقاء.

لم تكن الحكومات الوطنية التي انتشر فيها أبناء الشيخ أبوبكر وأيتامه تستطيع أن توفر عيشًا معقولًا، وكان هذا سببًا كافيًا لأن يرتحل الناس عن أوطانهم. في سبعينيات القرن الماضي وقف العرب موقفًا صادقًا من عدو مشترك واتخذوا قرارات في غاية الصعوبة واستعدوا لتبعاتها فكان نصر أكتوبر الشهير ثم تجلى نصر أو مكسب جديد تمثل في وصول ثروة العرب من النفط إلى أسعارها الحقيقية فأحدث ذلك طفرة في أجزاء واسعة من جزيرة العرب، وانفتحت عشرات الآلاف من فرص العمل إن لم تكن الملايين كان لـ(أيتام) الشيخ أبوبكر نصيب منها.

في أحد المشاريع النفطية خارج مدينة أبو ظبي يجتمع عادةً العمال والمهندسون بعد ساعات العمل الطويلة، وكانوا ينتمون إلى عدد من الجنسيات، ويتقارب الأفراد بحسب لغاتهم وجنسياتهم وأحيانًا تتداخل الصداقات بحسب الارتياح الشخصي أو التقارب في أقسام العمل، ومنذ اللحظات الأولى لم يحدث ما يبشر بصداقة بين (اليتيمين) برغم تقاربهما في مكان العمل بل أظهرت الأيام أنهما أقرب إلى التنازع والخصام منهما إلى الصداقة والوئام.

في لحظات غضب طائشة بين الخصمين تبادلا الضربات وقبل أن يتمكن الحاضرون من فك الاشتباك كانا قد تركا هرجًا ومرجًا في مكان الاستراحة،

وحفاظا على الهدوء وحرمة العمل كان لا بد للجهة المسئولة أن يكون لها قرارها حتى لا تتكرر الحادثة وليكونا عبرة للآخرين.

انشغل الموظف المختص في قضية المتخاصمين بقراءة ملفيهما، كانت التعليمات الشفهية من المسئولين هو تسليمهما حقوقهما وترتيب إجراءات الاستغناء عنهما تمهيدًا لترحيلهما، وحتى يأخذ الموضوع حقه الحقوقي الشكلي كان إجراءً عابرًا أن يُسألا عن القصة والحكاية لعل طرفًا يعترف بالخطأ الكامل ويمكن أن يستغنى عن الآخر وذلك في أحسن الأحوال..

انتظر الخصمان بفارغ الصبر دعوة الموظف المختص للوقوف أمامه وسماع كلماته. لا توجد بشائر تدل على أنهما نادمان بل كانا يظنان أن تحريكهما في مكان العمل نفسه ربما يكون الحل الأمثل، وعندما ناداهما معًا كانت نظرات التوعد تخيم على ملامحهما. بدأ الموظف المختص السؤال التقليدي لمن هو على يمينه طالبًا منه اسمه الرباعي الكامل فذكر (.....) الاسم كاملًا، وقبل أن يرتد السؤال على خصمه قال الآخر: ابن (.....)، ثم لم يدع مجالًا لأخيه أن يجيب فقد عانقه عناقًا أخويًا عزيزًا. وعندما تمالك (.....) نفسه وأيقن أن خصمه هو أخوه فعل ما فعل أخوه، ثم جلسا يبكيان، أما الموظف المختص فقد كتب نهاية النزاع وشهد على لحظات الصلح، وبهدوء وتأثر ظاهرين سحب أوراقه إدراكًا منه أن هناك قصة أخوية بعمري الخصمين يجب أن تروى، وأنها حتمًا ستطول!

الزعامة الحضرمية في أدغال أفريقيا

يردد إخواننا في العراق المثل القائل: (يا هارب من الموت إلى حضرموت)، فحضرموت بالنسبة لهم ولسكان شمال الجزيرة العربية عمومًا في عصر ظهور ذلك المثل تقع في آخر مناطق البرية، وما بعدها محيط له بداية وما له نهاية. أما أهل حضرموت فكانوا يرون ما لا يراه الآخرون، ويدركون أنهم في الوسط بين صحراء واسعة عن شمالهم، وبحار هادرة عن يمينهم، وخلال حقب عديدة امتطوا سفن الصحراء في ترحالهم شمالًا، وركبوا سفن البحر في مغامراتهم شرقًا وغربًا. وفي تلك البقاع ساحوا في أرض الله.

وقد حكت أسفار الهجرة الحضرمية جوانب متنوعة من قصص النجاح والفشل والفرح والألم والبروز والانكفاء لهؤلاء المهاجرين، ولكن للقصة أحيانًا أعماقًا أبعد مما سطر في أوراق الأسفار، وأغرب مما دون في كتب الأخبار. وإذا تصورنا الحضرمي المهاجر تاجرًا نشيطًا أو داعيًا حصيفًا أو معلمًا مجتهدًا أو سياسيًا لامعًا فلا غرابة في ذلك، أما أن تجده ملكًا أو زعيمًا على قبيلة في أدغال أفريقيا فهذا يجب أن نقف أمامه، وأن نقف عنده..

والحكاية الآتية تصيدناها بعد حديث عرضي للفنان المعروف (سعيد عمر فرحان) الملقب بـ(بوعمر) في أثناء محاضرة له عن التراث الشعبي في حضرموت ألقاها في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين – المكلا.. وبعد المحاضرة طلبت من الأخ بوعمر كتابة هذه الحكاية التي سمعها من مصدرها فكتبها مشكورًا، وهنا

أنقلها بنصها بتصرف يسير، وهي على النحو الآتي:

(في عام ١٩٨٢م احتفل السلك الدبلوماسي العربي والجالية العربية في شرق أفريقيا بذكرى تأسيس الجامعة العربية، وكانت نيروبي عاصمة كينيا محور تلك الفعاليات التي شاركت فيها فرقة الفنون الشعبية بمحافظة حضرموت.. ومن عجائب المصادفات أن تحتفل الجالية اليمنية الحضرمية في تنزانيا بالفرقة، وكان لها الشرف في حضور وجبة غداء وجلسة طرب عند رئيس الجالية الحضرمية (زين المقدي) وهو من أسرة آل المقدي المعروفة في مدينة الحامي.. وتوافدت الجالية إلى منزل المقدي للمشاركة والترحيب والاحتفال بالفرقة، وفي أثناء توافدهم شدني أحد رجال الجالية مع ابنه الذي كان مرافقًا له، وما لفت نظري هو ما تفرد به هذا الطفل من شكل وملامح غاية في الجمال والدقة وكأنه قدم من أعالي النيل.. فانتابني الفضول وكررت عليه سؤالي أكثر من مرة هل هذا ابنك لأن ملامحه تختلف عن ملامحك؟ فقال: لهذا الموضوع قصة ربما تكون من أغرب القصص، فقلت له: وأي قصة؟ قال: "في ليلة من الليالي كنت الوحيد في شاحنتي المحملة بالشاي قادمًا من زامبيا إلى حدود تنزانيا، وحدث خلل في السيارة في تلك الليلة المظلمة عند الحدود الزامبية التنزانية وفوضت أمري إلى الله، وفجأة هجم علي مجموعة من قبيلة الماساي التي تقطن تلك الحدود واقتادتني إلى زعيم القبيلة، وهو رجل طاعن في السن لا يقل عمره عن ثمانين سنة جالس عاريًا، ودخلت برفقة مجموعة من رجال الماساي وعندما دخلت عليه سلمت وفق التقاليد والعادات التي أمرنا بها ديننا الحنيف فرد التحية بمثلها

وطلب مني الجلوس، فقلت له بعد أن شعرت بالطمأنينة: إنك لا تنتمي للماساي فالتفت نحوي مستغربًا الملاحظة وقال: كيف عرفت؟ فقلت له: لأول مرة أرى زعيمًا للماساي يمز رشبة [يشرب النارجيلة] فانبهر من هذه الملاحظة وطلب من الحراسة التي قادتني إلى غرفته مغادرة الغرفة ولم يبق أحد غيري وغير شيخ القبيلة، وقال لي: أنت لست أفريقيًّا أنت من حضرموت، وسألني: من أي منطقة؟ فقلت له: من حوطة أحمد بن زين، وقال: وأنا من منطقة ليست بعيدة، من شبام. وسألته سؤالًا متأخرًا: وكيف وصلت إلى هذا المنصب؟ وكيف تمكنت من حكم قبيلة الماساي وأنت حضرمي لست منهم؟ فقال: "كل شيء ممكن فقد كان أبي من أكبر التجار الحضارمة الذين يتعاملون مع قبائل الماساي بالمقايضة، وقبل وفاته طلب أعيان هذه القبيلة من والدي أن أكون زعيمًا لهم، وهكذا تم الأمر. والآن سوف أكرمك فأنا أشعر أنني لن أعيش طويلًا بعد هذا العمر الطويل وعندي ابنتان لا أفضل تزويجهما من أفراد هذه القبيلة، ويمكنك أن تأخذهما غدًا خلسة، وتزوجهما من أبناء منطقتنا، وهذه الحقيبة مليئة بالذهب والفضة اعتبرها تحت تصرفك وبناتي أمانة في عنقك واعتبر هذه الأموال جهازهما في ليلة زفافهما.. في الفجر انطلقت غير مصدق هذه القصة التي أعيشها وتمكنت من الوصول إلى دار السلام وتزوجت من إحداهما وتزوج ابن عمي الأخرى، وهذا أكبر أولادي منها".

والحكاية مكتوبة بخط يد (بوعمر) ونحن لا نشك في روايته أو في نقله لما سمعه، ويظل تأكيد الرواية بتفاصيلها معقودًا على ذمة الراوي، وبالرغم من

التحفظات التي من حقها أن تبرز هنا أو هناك فإننا لا نستغرب كثيرًا من قدرة ذلك الحضرمي الذي قدم إلى بلدان المهاجر وهو لا يملك إلا ملابسه ليصير بارزًا في مجال العلم، وإمبراطورًا في عالم المال، وزعيمًا في عالم السياسة ودهاليزها، أن يكون هو نفسه زعيمًا في أدغال أفريقيا.

ولكن إذا صدقنا تفاصيل الحكاية أو الرواية علينا أن نسأل ونتساءل: كيف كانت نهاية هذا الزعيم في مملكة الماساي؟ ولماذا بقى زعيمًا على القبيلة رغم أنه بإمكانه الفرار كما فعل مع ابنتيه؟ وما هي مكانة حضرموت في وجدانه؟ وهل نظر إلى ابنتيه بوصفهما ما تبقى من حضرموت في كيانه لهذا فضل عودتهما إلى (أهلهم)؟ هل قابل قبيلة الماساي الوفاء بالوفاء؟ وما هو حق قبيلة الماساي علينا بوصفهم أخوال أولادنا؟ وهكذا فإن الحكاية تولد الحكاية والحكايات، وتفتح الشهية للمزيد من التساؤلات، وتستحق السعي لسبر أغوارها، ونبش أخبارها، لكي يأتي الأمين بالخبر اليقين، ولكن، وكما يقول المثل الحضرمي: "لا تلعب بالطين يا مسكين".



خامسًا:

رمضانيات

أهلًا رمضان.. عذرًا رمضان

(رحبوا يا صايمين، شهر رب العالمين، عاده الله علينا، وعليكم أجمعين..). هكذا يردد إمام مسجد المشهور بالمكلا (حي برع السدة) هذا الدعاء والترحيب بالشهر الكريم، ويردد الحاضرون معه في المسجد ما يقول، ويبدأ الترحيب عادةً منذ ليلة الخامس عشر من شهر شعبان من كل عام، ويستمر إلى منتصف شهر رمضان، ليبدأ دعاء الوداع والرجاء بالعودة للشهر الفضيل بالعافية وقبول الأعمال.

ويضفي صوت الشيخ أحمد باغفار (إمام المسجد) بعدًا روحيًا وتراثيًا لمدينة المكلا ومسجدها المشهور، وتتراقص الأضواء في المئذنة الشريفة فرحًا واستبشارًا، وتعلو الأصوات، وتهز من في قلبه للشهر وقار.

أهلًا رمضان يا شهر القرآن، وحبيب الرحمن، نحن في شوق لك أكثر من شوقك لنا، نعرفك لا تهل إلا ومعك البشارات النورانية، والمكرمات الربانية، حسبنا منك أن أولك رحمة، وأوسطك مغفرة، وآخرك عتق للمقبولين من النيران.

أهلًا يا صاحب التجارة الرابحة والمكاسب الواضحة، أهلًا بالخير المسهون، والنور المضمون، والأمان المصون. أهلًا يا صديق التائبين، وعدو الشياطين، وأمان الخائفين، ورجاء المقصرين، وفرصة الغافلين، وخير أشهر رب العالمين.

عذرًا رمضان إذا لم يستقبلك البعض منا بما هو لائق لك ولهم، وعذرًا أنهم لم ينزلوك منزلك الذي تحب وتستحق، عذرًا أن البعض منا يعدك شهر المصاعب، لا شهر المكاسب، عذرًا لمن استثقلت نفسه المريضة قدومك، وعد الليالي لرحيلك.

عذرًا لأننا لم نقترب من روحك العظيمة الطيبة، عذرًا أنك تجد البعض في نهارك وقد ماتوا وهم نيام، وفي ليلك أفرطوا في الكلام، وغفلوا عن عطايا رب الأنام. عذرًا أن حولوك من مدرب يضبط إيقاع البطون، إلى مرتع في الأجسام للدهون.

أهلًا رمضان، أهلًا رمضان، أهلاً يا صاحب ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، وأصدقاؤك الملائكة الأغر،، والروح جبريل الأبر، أهلًا رمضان ويكفيك فخرًا يا رمضان أن لك عند الله شأنًا، فأهلًا أهلًا يا رمضان...



رمضان في المكلا.. بين بازرعة ومشهور

نحن من أصدقاء رمضان، عشقناه بقلوبنا صغارًا، وأحببناه بعقولنا كبارًا، وفي ما مضى من عمرنا خاصة في العقود المبكرة، كان لنا مع رمضان وقفات وذكريات وتأملات. كان مكان اللقاءات مع رمضان في مدينة المكلا الجميلة، ولاسيما في المساحة بين مسجدي بازرعة ومشهور... يقع بيتنا في الوسط بين المسجدين والأمتار القليلة التي قربتنا من مسجد مشهور جعلتنا نحسب من أصحابه أي من أولاد حافة مسجد المشهور. ويعني هذا التقسيم في لغة الحويف الصغيرة تكتلًا بشريًا طفوليًا يتفرع منه ارتباطات معينة مثل الفرق الرياضية والزمالات المدرسية والصداقات الخصوصية، والجماعات الهجومية أو الدفاعية، وحلقات السمر الصغيرة.. إلخ.

والمنطقة ما بين المسجدين وحولهما تحتل أهمية خاصة بالنسبة للمدينة وأهلها المسالمين، ففيها تسكن كل شرائح المدينة مع تكثف لافت لبعض الأسر المعروفة والشخصيات الثقافية والرياضية والتربوية البارزة، فهذا بيت المؤرخ والأديب الكبير محمد عبد القادر بامطرف لا يبعد عن مسجد بازرعة بأكثر من ثمانين مترًا، وبالقرب منه وبإطلالة على الشارع الثاني يقع بيت والد المؤرخ محمد عبد القادر بافقيه الذي سمي الشارع مؤخرًا باسمه، وصعودًا إلى أعلى وبمحاذاة بيتنا يقبع بيت المؤرخ وشاعر السلطنة القعيطية الشيخ عبدالله أحمد الناخبي وهو يدخل فيما يعرف بحافة المشهور. ويفصل بيت آل النوم بين مسجد

مشهور وبيت أسرة (الشباب) عبد العزيز جعفر بن عقيل وشقيقه عبد الرحمن، وبالقرب منهما بيتنا وبيت ابن خالي محمد صالح بلعفير والذين أصبح لهم في كتابة التاريخ شأن، نسأل الله أن يطيل في أعمارهم ويشد من أزرهم. ولحيادية بيت السيد محمد علي المديحج نشاهده في فترات مختلفة إمامًا تارةً في هذا المسجد وأخرى في ذاك، مع انحياز بسيط إلى مسجد بازرعة، وخاصة بعد مغادرة الشيخ عبد الله الناخبي أرض الوطن. وما يزال بيت الأديب والصحفي اللامع حسين محمد البار عامرًا يحكي قصة الزمن الجميل، وباتجاه شمال غرب منه يقع بيت شاعر المشاعر عبد الرحمن صالح المفلحي. ويتوسط بيت عاشق المكلا الشاعر خالد عبد العزيز بين مدرسة النجمة الحمراء، ومسجد بازرعة.

وإذا تناولنا أعمدة التربية والتعليم فلن نغفل الإشارة إلى بيت الرائدتين فاطمة عبد الله الناخبي وفطوم شيخ العزاني. أما رجال التعليم البارزون فحدث ولا حرج، فإن بدأت بالشيخ عبد الله الناخبي وابنته وأحفاده مرورًا بالأستاذ أحمد القحوم والأستاذ نصر مرسال والشيخ محمد باوزير فلن تنتهي عند الأستاذ مدرك عبيد مدرك وخالد بخيت وآخرين، والقائمة تطول...

وإذا استعرضنا كبار رياضيي المكلا بل حضرموت، لا بد أن نذكر الرياضي الحكم الدولي أحمد محمد الفردي، وغازي عوض الجعيدي، وزكي باعقبة، والظني، وحمد بخيت، ويحيى عمر، وحامد رحيم، والقائمة تطول...

وفي منطقة ما بين المسجدين يقع بيت الفنان محمد جمعة خان وكرامة

مرسال ومفتاح سبيت كندارة وسالم بطيق. وتتناثر في المكان بيوت الكادر الإداري المدني المتوسط، فهذا بيت العم عمر محمد العطاس، وذاك بيت سالم صفي وقريبًا من سفح الجبل يقع بيت المحاسب المخضرم والمتمكن العم صالح سعيد بن عكظة، وبمسافة بعيدة منه يقع بيت أحمد الرشيدي، وفي الوسط بيت صلاح بن هشان، وبالقرب من البحر بيت السيد علي العيدروس مدير البنك الأهلي، والقائمة تطول...

كانت المنطقة التي تقع أسفل مئذنة مسجد بازرعة في أيام رمضان الخوالي مركز التجمع البشري والتجاري. فما إن يستعد شهر شعبان للرحيل حتى يهب بعض شباب الحافة القريبة من مسجد بازرعة بجلب الحصى الصغيرة (الحصلة) من ساحل البحر القريب عندما كان قريبًا وعندما كان شارع المكلا الثاني غير معبد وكذا الفرع الموصل له والممتد عبر قبة المحجوب والمقبرة مرورًا بصحن مسجد بازرعة والمئذنة في نهايته.

وتحت المئذنة يجتهد الشباب في فرش (الحصلة) ويؤسسون ما يسمى وقتئذ بـ(المصيمة) تصغير تأنيثي لمكان التدرب على الصوم حيث يجلس الأطفال عليها بعد صلاة العصر وحتى موعد أذان المغرب، والمفروض بحكم العادة أن يمتنع الأطفال عن الأكل في هذه الفترة تضامنًا مع الكبار وكنوع من التعلم على الصوم في الشهر الفضيل.. وتأخذ الغيرة بين الحويف بعض الشباب لتأسيس (المصيمات) الصغيرة أسفل المنازل القريبة، ومع هذا تظل (مصيمة)

بازرعة هي المهيمنة. ولكن رمضان لم يأت بعد.

وكما يستعد الشباب، تستعد النساء، وتزدهر تجارة الأواني ذات الاستعمال الرمضاني، ويفرح التجار. ويعاد تأهيل (المراهي) التي يسحق فها الدجر لطبخ (الباقية) ويقع الدق والدقيق على (المناحيز) وهت يا دقيق.. ثم يهدأ الدقيق ويأتي الصديق ولا يضيق منه إلا من في قلبه ضيق.. إنه رمضان، رمضان الرفيق.

نحن الآن في عصر رمضان، وتحت مئذنة بازرعة، وفي مكان يسمح لنا بمشاهدة معظم التفاصيل.. يستعد الباعة في تجهيز بضاعتهم وترتيب طاولاتهم بحركات هادئة ومعتادة فزبائنهم من الصغار والكبار رائحة المقليات النفاذة تجعل القريب يحن إلى لحظة قريبة قد تبدو للبعض بعيدة.. انظروا الرواد الأساسيين للمكان قادمين ويأتون زرافات.. إنهن بنات (المسجدين) غالبًا ما تكون البنات (الكبيرات) هن المسيطرات على الأرتال، وكما يبدو لا يجدن مشقة في السيطرة على الأولاد الذين غالبًا ما يكونون أصغر منهن، وحفاظًا على تماسك الرتل تحرص البنات (الملقنات) على شد أيدي الصغار حتى يصل الرتل بسلام. تجلس كل مجموعة في مكان مناسب من (المصيمة) ويفضلن الجلوس مستندات بظهورهن على حائط المئذنة السفلي في حين يضطر المتأخرون إلى الجلوس حسب ما هو متاح. يلبس الأطفال الثياب البسيطة والجديدة، ويستعدون بجلب الماء في حافظات (زمزميات) استعدادًا لمشهد الإفطار الصغير.

وحتى الآن تجاوز العم (زين) مسجد المشهور حاملًا فوق رأسه (طست) الكراش (أحشاء الأسماك المطبوخة) في رحلة بدأت من حي الحارة (الصيادين)، ورغم الإعاقة في إحدى رجليه تدل مشيته على مهارة وخبرة في حفظ التوازن وخفة الحركة وما إن وصل وألقى بأثقاله حتى تقاطر زملاؤه - والسوق فيه ألف باب والرزق على رب العباد - وتعدد باعة الكراش في (معقلنا) ممَّا يدل على قوة شرائية ربما تفوق منطقة المنشأ وتدل على عشق خاص لوجبة الكراش المكلاوية الشهيرة الساخنة!!

امتلأت المصيمة، ولتكثف الأطفال في المكان لا أستطيع التمييز بين المشترين المقيمين في المصيمة وبين الوافدين من الشوارع الخلفية، واختلط الحابل بالنابل واشتعل الأديم غبارًا وما هو بغبار، وشقاوة الأولاد تربك أحيانا من هو مار، ومع هذا يعزف الأطفال في تقاطع حركتهم معزوفة الفرح والتفاؤل.

ولا يزال الجميع في انتظار طلقة المدفع، وصوت الأذان. دخول المؤذن (خيّر) يدل على أن الفرج قريب، يقول الكبار إنه قبل استخدام الميكرفون كان صوت (خيّر) الجهوري يصل إلى مسافات بعيدة، ولكن ظل يستفيد من هذه العطية الربانية في (التطروب) أي الإعلان الحي عبر الأزقة عند فقدان الأشياء أو إعلانات الفرح والحزن، "وشبيه صوت النعيّ عنده بصوت البشير في كل نادي".

لا أدري لماذا وصل العم سعيد المراوي والعم محمد - بكسر الحاء

وتشديد الميم المكسورة – في وقت واحد. لعل التزاحم جعلني لا أستطيع تحديد أيهم أول الواصلين، وعلى العموم هما الآن في قلب الحدث ويحيط بهما المشترون. والعمّان، محِمِّد، والمراوي، من فاقدي البصر لا البصيرة، يبيع المراوي (الكلماتي) وهي العجينة المخمرة والمطلية بالسكر، وتأخره المتعمد يتناسب مع رغبة الزبائن في شراء سلعته ساخنة حتى الوقت المنتظر المعلوم، أما (محمد) فيبيع البالونات الطويلة للأطفال وينفخ بمنفاخه من يرغب في الانتفاخ. لا يفكر الصغار أو الكبار في غش الشيخين الكبيرين وهما يمارسان عملهما بثقة عالية في الله وثقة في أمانة أهل المكلا المتمدنين.. إنها ثقافة الأمانة وعفة النفس المتأصلة عند الحضارم.

يستعد الباعة ولاسيما من نفقت بضاعته في مغادرة المكان، ويقوم بعض الأطفال بتغسيل (طست) الكراش على شاطئ البحر مقابل عطية معينة. الآن صغار الصائمين يستعدون مثل الكبار للحظة الإفطار، وتصبيرًا لأنفسهم ينشدون بشكل شبه جماعي أنشودة الصوم المكلاوية التقليدية: "يا مّا صييمه هاتي لقيمه من البريمه والمغرب يدّن يقول الله أكبر والبريمة تقول بر بر بر". وتزداد إيقاعات السرعة في المكان.. موعد الأذان قاب قوسين أو أدنى، لا أدري ما يحدث بعد ذلك فعلي أن أغادر المكان متوجهًا إلى مسجد المشهور حيث الأصدقاء، ولكنني وبعد أن أتلفت يمنة ويسرة أردد أنشودة الصوم المكلاوية ثم أسرع الخطى.

إن ذلك مشهد من سويعات خاطفة في رمضان المكلا العتيق وسلوكها الشفيق ولا يزال هناك الكثير الرقيق والعميق.

يرحم الله من ذكرناهم وقد غادروا دنيانا، ويطيل أعمار المنتظرين بصحة وعافية، وشهر مبارك وكل عام وأنتم بخير...



المكلا... مدينة تحييها مساجدها وتحميها

البحر، والمسجد في مدينة المكلا القديمة، أو الأصيلة، مفردتان تحكيان قصة الطهر والعبادة، وتحملان دلالات واسعة كالهواء، سرمدية كالبحر، عميقة كالإيمان.. وبعيدًا عن سور البر وسدته، وحصن الجبل وأكواته، فإن مدينة المكلا العاشقة للسلام ترحب بالقادمين إلى سواحلها من أعالي البحار، لا يصدهم صاد، فها هي مآذنها ترسل نداء المحبة وكلمات الفلاح، وها هي مساجدها أول من يحتضن من لحلح إليها ولاح.

وتشكل مساجد ضفتي لسان مدينة المكلا طوقًا من إيمان يحميها من وساوس الشيطان، ويصونها من غدر الجبان، فإذا انطلقنا بقارب من ساحل البحر فأول ما سنشاهده في اللسان الشرقي مسجد (محيشوكة) أو نور البلاد، وقريبا منه مسجد (بازرارة)، وبالقرب من رأس المكلا وبالتحديد في بداية اللسان الشرقي سنشاهد مسجد (جامع البلاد)، ويتوسط مسجد (علي حبيب) بينه وبين مسجد (الغالبي) الذي يقع في آخر اللسان باتجاه الجبل، وتلامس هذه المساجد ساحل البحر في دورة طُهر خالدة خلود حركة الأمواج، وذلك قبل تشييد ما يسمى بكورنيش المكلا. وإذا غادرنا منطقة اللسان واتجهنا غربا سنجد قصة البحر والمسجد تتكرر مع مسجد (الروضة)، وشيء من ذلك نجده مع جامع السلطان (عمر) ومسجدي (المشهور) و(بازرعة) الكائنين في منطقة برع السدة.

وفي هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه اعتكف المكلاويون

فيها.. بالصلاة عمروها، وبالدعاء نوروها، وبالذكر أحيوها، واحتل القرآن عندهم كما هو حال المسلمين في كل مكان أهمية كبيرة، ويتلى في هذه المساجد آناء الليل وأطراف النهار، وتبارك الأحياء بتلاوته ثم استحسنوا إهداء التلاوة إلى أرواح موتاهم عسى الأجر يصل إليهم والثواب.

فختم المسلم للقرآن يعد احتفالًا روحيًا بين العبد وربه، ويتلذذ خاتم القرآن بدعاء الختم الشهير، والمناجاة الروحانية التي تطمئن القلوب، وتجلي الكروب. ولأن رمضان هو شهر القرآن، اجتهد الكثير في ختمه أكثر من مرة، وفي هذا الشهر العظيم جاءت فكرة الاحتفال الجماعي بختم القرآن في المساجد، وتطورت هذه الفكرة إلى ما يعرف في حضرموت باحتفالات (الختايم).

ولا يعرف بالتحديد متى ظهرت الاحتفالات، وكيف انتشرت في المدن والبلدات الحضرمية، لكن الثابت أن تاريخ ظهور هذه الاحتفالات في حضرموت يتجاوز القرن من الزمان، وفي المكلا يعود إلى عهد الإمارة الكسادية التي انتهت عام ١٨٨١م. وتشابه احتفالات الختايم في المدن الحضرمية يعود إلى الوحدة الثقافية بمسحتها الصوفية التي عمت حضرموت داخلها وساحلها وبواديها، فقد أسهم انتشار أسر من السادة والمشايخ في معظم مناطق حضرموت في تأصيل وشيوع هذه المظاهر الثقافية التي أعطت لحضرموت خصوصية في إطار وحدة الثقافة الإسلامية السائدة في المنطقة.

إن احتفالات الختايم التي تقام بأسلوبها التقليدي القائم حتى الآن، شهدت

تطورات تدريجية حتى اتخذت لها مظاهر ابتهاجية خارج المسجد، فأصحاب المسجد الذي يتم فيه الاحتفال الجماعي بختم القرآن الكريم تطلعوا أن يشاركهم أقاربهم وأصدقاؤهم في هذه المناسبة، وتطلب الأمر الدعوة بالحضور للأهل والأحباب، وهكذا تحركت عائلات من منطقة إلى أخرى فضلًا عن اجتماع أبناء المنطقة ذاتها. وعندما تتزاحم الأقدام وخاصة أقدام الأطفال تتوفر فرص للتجارة، ومن هنا فإن فكرة الختم تطورت تلقائيًا من بدايتها الدينية البحتة إلى تفرعاتها الاجتماعية والاقتصادية.

في مدينة المكلا تبدأ احتفالات الختايم منذ الليلة التاسعة من رمضان بمسجد بايعشوت وتنتهي بليلة التاسع والعشرين في قبة يعقوب. ولا ندري لماذا بايعشوت أولًا؟ ولأننا لا نريد أن نغرق في التخمينات سنحاول الإجابة عن سؤال آخر وهو: لماذا تبدأ احتفالات الختايم بالتحديد من ليلة التاسع من رمضان؟؟ ولماذا يكون هناك فاصل يوم بين ختم وآخر أو ما يعرف في المكلا بـ (الغب). عندما طرحنا هذا السؤال على بعض المهتمين وكبار السن تنوعت إجاباتهم، وتعددت اجتهاداتهم، والأرجح بحسب رأينا يعود إلى قلة مساجد المكلا القديمة فهي لا تزيد عن ثلاثة عشر مسجدًا وبالتالي هذا الاختيار يعطي فرصة لامتداد الاحتفالات في أيام الشهر الفضيل، كما أن هذه الأيام الثمانية الأولى تكون فرصة للفروغ من قراءة القرآن استعدادًا لاحتفالية الختم، وكذا التعود على أسلوب الحياة الرمضاني الجديد، وفرصة لعودة الرجال المهاجرين أو المغتربين إلى ذويهم. وحتى هذه الأيام يحرص المقيمون خارج مدنهم وبلداتهم أن تكون

إجازاتهم أو استراحاتهم بين أهلهم وأقاربهم والأخلاف امتداد للأسلاف.

واستكمالًا لمهرجان الفرح الرمضاني وتعويضًا عن محدودية المساجد أضيف لاحتفالات الختايم قباب المكلا الثلاث المعروفة وهي: قبة (شيخان) وقبة (المحجوب) وقبة (يعقوب)، وفي هذه القباب مدفونٌ الصالحون من أبناء هذه المدينة، وفي احتفالات هذه القباب الرمضانية تجدد الزيارات لهؤلاء الصالحين بحسب الطريقة الصوفية الحضرمية حيث تقام (المواخد) والأناشيد ويرتفع صوت الطارات ويزدحم الناس طلبًا للبركة أو إشباعًا للفضول.

ومع مرور الزمن تراجعت الفكرة الدينية من الختايم وترسخت التقاليد الاجتماعية والاقتصادية. فعلى الصعيد الاجتماعي ارتبط اجتماع الأسر والأقارب على موائد الإفطار بأيام الختايم مما عزز الترابط الأسري وأوجد فرصًا كبرى لرأب الصدع والتسامح بين الأقارب، فشياطين الخصام مرصونة ولحظات الصفاء مضمونة وللقلوب أسرار مكنونة. وتنسج في مثل هذه المناسبات علاقات تعارف وتقارب جديدة بين الأسر الثابتة والمتحركة تتجاوز أحيانًا الأقارب إلى جيران الأقارب، والطريق معبدة بنور الرحمن، ورقة رمضان، وحلاوة الإيمان.

وعلى الصعيد الاقتصادي يهيمن على هذه الختايم (الرأسماليون) من الأطفال أصحاب الجيوب المعمورة لهذا لا بد لها من منافذ، ومصارف.. وهنا يحضر صغار الباعة الذين يعرضون سلعتهم للمشترين الجاهزين وإمعانًا في

تصفية الجيوب يستقدم هؤلاء المراجيح عليها تقذف بما تبقى من القروش.. وهكذا تتحول الختايم إلى مهرجان للطفولة بامتياز فيكون من حقهم الثياب الجديدة واللعبة المناسبة والفرجة اللائقة ولا يستطيع الآباء نزع حق ادّعوه في يوم من الأيام، والأيام تتداول بين الأنام.

ولا يقتصر البيع على ما هو للأطفال فللكبار نصيب وبخاصة المسليات كالحنظل، والفول السوداني (اللوز)، والذرة الشامية (القلي)، إلى جانب أنواع من الحلويات الشعبية المكلاوية إذ يتهادى بها المحتفلون مع الآخرين.

ويستفيد من هذا الجمع الفَرِح نسوة غالبًا ما يأتين من أقصى المدينة يحضرن لتأدية أرجوزة الختايم للمواليد الجدد والعراوس الجديدات مقابل مبلغ من المال يدفع بحسب كرم الناس. ويقلن في أرجوزتهن للمواليد الجدد - مع ذكر الاسم:

(فلان) هات حقنا (فلان) لي من ربنا، ذي السنة ختمنا لك وبالسلامة لخوانك.

ومن خلال كلمات هذه الأرجوزة نستنتج طلب المساعدة مقابل هذا التفريح السريع، وهو نوع من التسول الخجول وربما المقبول اجتماعيًا، لهذا لا يعبأ الناس بما يردد من تهديد يقال في آخر الأرجوزة: (هاتوا شوية شُربة والّا كسرنا البُرمة).

واللافت في هذه الأرجوزة تحول لفظة الختم والختايم من مدلولها الديني إلى مدلول آخر بعيد وذلك بقولهم ذي السنة (ختّمنا لك) وبالسلامة لخوانك

ويقصد هنا بختّمنا لك: خصَصْناك بذكر الأرجوزة في احتفالات هذا الختم فربما السنة القادمة يكون مولود جديد يستحق تلك الأرجوزة.

وهكذا تعيش المنطقة الاحتفالية ومسجدها في حالة من الحركة والنشاط والفرح العام عند الأطفال، أما الكبار فهناك ألف حاجة وحاجة تشغلهم، ولكن مهما يكن التعب والنصَب فإن البلسم والعزاء هو في السعادة الصادقة التي تغمر قلوب الأطفال البريئة الغضة.

ولكن العيد لا يزال بعيدا لهذا يجب أن تبقى ليالي رمضان المكلاوية حية في مسجد جديد، ومكان جديد، وقلوب جديدة، حنونة نابضة ورحيمة.



المكلا ورمضان.. موعد مع الفرح

ينطلق رمضان في حركته المنتظمة وصولًا إلى غايته المطلوبة والمكتوبة في الكتاب. فهذه الأيام دخل ثلثه الثاني، لم يعد البعض يسير مع رمضان بحماسته الأولى، فهناك من تباطأ، وآخر تأخر، وثالث تخلف. ولكن ما يزال الكثير يتحركون مع رمضان بهمة ولياقة، ونفس طويل.

ينتظر كل المسلمين محطة رمضان في ليلة السابع والعشرين؛ لأنها خير من ألف شهر. في عصرية هذه الليلة وتمهيدًا لها يحرص سكان المكلا وضواحيها وبعض ضيوفها على الاحتفال بها، والتهيؤ لها بطريقتهم الخاصة.

وتكمن الاحتفالية الذكية والرائعة لأهل المكلا في إجراء مباراة استعراضية في كرة القدم بين مجموعتين من ظرفاء المكلا، وبعض المعاقين، والمتطوعين، ويتعمد المنظمون أن تكون المباراة أولها ضحك وآخرها ضحك. وهي احتفالية قريبة العهد.

تجرى المباراة (المسرحية) على مساحة ترابية من كورنيش المكلا في الوسط بين المسجدين (مشهور - بازرعة) ويكتظ المكان بالحاضرين المتفرجين كبارًا وصغارًا، ومن يتأخر بعد صلاة العصر بدقائق فلن يجد له مكانًا مناسبًا.

يبدأ الاحتفال برقصات شعبية مكلاوية يدخلها أنصار الفريقين. ويستعان بالتعليق ببعض الشخصيات المكلاوية الظريفة مثل الأستاذ عبد الرحمن سهيل وهو في الأصل مقدم برامج إذاعية وممثل مسرحي وتضفي تعليقاته نكهة لطيفة

للمشهد الفرائحي المكلاوي.

وبأسلوب مسرحي مرسوم يتعمد الفريقان الدخول إلى الملعب بطريقة خاصة يجتهد كل منهما لأن تكون أكثر طرافة من منافستها، كأن يدخل فريق على سيارة خاصة بنقل الأسماك، أو قحافة، وعلى العربات التي تجرها الحمير.. والأساليب كثيرة ومتجددة.

ولا يستطيع المشاهدون إن نسوا شيئًا أن ينسوا تلك المباريات التي حكّمها فؤاد دويل (ومن شاف ما هو كما من سمع) ويحضر هذه المباريات ممثلون عن السلطة المحلية وأحيانًا محافظ المحافظة ويتبرع بما يجود، وكذلك يتبرع بعض التجار. وتوثق هذا الاحتفالية بالصوت والصورة ويتمتع الحاضرون بالتعليقات عبر مكبرات الصوت التي تركب قبيل المباراة.

تهدف المباراة إلى خلق جو من الفرح العام قبيل الليلة العظيمة وليس السخرية من الظرفاء والمعاقين الذين يتعمدون بحركاتهم غير الطبيعية إدخال السرور على الحاضرين.. إنه مهرجان إنساني حقيقي بمعنى الكلمة. ويفرح هؤلاء الظرفاء في آخر المطاف عندما توزع لهم العطايا بحسب كرم المانحين.

لسنتين ماضيتين اختفت هذه الاحتفالية عن مدينة المكلا، ويقال إن السبب يعود إلى أن الملعب الذي تقام فيه المباريات لم يعد مناسبًا بعد أن تم تعبيده بالحجارة. نحن ندعو المنظمين السابقين أو من يجد في نفسه الهمة والرغبة إلى إحياء هذا العادة وتأصيلها في مكان آخر من مدينة المكلا، ونظن في السلطة

المحلية وأهل الخير الظن الحسن، فالاحتفالية عمل خيري اجتماعي يستحق الجهد والاهتمام، وتضيف قيمة تراثية وأخلاقية جديدة للمكلا وأهلها. ستظل ليلة القدر هدف وغاية المسلمين الصالحين والراجيين والطامحين إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. وبدورنا سنظل نجري مع رمضان حتى يبلغنا الله عز وجل فضل هذه الليلة وكل ليالي رمضان شهور بعد شهور وسنين بعد سنين.



الغاضبون في رمضان

إنهم فئة منا، ولا تكاد تخلو دار من ديار الإسلام منهم، نعرفهم بسيماهم، هم أنواع مختلفة منهم من يغضب من رمضان! وهم الأقل عددًا، ومنهم من يغضب في رمضان وهم أغلب أهل هذه الفئة. لم يمسسهم رمضان بسوء ولم يأتهم على حين غرة من أمرهم، ولم يكن ضيفًا ثقيلًا، أو فظًا غليظ القلب، ولم يمنعهم من شراب أو طعام إلا أنه أعاد تنظيم وقت الطعام. ولم يسلبهم شيئًا من مالهم ومتاعهم ومع هذا فهم في نهاره غاضبون وكالحون ومن سويعاته يتذمرون ومن مواجهته يتهربون.

ما يكاد يخرج النفر منهم من بيته إلا وقد خاصمت الابتسامة وجهه، لا يرد السلام إلا قليلًا، ثاني عطفه، وفاقد لطفه، يظن برمضان الظنونا، تراه صعبًا إذا اشترى صعبًا إذا باع.

هم أشكال مختلفة فمنهم من يتأخر عن عمله ويتلذذ بعذاب الناس المراجعين ويحمل رمضان إثمًا وبهتانًا. وآخر سد الأبواب ولم يكلم جنيًا ولا إنسيًا، وطبيب عاقب المريض على مرضه، أيمرض في رمضان!! ومعلم في الصف نام مع من نام، وتظاهر بأنه يقظان.

نراهم في المساجد يزاحمون مع المتزاحمين ويقرؤون القرآن وهم واجمون ونظن أنهم في آيات الله يتفكرون ويخشعون، ومن نورها ينهلون وما إن يضعوا القرآن في محله حتى يعودوا سيرتهم الأولى ويكشرون.

أغلبهم غاضب؛ لأنه يظن أن رمضان حرمه من كيفه الخاص، لهذا سرعان ما ينفد صبره، ويفقد زمام أمره، وهؤلاء ما إن تبدأ دقائق الإفطار تجد النفر منهم قد دس في فمه ما دس، وينفخ من صدره ما يظن أنه غبار محتبس.

وأبرز مظاهر الغضب تجدها عند إخواننا من هذه الفئة في النصف الأخير من عصر رمضان بخاصة عند سائقي السيارات وما أدراك ما سائقو السيارات، فالكثير منهم في عجلة من أمره ويريد أن تفتح له الطرقات بالحق وبالباطل، وقد تابعت - وما أكثر ما نتابع - تصادمًا خفيفًا لسيارتين فخرج الجاني مغاضبًا، وهرع المجني عليه.. وإذا بقطبين غاضبين لا يحتاجان إلى ثالث حتى يقع بينهم ما يقع، وهت يا وجع!

أما رمضان فلا يعنيه غضب هؤلاء الغاضبين في شيء. إنه بريء منهم. إنه لا يحب الغضب إلا بحقه. شعاره التراحم، وعنوانه التسامح، وسجيته المكارم، ولأنه كذلك تظل يده ممدودة طوال أيامه، ولا يردها مهما تعددت أعوامه..



الفاسدون في رمضان

خرج شعبان وهم في غفلة من دينهم، وما إن أعلن عن وصول الشهر الكريم حتى تدفقوا بسياراتهم الفارهة إلى أكبر الأسواق في المدينة، وأغلاها، واشتروا لأنفسهم مشتهاها، التي إن عرفت أولها، فلن تعرف منتهاها.

وهؤلاء أصناف عديدة منهم من يقول إنه يصلح في الأرض وهو يفسد ويشعر أنه من المصلحين، وآخرون يفسدون ويصلحون، وصنف يفسد ما يصلحه المصلحون وهناك فاسدون لا يفسدهم الفاسدون. بعضهم خدع نفسه، وأكثرهم رضيت عنهم أنفسهم الـ... ورضوا عنها!

وفظيع جهل ما يجري وأفظع منه أن تدري!

لهم بطون لا حدود لها، ودهون تشكو إلى الله مما بها. مراعيهم واسعة خطت في الظلام، وبيوتهم بارزة بنيت من حرام، وكلابهم كثيرة لا تكاد تنام. يعجبك قولهم والله يعلم ما بأنفسهم، هم أعداء الكرام، وأصدقاء اللئام.

الكثير منهم يتودد إلى رمضان بالموائد العامرة والصدقات الظاهرة، والصلوات الجاهرة. ولكن توجعهم الآيات القاطعة والأدلة الدامغة. يحسبون كل وعيد في القرآن عليهم. لا يستطيعون أن يهربوا من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ترى هل يقدرون على هذا الحمل الثقيل؟؟ وقوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ثم تطاردهم الآيات البينات: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾.... ﴿ لَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾....

ولكن رحمة الله وسعت كل شيء وتفتح لهؤلاء أبواب التوبة لمن أرادها من قريب، ومن أبى يؤخره الله إلى ما يشاء، وإلى يوم تشخص فيه الأبصار ولا ينفع فيه طول الديار أو ما جمع من دولار...

أيها الفاسدون، رمضان يعرفكم حق المعرفة، لا تخدعه الملابس المطرزة والعمائم الملونة والكوافي المزركشة، والقمصان المطيبة، والموائد المفروشة، والنقود المصروفة. حضنه الكبير، لا يقبل اللحوم الرديئة والدماء الملوثة. إنه يدرك أنكم لستم من أهله، وأن لكم عملًا غير صالح.

أيها الفاسدون، نحن نشفق عليكم وعلى جوعكم، ونتعجب مما تبذلون، فإن أكلتم بعد جوع، ففي أكلكم حرام، وإن بذلتم، فهو من مال الأنام. أيها الفاسدون المصرون، لن تنالوا رضا رمضان، ورب رمضان، ألا تعلمون أنه يسمع ويرى ولا ينام؟



المكلا والعيد

ما إن تهل العشر الأواخر من شهر رمضان إلا ويتدفق الناس إلى الأسواق استعدادًا للعيد، يضع أرباب الأسر نصب أعينهم فرحة الأطفال وتضغط الميزانيات أو تترحرح بحسب المستوى المادي للأسر. وهناك من يحرص في هذه العشر الأواخر المباركة على الاعتكاف في المساجد لجني المزيد من الحسنات "وأهل الشراء في شراهم وأهل العبادة يصلون". إن للعيد عند المسلمين في كل مكان معاني كثيرة وتكاد تكون متشابهة، فعند الكبار لا تبتعد كثيرًا عن الرضا عن النفس وادخار ثواب الصوم، إذا قبل، إلى يوم لا شك مقبل. أما الصغار فالعيد لها طعم لذيذ ورائحة زكية وثياب جديدة وجيوب عامرة وفرحة كبرى ما بعدها فرحة.

ومثلي مثل الصغار في كل مكان، كان طبيعيًا أن أتمنى زوال ليل رمضان في يومه الأخير المحتوم، بعد أن عكرت فرحة العيد صفاء النوم فتأخر عن القدوم، ولكن لا يدوم إلا الحي القيوم. ويدرك النوم براءة الشقاوة ولا يلوم..

كانت صلاة العيد تقام في المساجد الكبرى في مدينة المكلا (الجوامع) ويكون المسجد الرسمي لصلاة العيد، الذي يحضر الصلاة فيه أحد (الرفاق)، هو مسجد عمر الأقرب إلى بيتنا، وهيأ لنا هذا الأمر فرصة مشاهدة كبار المسئولين في الدولة.

يلبس أغلب الناس ثيابًا متشابهة ذات ماركات محددة ويظهر الناس وكأنهم

من أسرة واحدة والسبب أن الدولة كانت هي التاجر، وعلى عينك يا تاجر، ولكنها تاجر لا يحرص على الربح. ومع هذا يتفاخر بعض الكبار والصغار - بخاصة من لهم بأرض المهجر أهل- بالملابس العصرية الزاهية، ويتبارى الكبار في عرض الفُوَط (المعاوز أو الصوارين) ذات الماركات المعروفة مثل: (بوقارورة) (بوفيل) (سمرندى) (بن علوي) (الباشا) وغيرها.. ويحرص البعض على بقاء أوراق الماركات التجارية ملصقة، والحليم تكفيه الإشارة.

بعد انقضاء الصلاة ينتشر الناس كل إلى مآربه، وبعد إنجاز مهمة الذبيحة وتناول الفطور يهرع الجيران والأهل بالزيارات المتبادلة والتهنئة بالعيد وتكون العيد فرصة لزيارة بيوت الجيران، وهو تقليد اقتصر هذه الأيام على معاودة الأهل، ولكن ما علينا.. نعود إلى العيد في المكلا أيام زمان ولاسيما في مجتمع الصغار، ووسط بهجتهم. كانت العادة عند الصغار هو معاودة الأقارب وانتظار عطية المعاودة، والبعض لا يكتفي بالأهل ويعاود الجيران القريبين والبعيدين!! وبراءة الأطفال تكسب.

بعد أن يفرغ الأطفال من غزوات المعاودة يرصد النابهون منهم الغنيمة، وهي في الأصل تسمح لجميع الأطفال لفتح بنود جديدة للميزانية وتتركز في صرفيات اللهو من مفرقعات ومراجيح وغيرها، ولكنهم لا ينسون قبل ذلك شراء أنواع من الحلويات يعز شراؤها في الأيام الخاليات.

وتعد عصريات الأعياد هي أوقات العيد أو الزينة الحقيقية، ولسهولة الحياة

وعدم امتلاك أغلبية أهل المكلا للسيارات، فإن أماكن تجمع العائلات وخاصة النساء والأطفال تكون في الأماكن القريبة، فسكان الديس يفضلون الجلوس على البساتين والمزارع القريبة وخاصة ما يعرف ببير بازنبور، وأهل الشرج يجدون متنفسًا على شاطئ بحر المكلا العذري الجميل ويتكثفون شرقا في البقعة بين مدرسة الجماهير ومسجد (ورْسَمَا)، وتكون لهم منطقة (الكود) سبخًا طويلًا لما بعد ما يسمى الآن ببقعة البرتقالة. أما سكان المكلا القديمة (برع السدة، الحارة، البلاد، حافة العبيد)، فكان يأوي نساءَهم وأطفالهم بحرُ المشراف وهي بقعة كانت مسورة وملاصقة بقصر السلطان القعيطي (يقع الآن في وسطها مكتبة الطفل). وستظل المكلا والبحر قصة لا نهاية لها..

وفي جو الفرح الطاغي، ووسط بحر الجمال المكلاوي والزينة كان لنا عالمنا..، والتراكم (الرأسمالي) المعمورة به جيوبنا يجعل النفر منا يبحث عن المزيد فينتشر الأولاد بالقرب من شاطئ البحر جماعات، وتتم المقامرة بلعبة الحفرة الشهيرة التي تعتمد على المهارة في قذف النقود المتفق عليها، فئة الشلن أو فئة النصف شلن وأحيانًا فئة الخمسة فلسات. وتتم اللعبة بمرحلتين، الأولى يقذف الأطفال بالنقود تجاه الحفرة، والأقرب إلى حافة الحفرة أو من ينجح بوضع النقود في جوفها يكون له الحق أولا في جمع النقود والقذف بها إلى الحفرة وما يتمكن من وضعه في داخل الحفرة يكون له وما تبقى من النقود تكون من حق الذي يليه في القرب من الحفرة حسب المرحلة الأولى، ثم الذي يليه حتى تستكمل النقود لتبدأ جولة جديدة بمرحلتين،.. وكل حسب مهارته.

أما الكبار فهناك الكثير الذي يشغلهم ويملأ وقت فراغهم، ففي غياب التلفزيون كانت الرياضة والمسرحيات والأفلام السينمائية والمقاهي والجلوس بمحاذاة شاطئ البحر، مجالًا حيويًا يحتوي ذلك الفراغ ويعانقه، ويكون لنا حظ من ذلك عندما يستجيب الكبار. وهذه المجالات لها قصة ليس هنا مكانها.. إن العيد هي عيد العافية عند العقلاء، والقناعة عند الحكماء، والرضا عند الصالحين. أما الأطفال في كل زمان ومكان فالعيد عندهم لها معنى واحد.. إن العيد عيدهم، وعيد الكبار من عيد الصغار. وعيد مبارك وكل عام وأنتم بخير.



سادسًا:

المكلا بملامح هندية

المكلا هند.. سينما

(إذا ما عجبتك الهند غشه إلى جاوا) قول مأثور في الثقافة المهجرية الحضرمية، نجده يتردد على ألسنة الناس ولاسيما البادية منهم. على أن الحقيقة التاريخية تقول: إن أجدادنا الذين دخلوا الهند آثروا البقاء فيها. وقليل منهم غادرها إلى مناطق الشرق البعيدة. وقد تمنى الشاعر الشهير يحيى عمر السفر إلى الهند عندما قال: يا مركب الهند يا بودقلين يا ريتني كنت ربانك. وحقق الله له ما تمنى.

وفي عمق الهند الحضاري الثري، وبحرها الزاخر، لمعت منارات وبطولات ومغامرات حضرمية سجلها الزمن بناصع العبارات. وكان لثقافة الهجرة والتنقل في حوض المحيط الهندي أن عاشت الهند معنا كما عشنا معها وأصبح بعض أهلها منا، وبعض أهلنا منها ودخلت أرضنا ومطابخنا ودورنا. حتى غدت المكلا في جانب من معالمها لوحة هندية جميلة، بروح حضرمية.

ولم تكتف الهند بما حققت ورسمت، ها هي تدخل في ثوب جديد بشهرزاد جديدة وشهريار جديد تروي في صمت وسلام حكايات وحكايات، مات خلالها نصف ليل المكلا ونصفه ما مات، وتعود شهرزاد وتروي وتروي وتمتد الليالي إلى ألف ليلة وزاد منها ما زاد.

وهكذا عشقت المكلا الهند، وشهرزادها، وانتظرت بشغف حكاياتها.. اليوم هو الخميس، موعد أهل المكلا مع الفيلم الهندي في السينما الأهلية بالمكلا دعاية الفيلم سبقته بأيام، (المطرّب) يدور في زوايا المدينة بميكرفونه اليدوي معلنًا اللقاء

الخطير، يبدأ حجز التذاكر بعد صلاة العصر، والحريصون على المشاهدة يأبون إلا أن يكونوا موجودين قبل ذلك الوقت بساعات، لقد فتحت شبابيك التذاكر. نحن غالبًا غير موجودين لأسباب تتعلق بضعف إمكانياتنا العضلية، فالأيام الأولى للفيلم الهندي في المكلا غالبًا ما تكون من نصيب إخواننا سكان الضفة الغربية (الشرج).

ولحكمة شهرزاد وصبرها، تروي الحكاية ليسمعها كل من أراد، وتعيدها لمن إلى حضنها عاد. نعم عشقت المكلا الهند بشهرزادها وشهريارها وهامت مع مغامراتها واكتوت بلهيب عشاقها، وشاركتها أحزانها، وفرحت بانتصار أبطالها، وسخرت من مصيبة أشرارها.

ويقترب موعد اللقاء، إنها حفلة السينما المكلاوية عندما كانت السينما متنفس أهل المكلا فيحرص الكثير على ارتداء الملابس اللائقة، والقادرون منهم ينعش نفسه بعشاء فاخر بحسب تلك الأيام، وهو وجبة الخبز مع اللحم المشوي الذي يوفره الباعة في الجهة المقابلة مباشرة للسينما، والكادحون يكتفون بشراء السندوتشات الخفيفة أو المسليات كاللوز والحنظل.

يتفاعل الكثير مع أحداث الأفلام الهندية، وتشتد وترتخي أعصاب الكثير بحرفية الفيلم الهندي الذي يجعل الشر سائدًا في أول الفيلم، ثم يمعن في لعبة الانتظار ويترك الإخوة غرباء عن بعضهم البعض حتى اللحظات الأخيرة حيث التعارف والانقضاض على الأشرار، ثم تأتي الشرطة لتفعل القليل الذي تبقى. وشفقة من المخرجين على المتفرجين هناك مساحة مهادنة عندما يغنى البطل لحبيبته التي تعلن في البداية الرفض والصد ثم ما تلبث أن تلبي نداء الحب، وفي

مروج الهند الخضراء ترتسم لوحة الهوى ومعزوفة الغناء الهندي وألحانه وموسيقاه التي يعشقها ويحفظها الكثير ويرددونها دون معرفة إلا للقليل من معانيها.

أوجدت هذه الأفلام قيمًا وميولًا خاصة عند المتفرجين المكلاويين ولاسيما عند المراهقين والشباب. فكم حلموا بوسامة البطل، وشجاعته، بل وقدراته الخارقة، وحاولوا تقليد أبطالهم المحبوبين فلبسوا كما يلبسون وتحركوا كما يتحركون. كما حلم الكثير منهم بالحبيبة والشريكة التي لا تنازل عن شعرها الطويل، وعينيها الواسعتين، وقامتها المعتدلة، وروحها المرحة غير المبتذلة.

ثم إن بعض القيم والمشاعر الهندية الشرقية لاقت صدى إيجابيًا عندما تناصت في بعض مظاهرها مع القيم العربية والإسلامية، كحب البطل الشديد لأمه وطاعته المطلقة لها، وإخلاص الأخت لأخيها وسخونة المشاعر الأخوية وخاصة مع لحظات التعارف بعد الغياب الطويل، ووقوف الطيبين مع الضعفاء والمهمشين، وتحدي المتنفذين. ولم يكن هناك تحرج أو خوف من إظهار العبادات الدينية الهندوسية فالمجتمع المكلاوي من الحصانة والوعي بحيث كان ينظر لذلك باستغراب ذكي. ولكن كثافة الألوان والمفارقات وتنوع المشاهد والإيقاعات وتوقع المزيد من المفاجآت تجعل القلوب تبحث عن مخرج وفرج ثم تأتي النهاية السعيدة.

وتستمر المكلا هند.. ويروي المشاهدون الأولون مشاهد الفيلم ويعبرون عن إعجابهم ببطولة البطل وجمال البطلة ويدندنون بما حفظوه من أغانٍ ويتمايلون. وتأبى مقهى (مضيِّس) الشهيرة الواقعة على ركن مدرسة الجماهير والمطلة على وادي سديد (العيقة) وساحل بحر المكلا الرقيق إلا أن تكون هندية

قلبًا وقالبًا ولا ينقطع صوت مسجلها عن الأغاني الهندية صباحًا ومساءً وتحرص على متابعة جديد الأفلام ملبية بذلك ذوق روادها الذين مع الألحان ينسجمون ومن مثل البطولة يتظاهرون.

وتستمر المكلا هند.. ويتحدث المعجبون عن الممثلين المميزين مثل: (دار مندرا)، (شاشكي كابور)، (راشي كابور)، (ميتاب)، (شنكر)، (فينود خان)، (بران)، (جيتندرا)، (سانجي) (سانجي كومار)، (رجندر كومار)، (ديفنان)، (فيروز خان) والقائمة تطول. ولقبت المكلا بعض أبطالها بأسماء خاصة فدار مندرا هو (بو صالح)، وهناك (عمر فولاد)، ويعرف الناس كل الممثلات، فهناك: (هيمامالين)، و(ممتاز)، و(زينات أمان)، و(ريكا)، و(شارميلا تاجور)، والقائمة تطول.. ويبلغ الإعجاب عند البعض بتعلم اللغة الهندية من خلال التردد على الأفلام ومتابعة الترجمة على شاشة العرض، وهات يا هندي.

وظلت شهرزاد تحكي وتحكي، وتستمع المكلا وتصغي، مهما طالت الحكاية ومهما تزاحم الفضوليون. وفي يوم من الأيام لم تجد شهرزاد مكانًا تحكي فيه حكايتها، لم تغادر شهرزاد المكان على الإطلاق. صحيح أنها دخلت البيوت على استحياء عبر وسائل جديدة لكنها لا تزال تشتاق لعودة أيام المشاهدة الجماعية ودفئها، وترنو لأولئك المتيمين الذين (**يا ما**) تغزلوا بها، وانتظروا حكايتها.



المكلا هند ..عائلات

تميز الوجود الهندي في سواحل حضرموت وعبر مسافات تاريخية بعيدة، بأنه عابر، ووقتي، ولم يحمل في جوهره صفة الهجرة والاستقرار. ولقرون ماضية احتضنت المدن الحضرمية الساحلية – لاسيما الشحر – السفن الهندية التجارية والمتعثرة أو الراغبة في الراحة والترميم أو المنتظرة رضا الرياح وسكوت غضبها، وسلامة طلعتها.

وهكذا عرف الهنود الشحر عن كثب، ثم فيهم من تخلّف لأسباب متنوعة! ومنهم من فتح الوكالات التجارية والملاحية، وقد ساعد على سهولة الحركة وسهولة التعامل عوامل عديدة منها: موقع حضرموت المتوسط بين سواحل الهند الغربية والمناطق المقدسة في الحجاز عبر طريق البحر الأحمر، والصفة الإسلامية لمعظم خطوط هذه المنطقة الساحلية، وتسامح المدن. ومصالح التجارة.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ومع تغير الخارطة السياسية في جنوبي الجزيرة العربية بدأ الوجود الهندي في هذه المنطقة يأخذ منحىً آخر، ففي هذه المدة أحكمت بريطانيا سيطرتها على عدن، وربطت ما حولها باتفاقيات ضمنت ولاءها و(صداقتها)، وفي حضرموت اختفت الإمارة البريكية في الشحر والإمارة الكسادية في المكلا وبرزت كل من السلطنة الكثيرية في داخل حضرموت، والقعيطية في ساحلها وأجزاء واسعة من داخلها.

تأسست السلطنة القعيطية بأموال هندية المنشأ، وبأسرة حضرمية يافعية

نصفها هندي، وبمساعدة بريطانية، وبهذا دخلت السلطنة القعيطية في الدائرة البريطانية الهندية. وعزز من ذلك الهيمنة البريطانية الواسعة في المنطقة وتداخل مصالح السياسة مع الاقتصاد، وارتبطت المنطقة بالروبية الهندية، وتسارعت حركة السفن التجارية الكبيرة التي بدأت تستخدم قوة البخار، وتمر بالطريق الجديد والمختصر بعد شق قناة السويس وافتتاحها عام ١٨٦٩م.

واستوعب ميناء المكلا الطبيعي هذه التطورات، ثم كانت هي مع موعد جديد في مطلع القرن العشرين حيث صارت عاصمة السلطنة الفتية وتوارت الشحر عن الأنظار.

وتدفق الهنود إلى هذه المنطقة العربية الجنوبية مستوعبين هذه التحولات، وتركزوا في مستعمرة عدن. ووضعية السلطنة القعيطية الخاصة ونكهة ساستها الهندية، وعلاقتها الخاصة مع بريطانيا، جعلت المؤثرات الهندية تأخذ طريقها عبر المؤسسة الرسمية بيسر، وليونة.

لم يكن الهندي في هذه المرحلة عابر طريق، كما في السابق، بل قدم حاملًا رؤية واضحة، وآلية جديدة، وغطاءً أمينًا، وتعددت مهام وأعمال هؤلاء الوافدين إلى حضرموت، فهناك التجار وأصحاب الوكالات التجارية، وهناك الجنود وموظفو الدولة والمعلمون، وهناك أصحاب الوظائف العالية، التي وصلت في أعلاها إلى وزارة الدولة القعيطية، عندما وصل إلى هذا المنصب جهان خان ١٩٥٧ - ١٩٦٤م، وفي أدناها المغامرون العصاميون الذين وفدوا بما يقال:

(يا ربي كما خلقتني). وفي الوظائف الوسطى المهمة برز منهم القضاة ومديرو الدوائر الحكومية، وقادة الفرق العسكرية، والأطباء.

ثم تكلمت المكلا بالهندي، واشترت بالهندي، وباعت بالهندي، ولم لا وهؤلاء هم (أخوال) سلاطينها؟ واستقر الكثير منهم بعائلاتهم وهناك من تزوج من حضرميات والكثير منهم من جلب عائلاتهم، وأصبح مألوفًا في شوارع المكلا الساري الهندي بألوانه الزاهية وهو يلف المناطق المهمة من أجساد حسناوات الهند.

وشكل سقوط السلطنة القعيطية عام ١٩٦٧م نقطة فاصلة في حياة المكلا الهندية أو الهنود المكلاويين، ولم يكن الأمر مفاجأة، فقد شدت بعض العائلات الرحال عندما شارفت بريطانيا على الرحيل وعندما رحلت، وظل البعض منهم ينتظر، وما انتظروا إلا قليلًا. وهناك من حسم أمره وربط أهله ونفسه بهذا الوطن وصبروا على حلوه ومره، كانت المكلا قد تآلفت مع الهند، والذي ارتبط بغير الحسن من (هندها)، رحل مع رحيل الاستعمار والسلاطين.

نعم قبلت مدينة المكلا (الثورية) الجديدة كل أبنائها، لم تكترث باللون والعرق. كان من العائلات الهندية مَنْ قد ترسخت جذورها في المكلا وظهر من أبناء بعضها الجيل الأول والجيل الثاني.

تركز سكن هذه العائلات في المكلا القديمة (البلاد) وسميت منطقتهم بحافة الهنود، وهناك من سكن في منطقتي الحارة وبرع السدة (حي السلام) ولعله أكبر دليل على قبول المكلا المدينة لجميع أبنائها بمن فيهم غير العرب، ومن

أسباب ذوبان هؤلاء في مجتمعهم ومدينتهم هو أن بعض من اشتهر بانتمائه الهندي، كان من رجال الصف الأول للجبهة القومية وهو الشخصية الوطنية المعروفة (خالد عبدالعزيز) بل كان ضمن أعضاء الوفد المفاوض لخروج البريطانيين من جنوب اليمن. وعائلة هذا الوطني الشاعر لها فروع ورجال ونساء انتشرت في أرجاء المدينة. وأصلهم كما يقول البعض منهم من قبيلة آل كثير الحضرمية الشنفرية.

ولن ننسى إن نسينا من العائلات الهندية عائلة الفنان الكبير محمد جمعة خان مؤسس الأغنية الحضرمية الحديثة. صحيح أنه توفي قبيل العهد الثوري ولكنه مكلاوي حتى الثمالة، ولد في المكلا ومات فيها، وأمه عربية من آل باعشن قرية قرن ماجد بدوعن، لقد مثل محمد جمعة خان سلاسة الاندماج والانصهار الهندي في مدينة المكلا عندما صاهر بين الكلمات والأنغام والألحان العربية والهندية، وشكلت إبداعاته هوية مكلاوية حضرمية خاصة، ولا تزال الأجيال تردد تلك الألحان، وتتغنى بها لتروي قصة التراحم وعمق الانتماء والوئام. ومن داخل دار الإذاعة المكلاوية حيث تنطلق عبر الأثير أغاني جمعة خان تأبى ابنته الصغرى إلا أن تكون قريبة من تراث أبيها حتى غدت مذيعة لامعة.

وفي حافة الهنود سكنت عائلة حسين إبراهيم ويلمع منها الدكتورة شميم أخصائية النساء والولادة وما تزال عيادتها عامرة بالمتابعين وطالبي الشفاء لخبرتها وسمعتها الطيبة. وقريبًا منهم يقع منزل الشقيقين إقبال وإسكندر إبراهيم

فاضل. الأول تقلد مناصب إدارية في مدينة المكلا منها مدير السينما الأهلية ثم مدير لمكتب طيران اليمن الديمقراطي (اليمدا)، ثم مكتب الخطوط الجوية اليمنية ببومباي. وفي الحافة نفسها يقع بيت عائلة آل راشد علي. وفي حي السلام وعلى الشارع الرئيسي والمقابل من جهة الغرب لقبة المحجوب تسكن أسرة آل محمد كانجي صاحب الصيدلية المشهورة، وفي هذا الحي سكنت أسرة الصحفي والشاعر الغنائي الراحل محمد مكرّم خان. وأسرة الفنان والرسام أنور غلام. وأسرة رحيم خان ومنها الشقيقان حامد رحيم لاعب الوسط لنادي الهلال ببرع السدة ومحمد رحيم لاعب الوسط لنادي المكلا. ومن الأسر الهندية التي عملت في المكلا فترات طويلة ثم غادرتها عائلة الدكتورة طاهرة والدكتور المعروف أحمد كفيل الدين الملقب (حمد كبش) صديق الأديب حسين شيخان، ومن العائلات التي سكنت منطقة البلاد أسرة بيار علي التي اختير ابنها الدكتور يوسف رئيسًا لنقابة أعضاء هيئة التدريس بجامعة حضرموت. وهذا الاختيار من قبل نخبة المحافظة له دلالاته الواضحة. وفي هذه الجامعة هناك الأستاذ الفاضل محمد الهندي شقيق لاعب المكلا الأنيق حسين الهندي. وعذرًا للعائلات التي لم أذكرها والهدف ذكر الأمثلة، ومقام الجميع كبير..

ولازدياد أعداد هذه العائلات تحرك مكان سكنها في الآونة الأخيرة في أحياء متفرقة من المدينة. وقد ارتبطت هذه العائلات برباط النسب والمصاهرة مع بعض أسر المكلا وعزز من ذلك إيمان المكلاويين المتنورين بقوة الترابط

الأخوي الإسلامي الذي يتجاوز في جوهره الترابط الجغرافي الضيق. وفي التفافة هندية أخرى في هذه المدينة نجد بعض العائلات المكلاوية من مواليد الهند أو من أمهات هنديات بل ويضاف إلى لقب البعض منهم لفظة (الهندي) و(هت يا عربية مكسّرة)..

إن الهنود المكلاويين أو المكلاويين الهنود، يعدون مكونًا طبيعيًا في نسيج وفسيفساء المكلا المدينة ليس فقط بوصفها دارًا من ديار الإسلام، بل أيضًا لأن هؤلاء الإخوان الأصهار والأنساب، ارتبطوا بروابط الانتماء الوطني والولادة والعشرة والجيرة وكفى بهذه العناصر أن تجعلنا وإياهم مكلاويين بنكهاتنا الطيبة المتنوعة.



المكلا هند.. أكلات

يقفز إلى الذهن دائمًا عند الحديث عن الأكلات الهندية بهاراتها الطاغية، وقبيل نهاية القرن الماضي بأربع سنوات سافرت إلى الهند في رحلة علاجية واستجمامية، وكان متوقعًا تناول أكلات الهند المكثفة بالبهارات، وما تحدثه من مشاكل سريعة في الفم، ولاحقة على المعدة. وكنت آخذ حذري، وما لم أتوقعه تغلغل الشطة (البسباس) في المبردات لاسيما الآيس كريم... في الهند الآيس كريم بالشطة!!! ولا مقارنة بين ما نراه غنيًا بالبهارات وما يرونه قليل البهارات. والوجبات الهندية (لحراشتها) وتنوع بهاراتها وتسيّد الشطة عليها، لاقت شهرة وقبولًا في مناطق كثيرة من المعمورة.

لم يكن المكلاويون بعيدين عن المطبخ الهندي وسخونته، بل شهد القرن الماضي لاسيما نصفه الأخير سيادة ملحوظة لثقافة المطبخ الهندي، وفي العدد الحادي عشر أغسطس ٢٠٠٨م من (جريدة) آفاق حضرموت الثقافية كتب التربوي الراحل علي عبدالله البيتي في عموده الرائع (شذى من الماضي) أن (الرز) لم يكن طعام الحضارمة، وبوصفه شاهد عيان قال إنه حتى ستينيات القرن الماضي لا يوجد في المكلا إلا مطعم واحد يقدم (الرز مع السمك)، وقال ما معناه إن البادية لا تعرفه في باديتها وفي المدينة لا تستسيغه. ولعله من عندها جاء المثل الحضرمي القائل: "لا في الرز قوة ولا في.... مروَّة"

إن الاستثناء لا يلغي القاعدة، لهذا كان أستاذنا يرحمه الله محقًا، ولكن (الرز)

كان معروفًا قبل ذلك بعقود وخاصة في حواضر حضرموت وعند الأسر الميسورة بخاصة التي لها علاقات قوية بأرض المهاجر، وفي ثلاثينيات القرن الماضي أشار الرحالة الهولندي فان در مولن إلى موائد الأرز مع اللحم التي قدمت له من الميسورين في بعض مدن الداخل. إن (الرز) متعدد الجنسيات وعندما نربط أحيانًا بين (الرز) والهند إنما نقصد الطريقة الهندية الخاصة بطهيه التي سوف نشير إليها. وقبل ذلك علينا أن نعرف باختصار ماذا كان يأكل آباؤنا وأجدادنا؟

قال شاعر حضرمي مشجعًا على الهجرة ومنفرًا من حضرموت:

محد يحلّش يا خلوفة عاد من حلها ما له قريحة
لي قوتها منقول من لبعاد ولا محلتها شريحة

ويقصد الشاعر الشعبي أن لا أحد عاقلًا يفضل العيش في أرض خلفاء قوم عاد وأنه لا يوجد فيها ما يشجع على البقاء.. والبيتان يحملان دلالات كثيرة وما يعنينا هنا قوله: إن قُوتها يأتي من الأرض البعيدة، وبيت الشعر يطرح مشكلة الأمن الغذائي العربي القديمة الجديدة، ومع هذا كان رزق حضرموت معقولًا بحسب قلة أمطارها وظروفها الاجتماعية، ولا نريد أن نذكر الأشعار المقابلة التي تذم الهجرة فهذا ليس موضوعنا.

كان المجتمع الحضرمي سهلًا باقتصاد يسير، وتنوعت أكلات الأجداد بحسب مناطق سكناهم. لقد أكل أجدادنا التمر والذرة والقمح وما تجود به الأرض بعد رحمة السماء، وإذا كان التمر قد عزز من صحة أهلنا في وادي

حضرموت، فخير البحر وأسماكه حافظت على توازن أهلنا في ساحلها، وفي البوادي والصحاري كان لبن المواشي مصدرًا مهمًا للعافية واستمرار الحياة.

حملت السلطنة القعيطية مشروع الدولة الحديثة. وبدأت الحداثة تشق طريقها بتدرج في أنماط وأنساق قيمية وسلوكية وحضارية متعددة. وكانت مدينة المكلا بوصفها عاصمة السلطنة مع موعد قريب لتلقف إشارات الحداثة. ودخلت هذه الحداثة من ضمن ما دخلت المنزل المكلاوي وفي المطبخ استبدل بالفحم (الصخر) الكيروسين، وفي مرحلة لاحقة أفران الغاز. ولكن ما يهمنا الوجبات ذات التأثير الهندي التي قلنا إنها غيرت ثقافة المطبخ المكلاوي.

ومن الوهلة الأولى نلاحظ هذا التأثير من خلال مسميات الأكلات المطبوخة مثل طبخة (الرز البرياني) وهي لفظة هندية ترددت إلى مسامعي في مطاعم الهند عند زيارتي لها، وهناك (البراوطة) و(الشباتي)، ويطلق على الخبز المطبوخ في الأفران العمومية (الروتي)..

بالنسبة (للرز البرياني) فيعد بطرق متعددة يتدخل فيها النفَس الخاص للطباخ ومهارته، ولكن في خطواته العامة تركز على طبخ (الرز) بالماء بشكل مستقل، وعندما يشارف على الاستواء يتم سكبه في قدر (طست) آخر طبخ فيه اللحم المقطع والمكتظ بأنواع البهارات، وقبل أن يترك للاستواء النهائي يتم وضع بعض الألوان والمكسرات بحسب الرغبة.

والطريقة السائدة في المطبخ المكلاوي - والعدني- طبخة الصيادية التي

تجهز بخلطة (الرز) منذ البداية مع البهارات المطعمة بالشطة الحمراء والطماطم المعلبة وأحيانًا بوضع السمك أو اللحم إلى أن يستوي. وخلطة البهارات هذه المستوية تسمى (التكشونة)، وربما دخلت هذه الكلمة إلى المطبخ المكلاوي من قاموس المطبخ الهندي، وحتى وقت قريب تفضل هذه الطبخة في ولائم الأفراح والأتراح التي تعد في قدور نحاسية كبيرة مجلوبة من الهند.

أما (البراوطة) التي تلعلع في المطبخ المكلاوي صباحًا وأحيانًا في المساء فهي مكون رئيس في وجبات المكلاويين رغم عيوبها الصحية، والبراوطة هي عجينة الخبز التي تجهز وتلف وتمد بطريقة رباعية الشكل وتطبخ فوق (الطاوات)، وتتميز البراوطة بكثرة دهونها سواء ما يوضع داخلها قبل الطبخ أو عند الطبخ عندما تتزحلق على الطاوة المعدنية.

والشباتي عجينة تشبه البراوطة في الإعداد ولكنها أكثر صحة. فهي تخلو من الزيت عند عجنها، وعند تجهيزها لا يستخدم لها إلا القليل من الزيت. إن التأثير الهندي على المطبخ المكلاوي يتعدى مسألة وجبات متشابهة إلى ما يمكن أن نسميه ثقافة البهارات والمقليات وإذا اعترف المطبخ المكلاوي بهذه المؤثرات، فإنَّ له نفَسه الخاص ونكهته الخاصة، وهكذا وكما تكلمت المكلا بالهندي أكلت بالهندي.. ثم انفتح المطبخ الحضرمي بانفتاح المجتمع كله وتنوعت الأكلات والمشهيات وزادت الخيرات، ولكن ظل المكلاوي وفيًا للهند، لهذا نراه يردد عندما يرى الطيبات والخيرات، ويريد التعبير عن سعادته بها، أو وصفها، يقول، بعد الحمد لله: "الدنيا هند"...

المكلا هند ...عمران

يا حصن مول البناقل محلى ركونك

خيفان بعد الزوامل ينعق عليك الغراب

كم وقفت وتأملت أمام هذا (الحصن) الشعري المحضاري المتين، ولكن لقلة باعي، وتواضع متاعي، أتعمد الابتعاد بيراعي عن باب اللغة والأدب فهناك كما أرى من هم من الاستعداد والمقدرة بحيث يستطيعون الولوج إليه بعلم واقتدار. وذهبت إلى باب أظن أنني أفهم فيه بعضًا من الأسرار، نحن الآن في قلب هذا الحصن نتأمل ركونه من عل، ونتنقل في بناقله بلا كلل، نبحث عن حكامه ونوابه، وساحات الزوامل القريبة من أبوابه.. لحظة.. في أماكن غير بعيدة نسمع نعيق الأغراب، لكن حصن محضارنا المهاب لم يكترث، ولا للفوضى استجاب.

في هذا الحصن كانت أول (مشاهدة) ومعرفة لي بالبناقل، وكان لا بد من المزيد،وشاهد وشهيد، يقول الدكتور مسعود عمشوش إن bungalow أو bangla في اللغة الهندية تعنيان: بيت منخفض محاط بالبرندات على الطراز البنغالي، وقد انتقلت الكلمة الهندية إلى الإنجليزية لتعني منزلًا صغيرًا يتكون في الغالب من طابق واحد، ويحتوي على برندات، وله سقف مائل، وذلك في بداية مرحلة الاحتلال البريطاني للهند.

إن البنقلة أصبحت مفردة من مفردات العمارة الحضرمية، ومثلها مثل بعض الأنماط المعمارية تداخل فيها الخارجي الوافد بالمحلي المتوارث. وانتشرت

هذه البناقل في مناطق مختلفة من حضرموت. وبدأت تأخذ أبعادًا متعددة، ففي بعض المناطق الساحلية من حضرموت تطلق البنقلة على البيت الفخم الذي يشبه القصر. وأحيانًا تطلق على المناطق البارزة المفتوحة من البيوت المسقوفة وغير المسقوفة، ولاقت البنقلة استحسانًا في الذائقة المعمارية المكلاوية لكونها تفتح مجالات للتهوية في بيئة تتسم بارتفاع حرارتها وشدة رطوبتها.

وبعد الحرب العالمية الأولى، استقرت السلطنة القعيطية، وصار أعداؤها أعداء الأمس (الكثيريون) أصدقاء، وقد بارك وصنع هذه الصداقة (الصديق) البريطاني في عدن. لم تعد السلطنة في حاجة إلى الكثير من الحصون، وكما في كل مكان، تدفع دواعي الاستقرار والأمان، إلى بناء القصر والبستان.

ومن هنا تبدأ قصة قصر (المعين)، الذي يعد العلامة الأبرز لمظاهر الهند العمرانية في مدينة المكلا. ولأن الخبرة المحلية لم تعهد بناء القصور الفارهة، ولأن ثقافة صاحبه وما عهده تختلف عن ما عهدوه، فقد استعان هذا السلطان بالخبرة الهندية جنبًا إلى جنب مع المهارة المحلية، ويتردد إلى مسامعنا أن جدي لأمي كان مشاركًا في بناء هذا القصر. ولفخامة البناء وغرابته في المدينة كان السلطان عمر بن عوض القعيطي يرحمه الله يتابع بنفسه الكثير من التفاصيل.

لقد بنى القعيطيون هذا القصر مع ما بنوه وشيدوه من بناقل وبيوت ومساجد ومزارع بأموالهم الخاصة، وتسحبني هذه الحقيقة التاريخية وأمانة الكتابة أن أقول: إن الحقوق الخاصة لا تبدلها تبدلات السياسة إلا بحقها، ولا تسقط بالتقادم وغير التقادم، على أن تكون الكلمة الأولى والأخيرة للقضاء، ونترك

للتاريخ محاكمة السياسة كما يشاء.

ويستمر البناء.. وتهيمن الكلمات الهندية على المكان، فكما استقرت (البقلة)، تمددت (الباغ) التي تعني الحديقة، وهي مظهر من مظاهر الاستقرار، ووسط البساتين (الباغ) بنيت القصور وفقًا للطراز الهندي، وحتى لا يشعر هؤلاء السلاطين بالغربة بين مساكنهم ومنتزهاتهم في الهند، ومساكنهم ومنتزهاتهم في حضرموت، واستكمالًا للوحة الجمال الهندية باخضرارها المعروف، حرص السلاطين على زراعة بعض الأشجار المجلوبة بذورها من الهند في هذه (الباغات) التي انتشرت في كل من مدينة المكلا والشحر وغيل باوزير..

وما يزال البناء مستمرًا.. وقد ارتبط في مخيلة الناس وعند الكثير من المؤرخين أن مبتدأ الحداثة في حضرموت كان مع السلطان صالح بن غالب القعيطي، ولكن هذا ليس دقيقًا، فخطوات الحداثة شقت طريقها في شكلها العمراني ابتداءً من السلطان عمر القعيطي. وكذا شهدت مدة حكمه البدايات الأولى للتأسيس الإداري المؤسسي للسلطنة. وسارع السلطان صالح بخطوات البناء المؤسسي للسلطنة بقوة، وتماهى ذلك مع تركيزه وريادته ورؤيته الاستراتيجية للبناء الثقافي والتعليمي في حضرموت.

ونعود ونبني.. ما يزال الخبراء الهنود في مكلانا منهمكين في بناء جامع جديد، أطلق عليه مسجد عمر (السلطان)، وتعمد السلطان على ما يبدو أن يكون المسجد فريدا في كل شيء وتنطق جدرانه ومحرابه وواجهته الأمامية ومئذنته وكل جزء فيه بلمسات وأنفاس معمارية، مخلصة، غاية في الروعة والإتقان..

شكرًا يا هند، شكرًا يا سلطان.

وكان لا بد أن تتحرك سدة المكلا الثانية إلى الثالثة المقابلة لوادي سديد (العيقة) المطلة من ناحية الغرب على منطقة الشرج.

ويستمر البناء في أرجاء المدينة، وداخل أزقتها وسدتها. ولكن بخبرة الفنان المكلاوي التي اكتسبها مع الزمن، ولأنه فنان التقط من هنا وهناك، ما يجمل البنيان، والجمال دائمًا بلا عنوان. لهذا نجده يستحسن بعض الأنماط المعمارية الهندية التي تتعلق ببعض تقاسيم البيت وعكوف الأبواب والشبابيك، مع انتباه لخصوصية المكان. ومنذ زمن بعيد وحتى الآن ما يزال هناك من يستحسن الشبابيك الهندية التي نصفها الأسفل مغطى بما يعرف بـ (الجالي) ويتكون من ألواح خشبية ساترة بها فتحات صغيرة، تسمح بالرؤية والتهوية.

بوقفات عابرة عند بعض البيوت المكلاوية القديمة، نلاحظ بوضوح المؤثرات الهندية في أبوابها الرئيسة (السدد)، حيث يحرص الميسورون على متانتها، وتزيينها بالمزخرفات النباتية المجلوبة من الهند لتعلن تحية الجمال، قبل أن يرسل من دخلها تحية السلام. وبجولة خارجية سريعة في حافة الهنود نجد بعض البيوت تطوق فواصل طوابقها بمحازم مزركشة تبعث الهيبة والاحترام.

المكلا لا تخجل من ملامحها الهندية بل تفتخر بها؛ لأنها خلقت من عرق وطين وماء..

ويستمر البناء.. يأتي الناس، ويرحلون، ويبقى البناء...

سابقًا:

سمر مكلاوي

قبيلة رؤساء التحرير

هذه القبيلة ليس لها شيخ المشايخ، أو رئيس الرؤساء، بل هي تجمع طوعي شكلته صداقة السنين، وأكدته زمالة العمل، وعززته تقارب الرؤى، وسجله تمازج الحرف مع القلم.

يكون هذا التجمع بكامل قوته عندما يسجل مكانه في حلقات السمر المكلاوية كل من الدكتور عبدالقادر باعيسى رئيس تحرير مجلة (حضرموت) الصادرة عن دار حضرموت للدراسات والنشر، والأستاذ خالد أحمد القحوم رئيس تحرير صحيفة (شبام الرياضية)، والدكتور سعيد الجريري رئيس تحرير مجلة (آفاق) الصادرة عن اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ساحل حضرموت، والأستاذ صالح الفردي رئيس تحرير (أخبار التربية) التي تصدر عن مكتب وزارة التربية محافظة حضرموت، والدكتور خالد بلخشر مدير تحرير الدورية النقابية لأعضاء هيئة التدريس ومساعديهم بجامعة حضرموت، وسمحت إدارته الكاملة لهذه الدورية أن يكون عضوًا فاعلًا في هذه القبيلة، وأخيرًا هناك الأستاذ سند محمد بايعشوت رئيس تحرير الموقع الالكتروني: (المكلا اليوم) الشهير.

وسط هذه القبيلة المدججة بالكتب والأقلام، والمتمترسة بالصحف الصادرة مع الأيام، والمحمية بقدرة رب الأنام، كان لنا وما تزال جلسات وجلسات، وعندما شعرت بغربة (قيادية) وسط هذه القبيلة الودودة وأعلنت ذلك مازحًا، استغل بلخشر هذه المزحة ليشاغبني كعادته بمزحة أخرى على طريقته

الخاصة ووعدني غير متوعد برئاسة تحرير أمر جديد ستكشفه الأيام. وهناك من أراد التخفيف وقال أنت تسهم بشكل أو بآخر مع كل هؤلاء بالمواضيع والمقالات فأنت من القبيلة، دمها من دمك، وطريقها من طريقك.

مضارب هذه القبيلة مفتوحة، تمتد بامتداد الضياء، ولها حلفاء كثر ولها أصدقاء، واللافت في أفراد هذه القبيلة أنهم جيل خماسيني فأكثر رجالها من مواليد ١٩٦٢ ومنهم من يتقدم بسنة أو يتأخر بسنة. ويستغل دائمًا الجريري خبر السنين ويذكر الغافلين أن ما تبقى في أحسن الأحوال يقارب ربع ما تقدم.

في أحد مجالسها القبلية طرح الدكتور باعيسى مسألة عزوف الجيل الحاضر عن القراءة وسطحية أفكاره، بل قال: إن هناك من طلبة الجامعة وبخاصة اللغة العربية من هم أبعد ما يكونون عن المكتبات، وأقرب إلى مقاهي الإنترنت ومواقع (الشات)، وتحدثت عن المكتبة السلطانية وأمجادها في عهد الحكم الشمولي وكيف كانت تعج بالرواد والزائرين، وذكرت كيف كانت زاخرة بأنواع المجلات والصحف المحلية والعربية وكيف دفعت هذه القراءة (السطحية) إلى التغلغل في الكتب المصفوفة بانتظام في دواليبها وكشف بعض أسرارها.

واسترجع بلخشر بداية القراءة عند الكثير من جيلنا إلى مجلات الأطفال المصرية الرائعة مثل مجلة سمير وميكي، وميكي جيب، وكيف تجمع وتستأجر أو تتبادلها أيدي الأصدقاء كأجمل ما تكون الهدية، ولا بد أن نشير هنا إلى أنَّ التلفزيون لم يشهده هذا الجيل إلا بعد مرحلة التعليم الثانوي أو في آخرها.

وحاول الدكتور الجريري أن يبقي شيئًا للجيل الجديد قائلًا إنه جيل يختلف عنا لا شك ولكنه له عوالمه وقدراته التي قد لا نلحق بها، واستعرض الصدفة التي جعلته في بلدته قريبًا من مكتبة أحد أقاربه العامرة وكان ذلك أول التلاحم مع الكتاب.

واستأنف الفردي حديث الكتب وأيام ولعه بها مع صديق عمره الصديق طه حسين الحضرمي راويًا ما وصفه بمنجم عدن من الكتب قبيل تخرجهما من الخدمة العسكرية الإجبارية عندما عثرا على مكتبة قديمة سمح لهما صاحبها بدخولها بعد أن لمح شغفهما بالكتب. كان الصيد ثمينًا وكان السعر زهيدًا.

وذكّرت الأخ سند الذي حضر متأخرًا بمكتبة والده العامرة وندرة بعض كتبها ومجلاتها التي أتيحت لي في أثناء إعدادي لرسالة الماجستير مستغلًا ذلك في تأكيد الشكر، وإظهار الامتنان.. واستمر السمر في الكتب والأقلام، إلى أن لاحت ساعة المنام.



لغتنا الجميلة وكيف نحافظ عليها

شهدت قاعات مركز بلفقيه الثقافي بالمكلا اليومين الأخيرين للأيام الثقافية السعودية في اليمن وكانا يومين مفيدين وممتعين، امتزج فيهما الرسمي بالعفوي مع سيطرة لافتة للرسمي من الجانبين، ووسط ضفاف الرسميات مضت الثقافة بثقة وهدوء وحياء. كانت فقرات الأيام مضغوطة ولم تعط سويعاتها الليلية فرصة للحوار وتبادل الآراء، لهذا ترحلت هذه الحوارات إلى ما شاء لها الله أن ترحل، وتحل، ومن ذلك حلقات السمر.

وكان لرجال حلقات سمرنا المتخصصين في اللغة العربية وجهة نظر عبروا عنها همسًا في أثناء الفعاليات وجهرًا وسط الحلقات، وهي في الأخطاء اللغوية التي ميزت بعض الأوراق القصصية والشعرية من الإخوة الضيوف رغم تقنياتهم الحديثة العالية في الكتابة. وقد أثارت هذه الأخطاء اللغوية حفيظة أحد الضيوف السعوديين وتكلم عنها بشفافية واعية، ودعا إلى الاهتمام باللغة العربية وقواعدها.

وقد سحب الدكتور عبده بن بدر السامرين إلى سخونة الحدث والموضوع عندما تساءل عن التمازج الغريب بين تقنيات المبدع السردية الحديثة وبين أخطائه اللغوية، وهل قواعد اللغة الصارمة معيقة للإنتاج الأدبي الإبداعي أو أنها (أي القواعد) غير ضرورية؟ وكان لا بد من الدفاع عن اللغة العربية من فرسانها فحمل اللواء الدكتور باعيسى قائلًا إن قواعد اللغة العربية وأي لغة هي محور حياتها، ثم بدأ يتغزل في لغتنا العربية مشيرًا إلى أنها غنية بمفرداتها واسعة في

دلالاتها، وأنَّ مسمياتها ومصطلحاتها دخلت في تفاصيل الحياة اليومية وهي قادرة على أن تستوعب كل جديد.

وعبر الجريري عن امتعاضه من الأخطاء اللغوية الشائعة في الأعمال الإبداعية عمومًا، ولاسيما تلك التي يمكن تلافيها، ولكن كان طرحه بطريقة أو اتجاه يمكن وصفه بتيار الحمائم. وضع فكرة أخرى وهي ضرورة اختصار دروس قواعد النحو في المدارس والجامعات بحيث تكون مادة محببة للتلاميذ والطلاب؛ لأنها تحولت إلى مصدر من مصادر عزوف الكثير من الطلاب عن عشق لغتهم العربية بل وكراهيتها، وقال لا بد من شيوع ثقافة جديدة تجاه اللغة العربية مفادها أن النحو ليس اللغة العربية، منتقدًا بعض المدرسين الذين يحولون مادة ودروس النحو إلى مادة نظرية وليس مادة تطبيقية أو في الأقل عدم الجمع بين الجانبين.

واستشعر قائد اللواء (د/ باعيسى) بحساسيته الخاصة التراخي في أحد أعمدته، ورجع (صقرًا) قائلًا: إن لغتنا العربية هي العنوان الرئيس لهويتنا، ثم إنها لغة القرآن بل يعطي البعض حروفها صفة القداسة ذلك أن خط القرآن الكريم رسم أول ما رسم بحروفها. وحلقت الحمائم فوق الصقور مؤكدة على ما تقول، ولكنها بصوتها المميز الداعي إلى أن تكون هناك (أمة) من النحاة تسهر على قواعد اللغة وتؤلف فيها ما شاء لها التأليف ولكن دون أن يكون ذلك تيارًا صارمًا مفروضًا على الجميع، مؤكدًا أن اللغة العربية تستطيع أن تتواكب مع المتغيرات

وقابلة لاستيعابها بل والإضافة عليها.

واستبدل بن بدر لغة التسخين إلى لغة التبريد في محاولة منه لتهدئة الصقور وملاطفة الحمائم، وجر السامرين إلى جبهة أخرى في الميدان نفسه وقال: إن الأتراك عندما استبدلوا بالأحرف العربية الأحرف اللاتينية لم يخسروا كثيرًا بل لعلهم كسبوا، كما أن الإيرانيين عندما استخدموا الحروف العربية في لغتهم بدلًا عن حروفهم الأصلية لم يؤثر عليها، ولم يعدوا ذلك ضربة لتراثهم القومي القديم.

واستهوتني الموازنة وقلت: إن التجربتين بحاجة إلى الدراسة من الداخل حتى نستطيع الحكم عليهما ولكن وجهة النظر الأولية تقول: إن الإيرانيين أكثر واقعية عندما استخدموا الحروف العربية لغة القرآن فبوصفهم مسلمين فهم جزء مهم من الثقافة الإسلامية التي أصلتها عشرات القرون منذ الفتح الإسلامي لهذه المنطقة، أما الأتراك فما يزالون يعيشون صراع (الهوية) بين رغبة ساستهم (التيار الأتاتوركي) الجامحة في التخلص مما له علاقة بالشرق والارتماء بلا احتياط في الحضن الأوربي وجذور هذا الكيان الإسلامي الكبير الذي يرغب في الاندماج بشروطه الخاصة. وحقائق الجغرافية السياسية والحضارية جعلت الأتراك يعانون معضلة هذه المعادلة الصعبة. أوربا تدرك أن هذه اليد التركية الممتدة تجاهها معظم أجزائها يقع خارج قارتها، لهذا وغيره هي مترددة. أما الأتراك فلسان حالهم يقول: (ببيع اللي شاريني، وبشتري اللي بايعني)..

وعادت الصقور هادئة إلى مواقعها ثم مدت خطوط الحوار إلى بعيد

وقالت: إن استبدال الأحرف العربية والاندفاع نحو التغريب هو حديث قديم جديد كانت ميادينه الصحافة المصرية والسورية منذ أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الماضي، وجرت معارك كبيرة بين تيارات متعددة أحدها ينزع إلى التغريب بلا حدود، وآخر مغاير، وثالث بين بين.

وحديث الزمن أعادني إلى ميدان الحوار، وقلت: إن الاحتلال الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨م يحمل في معانيه الجوهرية الصدام الحضاري بين الشرق والغرب حتى عد البعض مدافع نابليون بمثابة جرس إعلان اليقظة العربية، وهذا الاحتلال يعد أيضًا لقاء بين عصرين مختلفين بمسافات في غير صالح العرب، وكان لا بد من اللحاق بالمتقدم، ولكن المتأخرين اختلفوا في الكثير من التفصيلات ولا يزالون يلهثون..

وعدنا إلى اللغة العربية وأهميتها في حلقة مستقلة، ذكر البعض أن الإسرائيليين يحاولون جعل لغتهم من اللغات العالمية المعترف بها، رغم أنها ليست من اللغات الحية، ولقرون حافظوا عليها في محيط من البشر واللغات والمخاطر. لهذا أكد بعض السامرين أن لغتنا العربية هي سر قوتنا، ومفتاح ترابطنا، ورمز لهويتنا. وإن ظلمنا لها في أن نجعلها لغة متحجرة منفرة معزولة عمَّا حولها من ثقافات.

وهناك من امتدح الطريقة الهندية في عشق اللغة الإنجليزية وجعلها لغة التخاطب مع الذات ومع الآخر دون المساس بالهوية الهندية، وقال: إن الهنود

تكلموا مع العالم لهذا هم صنعوا كل شيء، وذكرنا بعضنا بمقولة غاندي الشهيرة: "سأسمح للتيار أن يدخل من كل نوافذي، ولكنني لن أسمح له أن يقتلعني من جذوري".

ونحن بدورنا سمحنا لتيارات خور المكلا أن تنعش أجسامنا، ولكنها تمكنت من اقتلاعنا من كراسينا..



ليالي مِلاح.. ربانها مَلاح

المكلا والبحر والسمر، ثلاثية متماسكة في ليالي المكلا الهادئة كأهلها، لا مكلا بدون بحر، ولا بحر بدون المكلا عند المكلاويين، ودائمًا عندما يحضر البحر عند المكلاويين تحضر المكلا!!! وتحلق نسمات السمر وبشائر المطر وهمسات القمر، وقفشات من حضر، وتزداد حلاوتها عندما يكون ضيفها من بندر سعاد المشتهر.

في خور المكلا وأمام مقهى الباطنية الثانية أتانا البحر طائعًا، شاكيًا الهجران، وعبث الإنسان، ولولا المحبة لاستحيا، ولولا الصبر لانطوى. وعلى ضفته الغربية انتظر الحاضرون وصول الرجل السهل الكبير، وبحسب موعد اللقاء حسبت عليه دقائق من التأخير. وعندما جلس في مجلسنا ولاقى منا الحفاوة والتقدير، اعتذر بطريقته الشحرية الخاصة عن التأخير وصب جام (عتابه) على ابنه المحامي عبد الناصر واصفًا إياه بالمناضل، ويرد المناضل عبد الناصر عبد الرحمن عبد الكريم الملاحي أن من شابه أباه ما ظلم وأعاد الكرة في ملعب أبيه وحمله سبب تسميته عبد الناصر (الزعيم) عندما كان زعيم العرب وفارس (ال....). وأمام زحمة الجدل الشحري الملاحي الأسري (الأخوي) وطرافة الموقف، انطلت على الحاضرين فرصة طلب الحساب..

وجرفنا حديث الصحة والمرض والفحوصات إلى رواية الملاحي الكبير عن تغذية الصيادين الأصحاء وتتبع وجباتهم اليومية حسب وصف صياد شحري

له. ومما فهمنا أن التمر والسمن البلدي وسليط السمسم (المعصرة) كان من أسرار الصحة، وأصل الغذاء عند الصيادين، أما عن موائد السمك عندهم فحدث ولا حرج.

ويستفز حديث الأكل والموائد الدكتور خالد بلخشر، وتحدث عن حكاية من أيام التجنيد الإجباري والمشاريع العسكرية والمناورات فقرص الخبز الذي زود به (براوطة) في أحد هذه المشاريع وضعَه داخل دبابته حتى تأتي ساعته المكتوبة. وكان لتعثر دبابته في المسير أن استقبل زخات الغبار من جميع العابرين وبعد ساعات طويلة من التعب والجوع تفقد بلخشر طعامه فإذا به مغطى بطبقة من الرمال كان عليه في البداية إزاحة جزء منها بالتحريك، وجعل ما لصق به صبغًا فيه أذى للآكلين

وفي قصة مشابهة وفي صحراء حضرموت يذكر الأستاذ صالح الفردي اضطراره لأكل أقراص من الخبز طبخت على الحجر كان في أول الأمر قد تعفف منها فإذا الجوع بعد رحلة معاناة يجعله يلتهمها بل ويتلذذ حتى حين روايته بطعمها البعيد.

ويستغل الملاحي قصة الفردي والغذاء راويًا مصيدة الفردي له عندما استدرجه الساعة الثانية ظهرًا إلى حوار تربوي مسجل عبر التلفون ومن رواية شيخنا عرفنا أن الفردي لم يرحمه وتركه جائعًا لأكثر من ساعة رغم أن طعامه أمامه وهكذا فإن سخونة اللقاء وحميميته قابله برود في غداء شيخنا. ونسي

الفردي أن شيخنا كان مستعدًا أن يقابل جيشًا ولا يقابل عيشًا.

ويعود الملاح ويمسك دفة الكلام ويتوجه إلى الدكتور سعيد الجريري معلقًا على بعض الرمزيات في إحدى مواضيعه وتغلب لغة الإشارة على لغة الكلام بينهما. وكان رمز اليد بريد الإشارة، بين بيت الملاحي، وبيت الجرارة، ويتضاحكون ولا نفهم كل الكلام وبالتصريح لا يبادرون.

وكما هو معتاد يمزج الدكتور الجريري في جلسات السمر بين الجد والمرح، ففي موضوع جانبي يتحدث عن أزمة المثقف العربي وتناقض شخصيته وصراع القديم والحديث في داخله، ويذكر أن من الحداثيين من يكتب ويقول ما يستهجنه في حياته الخاصة. ولكن ما لا يعرف من شخصية الدكتور الجريري هو خفة روحه المنتمية للشحر وشرقها، وبين الفينة والأخرى يسعدنا بموهبته المتمكنة في تقليد البعض من الشخصيات ذات الأصوات المميزة، وتكمن براعته في تشابه الأصل مع التقليد، وأغلب الأحيان يصعب التمييز بينهما.

ويطول السمر ولا يترك الربان أحدًا إلا (وينطشه) بالماء والنسمات والبسمات ويبادل الأستاذ خالد القحوم الملاحي هذه النطشات بالنطشات ووسط أجواء الفرح يختصر المهندس عبدالله باوزير جديته ويتمتع معنا برحلة الربان ثم لا يخفي محبته له ويقول في العلن ما نقوله في السر، وهو أن شيخنا الملاحي يعد سراج الشحر والوطن، وبجديته المعهودة يتألم باوزير؛ لأن شيخنا لم يكرم التكريم الذي يستحق ولكن ملاحنا المتابع للطريق يعيد الأمور إلى

نصابها مؤكدًا أن تكريمه الحقيقي في المحبة التي يسبغها عليه الأصدقاء وقد صدق. فهي - أي المحبة- أكبر من شهادات التكريم المغلفة بـ(.... و .....)

ويبزغ فجر الرحيل وتفرح شهرزاد بأمل عودة اللقاء..



الثقافة الجنسية وإشكالية النظرية والتطبيق

في وادي حضرموت يقولون: "لا يحلى السمر إلا بصوت الدان" أما في مدينة المكلا فإن السمر بلا عنوان.. مفتوح كالبحر، حر كالشواطئ، متجدد كالأمواج، وفي زوايا متنوعة من المدينة تنتشر حلقات السمر، وتحتل المقاهي منطقة الصدارة في هذه الحلقات. موقع حلقتنا الرئيس مقهى الباطنية الثانية على الضفة الغربية من خور المكلا (الحزين)، وتقذفنا أحيانًا كآبة النسمات إلى البحث عن شواطئ جديدة غالبًا ما تكون في مقهى الباطنية الثالثة مقابل مطعم الساعة الجديد. لا بطل في حلقتنا إلا من حضر.

اليوم كان قريبًا من دفة السمر (سعيد الجريري)، لهذا حرك الاتجاه إلى عوالم المناهج الدراسية وإشكالية المعلومة الجنسية، وطرح سؤالًا مهمًا ومحددًا وهو: هل نحن في حاجة في منهاجنا الدراسية للصف الخامس الابتدائي إلى ذكر الجماع عندما نتحدث عن مبطلات الصوم؟ أم أن الأفضل تأجيل هذه المعلومة الشرعية الصحيحة إلى مراحل دراسية لاحقة؟ وانفتحت شهية السامرين للحديث، وكان واضحًا أن المدرسة أحالت تفسير لفظة (الجماع) إلى معظم البيوت، ومنها بيوت السامرين. وكانت الإجابة المغلوطة رغم دبلوماسية المخارج هي السائدة!

وعودة للتساؤل الجوهري قال البعض: إن المعلومة الجنسية في معظم مجتمعاتنا العربية وربما الإسلامية تدخل في عالم الغموض والمحرمات

أو المكروهات أو في قائمة المؤجلات وبالتالي فإن القضية ليست قضية المدرسة فقط بل قضية البيت والمجتمع كله والمدرس شأنه شأن أفراد المجتمع هو ضحية الثقافة الجنسية لمجتمعه، وتسببت هذه الثقافة غير السوية في اهتزاز الكثير من الأسر وخراب بعضها.

وفي إجابة مباشرة وتوفيقية قال أحد السامرين: إن بقاء لفظة الجماع بوصفها من مبطلات الصوم لا بأس بها مثلها مثل بعض المعلومات التي يعرفها الطالب دون أن يفهمها الفهم العميق على أن تفسر اللفظة في الصف تفسيرًا مرنًا، كأن يقول المدرس لتلاميذ الصف الخامس أو السادس الابتدائي: إن الجماع هو نوم الأبوين أو الزوجين وتقاربهما في الشهر الفضيل أو عند الصوم. ويتدرج توصيل المعلومة مع تقدم المراحل الدراسية وبالتناسب مع المواد العلمية التي تتناول الجهاز التناسلي عند الرجل والمرأة.

لم يرق هذا الرأي (لأحدهم)، وكان مدفوعًا بتجربة قريبة العهد لأحد أبنائه الصغار، وقال متوجها لصاحب الرأي الأخير: يبدو أنك تعيش في عالم معزول ومثالي، إن المعلومة الجنسية أسرع مما تظن، وتتساقط على الجميع عبر الوسائل الحديثة مهما حاربناها، وكما أخذنا معلوماتنا الجنسية من الشارع يأخذها أبناؤنا من الشارع، ففي الأيام القريبة دخل عليَّ أحد أبنائي مرعوبًا، وكان مبعث الرعب معلومة مباشرة سكبت في رأسه عن الجماع بين الوالدين، وكان علينا أن ندافع عن شرف العائلة.

ثم وجه الكلام إلى الجميع: يا إخوان، نحن نكذب على أولادنا مع علمنا أنهم لا يصدقوننا أو أنهم سيكتشفون كذبنا عاجلًا أو آجلًا ومع هذا ندعي الحكمة والوقار، وقال ثالث مقاطعًا: هل تقصد أن نصدق مع أولادنا مهما كانوا صغارًا؟ لن يحترمونا وسنسقط من أعينهم! كان الجواب سريعًا: نعم نبدأ بالتدرج من البيت ولكن لا بد أن نسبق الشارع بل والمدرسة والمهم أن يفهم أبناؤنا أن الجماع ليس شيئًا بغيضًا في حد ذاته، إلا إذا حدث خارج الزواج.

استحسن السامرون هذا الرأي العقلاني والجاد، ولكن هناك من أراد أن يكون جادًا ولكن بطريقته المرحة الخاصة، وقال راويًا تجربته الخاصة مع العادة السرية بأنه اكتشفها بالصدفة، ومن أصدقاء الحافة ولاسيما عندما صعد إلى الصف الثاني الثانوي وقال: إن أصدقاءه استغربوا جهله بها وهمسوا برجولته الغائبة، وكان عليه أن يخوض حربًا لإثبات الرجولة لنفسه ثم لأصدقائه، وهكذا تغير مفهوم الرجولة عنده مائة وثمانين درجة.

وطال السمر.. وتشعب الحديث.. ولكن اتفق الجميع أن البيت هو الأساس، والتربية الدينية الإسلامية السليمة الواعية هي صمام الأمان. ثم كان لا بد لسفينتنا من مرفأ وبر، فمهما طافت وحلقت ليالي السمر، لا بد لها من مستقر.

ودائما تمضي المقادير

كالقدر المحتوم جاءوا زرافات، لا مكان للجلوس على الكراسي في مقهى (الباطنية٢) فأصحابها ومن أتوا بهم، تركوا كراسيها تحتضر، دون رحمة أو شفقة، وكان لا بد علينا تجبير المكسور، وتعزيز المجبور، لترتاح الظهور، وهو فعل اعتدنا عليه شهورًا بعد شهور، ولا ستر لما هو مشهور.

بعد مرحلة الكفاح من أجل الجلوس علق أحدنا بلسان حالنا: لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي.. ولكننا سلمنا بالأمر تسليمنا للقدر خيره وشره. وهذه الليلة (القدرية) فتحت أبواب الحديث عن حكايات المقادير على مصاريعها.. ودخل بلخشر برفق في دواخلي عندما استدرجني لسنوات (النضال) قبل أن تعود الحقوق لأصحابها. ولأن بلخشر يهوى صيد الأسماك فكان الطعم والصياد، وكانت الصنارة، وعلق الصيد..

كانت مفارقة مريرة في حياتي عندما ذهبت إلى عدن بعد تخرجي في الجامعة (البكالوريوس) فكان لا بد من تسلم شهادة التفوق العلمي في يوم العلم ١٠ سبتمبر ١٩٨٩م، وفي الوقت نفسه كان لا بد أن أشد الرحال إلى محافظة أبين مدرسا لمادة التاريخ في مدارسها حسب النُّقلة الوزارية. ودائمًا في دول التخلف يتحول المتفوقون غير أصحاب الحظوة إلى أرقام في عالم النسيان والبهتان، وأسميت هذه السفرة في سري (تكريم وتركين).

سبقني زميل شحري إلى مكتب التربية بأبين أخبرني أنه من أيام يحاول أن

يبحث عن مخرج ليعود مدرسًا في حضرموت، وبعد المقابلة السريعة بحضور الشحري كنت أحمل أوراق التحويل إلى الوزارة ومنها إلى حضرموت.. نظر إليَّ الشحري وسكت، وسكت ونظرت إليه، فأجهشنا بالضحك..

وهكذا دفعتني المقادير من سهول أبين الخضراء، إلى مرتفعات حجر (الحمراء). كانت تنتابني مشاعر الألم عندما أرى أن ما أظنه حقي في العمل في الجامعة تقل فرصته لأسباب تتعلق بغياب (العدالة)، ولكن الإحساس بالفشل الداخلي لم يعترِ عقلي الحزين البتة، لقد اجتهدت قدر طاقتي، وفعلت أقصى ما أستطيع ولم أتنازل على حساب المبدأ. كنت راضيًا عن نفسي بل و..... بها، لهذا ارتحت ونمت. وبعد أربع سنوات معلمًا في ثانويات حجر والمكلا، أعلن تلفزيون الجمهورية اليمنية من عدن فتح باب التسجيل للدراسات العليا قسم التاريخ.. صباح اليوم التالي كانت رسالة طلب الترشيح للدراسة في مكتب نائب مدير المكتب بالمحافظة لانشغال المدير.. وهبت رياح وكادت الورقة أن تجتث من جذورها أو هكذا كنت أرى وأشعر، ولكنها بعناية الله ذهبت إلى قدرها المكتوب في اللوح المعلوم وأصبحت طالبًا في السنة التمهيدية لبرنامج الماجستير جامعة عدن..

كان السامرون متابعين، ولمشهد نهاية القصة منتظرين، ولكنني آثرت ألا آكل وحدي ساعات صيد السمر، وتعلق في صنارة بلخشر صديق جديد وروى كيف كان يعشق اللغة الإنجليزية ثم أصبح متخصصًا في اللغة العربية، فبعد أن استكمل المرحلة الإعدادية ذهب إلى أحد معاهد عدن التقنية عندما علم أنها تدرس باللغة الإنجليزية وفشلت عدن في أن تعطيه عشقه وما تمنى، ليعود طالبًا

في ثانوية الشحر دون أن يعلم شروط العودة، وتسليم ما عليه من عهدة.

وتمضي المقادير.. إنه الآن يسبق اسمه حرف الدال، وهو أهل له، ولكنه كما يقول لا يعشقه ويردد القول: إن حرف الدال دس قبل كثير من أسماء لا تستحقه، فأفقده معناه الكبير، وحقيقة الأمر أن هذا الصديق (السعيد) رغم مشاعر الاحترام التي بيني وبينه عندما أحاوره بلغة الأحرف والكلمات ينقلب إلى رجل عنيد، فكم كسر ما رفعته وكم جر ما ثبته وكم نصب على ما سكنته، وعندما يسكت عنه الغضب يفعل في بعض كلماتي عكس فعله الأول. ولله في خلقه شؤون.

وتمضي المقادير وما تزال الصنارة تبحث عن صيد جديد، وبلخشر رجل بطبعه قنوع، ولكن صيد الخور السهل جعله يقول هل من مزيد؟ وغمزت الصنارة فإذا الخير وفير.. ويروي (الفريد) روايته، كنت الأول على دفعتي في قسم اللغة العربية وعندما حالت الظروف الكثيرة دون تحقيق رغبتي غادرت أرض الوطن مغاضبًا إلى مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية وهناك عملت في مجال بعيد عن تخصصي وهو مشرف أول على مركز تجاري لأحد التجار السعوديين، ومكثت هناك ثماني سنوات متتالية، خلالها ودعت القلم ولكنني أبقيت على علاقتي مع الكتاب.

ثم حدثت لي حادثة جعلتني أعيد التفكير في مجرى حياتي فشاء الله أن أتعرض لحادث سير بالسيارة كتب لي بعدها حياة جديدة ولكن بعد خياطة ٣٢ غرزة في رأسي، وبعد أن شفيت قررت العودة إلى مدينتي المكلا وأصبح

مكانُ عملي بدلًا من أسواق الرياض الواسعة العامرة محلًّا للأقمشة في أحد شوارع المكلا الضيقة في سوق النساء. ثم هيأ لي الله من يشجعني على العودة إلى المدرسة مكاني الصحيح، وعدت إلى القلم بقوة.

واقترب الأستاذ خالد القحوم من الصنارة.. وقال: بعد تخرجي من الثانوية واستكمالي لسنوات الخدمة العسكرية الإجبارية كانت ميولي في المجال الإعلامي والصحفي وكنت لا أرى نفسي خارجًا عن هذه الدائرة ورفضت فرص بعثات خارجية في تخصصات أخرى انتظارا لفرصة تتناسب ورغباتي الملحة، وطموحاتي البعيدة. وفي لحظة من لحظات اليأس قبلت منحة دراسية إلى الجمهورية العربية السورية في الاتصالات البريدية، وعندما تخرجت عملت في مصلحة البريد حسب دراستي ولكن كما قال الشاعر: نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول، فاستأنفت نشاطي الإعلامي جنبًا إلى جنب مع عملي الأساسي، ثم فُرغت في العمل الصحفي نائبًا لرئيس تحرير صحيفة شبام الأسبوعية المكلاوية، وعشت مرحلة انتقالية صعبة أصابتني بنوع من الإرباك والتشتت، ووصلت إلى مرحلة لا بد فيها أن اختار جانبًا واحدًا، فاخترت ما أحبه وأجد فيه نفسي وهو العمل الصحفي والإعلامي..

لا يزال الصيد وفيرًا، ولكن الصياد آثر النفير، ومضى في شأن قد قدر له تقديرًا..



سمر وسمسرة

اشتكى أحد السامرين من قلة الحال فبعد سنوات الدراسة الطويلة والصبر في الوطن يكاد الحال هو الحال، لا أمل في بناء البيت المتواضع، وأصبح اقتناء سيارة متواضعة حلمًا عبيطًا، وقال أيضًا: إن السقوط الشهري في الديون قدر محتوم، ولكنه أكد أن آخر خطوط الستر حتى حينه مأمونة، وتساءل أحد الضيوف هل البقاء في الوطن كان قرارًا خاطئًا؟ ووضح سؤاله قائلًا: إن زملاءنا الذين اغتربوا أو هاجروا بعد الثانوية العامة اختصروا الكثير من المسافات، فأكثرهم يملك البيت المعقول والسيارة المريحة، ولو حسب متوسط راتب هؤلاء الشهري مع راتب الصامدين في الوطن لكانت النتيجة محبطة، ولو أحصينا ما كسبه وما سوف يكسبه الصامدون في الوطن حتى الإحالة إلى المعاش، إذا أطال الله الأعمار، وما كسبه المغتربون في السنوات الخوالي كان البون شاسعًا.

تصدى البعض للغة الأرقام المرعبة، وقال: صحيح نحن في الوطن نتحرك تحرك السلحفاة ولكننا أكثر حظًا منهم، وأهدأ بالًا، فنحن في وطننا وبين أهلنا، صحيح نشكو ألم الأيام، ولكنهم يشكون مرارة السنين، لهذا سعادتنا في الأعماق وسعادتهم فوق السطح. وقال آخر مقاطعًا: إن السعادة مفهوم نسبي أو متحرك لا يمكن حصره، وقد عجز الفلاسفة والمفكرون في إيجاد تعريف محدد للسعادة، ومن الناس من يجد السعادة في المال أو في الأكل والسفر أو في المناصب أو في الصحة وغيره، ولكنني أرى أن السعادة تكمن في القناعة الحقيقية والتسليم بقضاء الله في كل الأمور، والرضا عن النفس بعد الأخذ بالأسباب.

وتلطيفًا لجو السمر فتح صديق جبهة جديدة فيها من الغمز واللمز الشيء الكثير فقال: على الإنسان أن يدبر أموره ويبتعد عن الفلسفات والتخيلات والأحقاد، ففي صروح تعليمية كبرى في المحافظة يوجد دكاترة رغم راتبهم المريح يمارسون السمسرة في أمور كثيرة دون خجل بل يتباهون بذلك، لأنهم يعدون أنفسهم أكثر ذكاء من الآخرين، فمن سمسرتهم كسبوا الملايين أو في الأقل عاشوا عيشة أفضل من عيشة إخواننا المغتربين. وقال من صعقته المفاجأة: كيف يجمع أستاذ الجامعة بين الجانبين المتناقضين؟ بخاصة أن السمسرة غالبًا ما تحتاج إلى أشخاص من نوع خاص، وبصراحة حسب علمي يجيدون الخداع فمن صفاتهم الحكم على الأمر الواحد بنقيضين فيزينون المعروض للبيع أمام المشتري ويكسرون فيه أمام البائع دفعًا لإتمام الصفقة واستلام النصيب المعلوم. ولكنه استدرك: إلا من رحم ربك.

وكان في ذلك الاستدراك استدراج غير مخطط لأفصح عن دور السمسرة الوحيد في حياتي، ورغم أن القصة طويلة فقد أنصت لها الحاضرون؛ لأنها كانت جديدة، وغير متوقع روايتها في مكان سمر تذم فيه السمسرة، وانقسمت مشاعر السامرين بين الاندهاش والإعجاب أو هكذا بدا لي الأمر، ولكنني مضيت في الرواية..

تعمدت في البداية أن أذكر تاريخ السمسرة وهو سنة ١٩٩٧م، فحينها ما زلت مدرسًا ثانويًا ولا يتعدى راتبي الشهري ثلاثة عشر ألف ريال يمني. وكنت في

مرحلة الإعداد لرسالة الماجستير. وقلت إن دور السمسار سار إليّ ولم أسر إليه، وكانت الصدفة هي المهيمنة في المكان. فقد صادف قبل سنة ونصف من تاريخ السمسرة (مدفوعة الأجر) أن وفقت بين طرفين في شراء قطعة وهما قريب وجار، وبدأت القصة عندما سمعت نية جاري في بيع أرضية له في منطقة ربوة خلف، وبعد شهرين أعرب (عديلي) القادم من الإمارات العربية المتحدة عن نيته في شراء قطعة أرض في تلك الربوة وهكذا ربطت المعطيات نفسها، وبعد أيام تمت الصفقة وكان الشكر والشكر (وبس) جزائي من الطرفين ولم أكن أتوقع أو أريد شيئًا غير الشكر وخدمة الصديقين وانتهى الأمر، (ويا بخت من وفّق راسين في الحلال).

ولكن القصة لم تنته كما كنت أظن فقد تردد اسمي كثيرًا على لسان جاري البائع القديم وذلك عندما عجز أكثر من دلال في التوفيق بينه وبين المشتري الجديد لقطعته الثانية التي تقع في منطقة ديس المكلا. كان السماسرة (الدلل) من طرف المشتري الحريص على إتمام الصفقة، وكان المشتري المرشح زميلًا من زملاء الخدمة العسكرية الإلزامية. وقد أعرب البائع عن رغبته في إتمام الصفقة بهدوء الصفقة السابقة وشفافيتها ولكنه كان يشعر كما فهمت بعد ذلك بنوايا غريبة أو مريبة خيلت له جعلته يتردد وينقبض صدره رغم رغبته في البيع. ولعله في حال نفسه يقول ما قاله الشاعر صالح المفلحي:

على كتف الدلل تفحسك في الأسواق كل يد

وعرضوا بزك البالي على أبيض وأسود

إذن في الأمر حلقة مفقودة!! لهذا فضل مستشارو وأصدقاء المشتري المرشح الاتصال بي شخصيًا لما ظنوا بأنني سأكون طرفًا مقبولًا من الجانبين.

وهذه المشورة والقصة عرفتها من جاري السمسار الحريص على رضاء صديقه المشتري. وكنوع من الإغراء وبالتالي القبول عرضت عليَّ مكافأة السمسرة كاملة وهي خمسة في المائة من قيمة الصفقة عند نجاحها وكان متفقًا أن يدفعها المشتري المرشح.

يعد اللجوء إلي دون معرفة البائع التفافة ذكية من فريق (المشترين). كانت قيمة القطعة شبه المتفق عليها ستمائة ألف ريال يمني، ونصيبي سيكون ٣٠ ألف ريال أي ما يقارب مبلغ راتبي لثلاثة أشهر مجتمعة. ولكن الصورة أمامي حتى تلك اللحظات: طرف مندفع نحو الشراء، وطرف غامض ومتردد. لهذا بعد أن قبلت العرض ركزت جهدي على الطرف المتردد وقد تعمدت اصطحاب ابن أخيه ليكون حاضرًا في أول لقاء، وشاهدًا على أخطر سؤال في الصفقة وهو: هل أنت يا عم سعيد لديك النية الكاملة لبيع القطعة بغض النظر عن التفاصيل الشيطانية؟ وكانت الإجابة واضحة وضوح السؤال: نعم إذا كنت أنت الوسيط فعلى بركة الله..

شرعت في تحديد تفاصيل الخلاف وسبل تقريب وجهات النظر ورأب الصدع في العلاقة بين الطرفين مبينًا لهما أن الصفقة والعقد لا يمكن أن يتما إلا برضا ورغبة الطرفين. كنت على سبيل المزاح أذكر للأهل بأن مهمتي تشبه مهمة

وزير الخارجية الأمريكي (وارن كريستوفر) وقتئذ، من خلال المباحثات المكوكية التي أجريها مع كل طرف على حدة. كان الطرفان لا يرغبان في اللقاء ولكلٍّ أسبابه الخاصة، وتاريخ فقدان الثقة بين الجانبين جعلت من مهمتي صعبة للغاية. فمن بعض التفاصيل تبرز تفرعات جديدة لا بد من عرضها لكل طرف، (والذي أوله شرط آخره نور). وهذا الجهد الشاق غير المخادع جعلني أدرك أن ما يأخذه السماسرة الصادقون من أجر مكسب مشروع لاسيما إذا ربطنا ذلك مع مساعٍ أخرى لإتمام صفقات كثيرة لا ينجح منها إلا القليل.

كانت ثقة الطرفين في شخصي كاملة وكنت أعمل على تعزيز الثقة بين الطرفين أكثر للدفع باتجاه تحقيق الصفقة، ووسيلة الخداع الوحيدة قمت بها في اللحظات الأخيرة التي تطلبت ردودًا سريعة مباشرة من قبل الطرفين، لهذا رتبت لقاءً بينهما دون علمهما.

وهكذا التقى الغريمان.. وعرضت لهما التفاصيل ما قبل الأخيرة وهناك مبلغ تبقى لا بد من حسمه وقدم كل طرف تنازلًا يسيرًا وحسم الأمر تنازلي عن ثلث حصتي من الصفقة أو مستحقات السمسرة.. وأعلن الطرفان القبول.. وتصافح الغريمان بعد أن ظنا كل الظن أن لن يتصافحا.

بقي أن أقول ما لم أقله في ساعة السمر، وهو الإعلان عن رغبتي في لعب دور السمسرة ولكن بالشروط الآتية:

١- أن يحضر الطرفان إلى بيتي راضيين متفقين.

٢- أن يؤمنا بالشفافية المطلقة، وإن أمكن أن يكونا قابلين بتوثيق المفاوضات بالصوت والصورة.

٣-أن لا يقل مبلغ الخمسة في المائة من ثمن كل صفقة عن راتب ثلاثة أشهر من راتبي الجديد..

وكل سمسرة وأنتم بخير



حياكة الحكاية

"وتحاكيا في قصة السفر وسفر الطريق"، تلك آخر عبارة تضمنها مقالي في سلسلة حكايات مهجرية بعنوان: (خالي في طريقه إلى خاله). كانت العبارة أو الحكاية مدخلًا لهجوم مباغت من الدكتور عبده بن بدر عندما وجه كلماته مهددًا ومبينًا خطورة الاعتماد على الحكاية في الكتابة التاريخية والاجتماعية.. وكان لا بد من الدفاع والتوضيح، وقلت مما قلت: إن قصة الهجرة الحضرمية ضاربة بجذورها في التاريخ، وهي أكبر من أن تحتويها رواية أو روايات، وأبعد من أن تلامسها حكاية أو حكايات.

وقد ركز من تصدى بالدراسة لظاهرة الهجرة البشرية بشكل عام على البحث عن الأسباب الحقيقية والدوافع والمؤثرات والتأثيرات العامة، وأغفل الكثير منهم حكايات المهاجرين الخاصة بكل تفاصيلها وانفعالاتها مثل: نجاحاتهم وإخفاقاتهم، أحلامهم وهمومهم، أناتهم وابتساماتهم، غصّاتهم وأفراحهم، آلامهم ومراراتهم، مخاوفهم وتوجساتهم إلخ....

وفي ظني أن ذلك مشهد عميق من مشاهد الهجرة يسهم مع الدراسات الأخرى في الاقتراب من فهم هذه الظاهرة المعقدة والمتداخلة. والمصدر التاريخي أو الوثيقة التاريخية لا تعني بالضرورة الحقيقة التاريخية التي غالبًا ما تختفي وراء جدر. والمؤرخ الماهر هو فقط من يستطيع أن يحطم تلك الجدر ويصل إلى مبتغاه، ويستطيع أيضًا استدراج الحكاية وينتشل من خلف أستارها

ومن داخل مفاتنها ما يشفي شيئًا من غليله أو يروي بعضًا من ظمئه.

وفي غياب النادل وزوغانه المتعمد في تلبية الطلبات حضرت الحكاية الشعبية في مقاهينا الشعبية، وتذوق الحاضرون حلاوتها وانتشوا من حكمتها وعبرتها وحيكت الحكايات وتعدّد الرواة وهات يا حكايات..

قال الراوي: يحكى أن أسدًا وذئبًا وثعلبًا اتفقت على الصيد المشترك، كان لكل منها وجهة نظره من هذا التحالف. قال الأسد في صدره: لا بأس من استغلال دهاء الثعلب وخسة الذئب، وقال الذئب: سأضيف إلى موهبتي قوة الأسد ومكر الثعلب، وقال الثعلب: كم هو شرف أن أكون بصحبة الملك.. كانت حصيلة الصيد معقولة (زرافة وغزالة وأرنب)، ونادى الأسد بأن ساعة القسمة قد حانت وطلب من الثعلب ذلك فاعتذر بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك في حضرة الملك وكبر سن الذئب وحجمه، وأحيل الطلب إلى الذئب الذي شرع في التقسيم: الزرافة لك أيها الملك العظيم والغزالة لي والأرنب للثعلب، لم ترق القسمة للأسد بل صفع الذئب حتى اقتلع إحدى عينيه. وأعاد الملك الطلب للثعلب، وكانت قسمته حسب الآتي: الزرافة هي غداء للملك والغزالة عشاؤه، والأرنب فطوره، فاستحسن الأسد القسمة وسأل مستفسرًا: أيها الثعلب، من علمك الحكمة في القسمة؟؟ فقال الثعلب بخبث: عين الذئب.

ونهض راو آخر: في مدينة اشتهر حاكمها بالظلم والجبروت وفي ساعة من ساعات غضبه وطيشه أصدر قرارًا عاجلًا بطرد الكلاب من المدينة، وتضمن القرار مهلة أربع ساعات، وعقابًا بالإعدام لمن عليه الوقت فات. فتقاطر الكلاب

أمام بوابات المدينة حاملين ما خف وزنه، وزادت قيمته، وفي زحمة الذعر والهلع كان هناك فيل يزاحم من أجل الهروب فاستغرب الجميع من ذلك الفعل، ورغم أن الكلاب كانوا مثل السكارى، وما هم بسكارى سأله أحدها: لماذا تزاحمنا الخروج فقرار الحاكم لا يشملك من قريب أو بعيد، فقال الفيل: أنت تعرف هذا وأنا أعرف، ولكن من يؤكد لي أن حاكم المدينة يعرف هذا؟

وتذكّر ثالث حكاية رمزية أخرى كانت تدرس لتلاميذ الصف الرابع أو الخامس الابتدائي والتي تعزز التربية إلى أهمية الحرية في الحياة، والغريب أن الحكاية موجودة في مناهج التربية والتعليم في حكومة جنوب اليمن قبل الوحدة، وهو نظام يوصف بأنه على غير وفاق مع حرية التعبير، وعلى العموم في حقبة الحرب الباردة تغنى الجميع بالحرية والديمقراطية الشرقية والغربية وادعوا صلة القرابة بينهم وبينهما وهما بريئتان منهم.. وغنى كل على ليلاه...! وبعد أن أدرك صاحبنا أنه خرج عن الموضوع عاد وقال: الحكاية أو القصة سردت بشكل حوار سريع بين كلبين صديقين أحدهما يعمل حارسًا في بيت والآخر مشرد. وتصف الحكاية اختلاف العافية بين الجانبين والراحة الشكلية التي تبدو لصالح الكلب الحارس الذي يبدأ حديثه المشفق والساخر من صديقه بأنه يهيم في الأرض وراء الفتات ويتعرض للإهانات، أما هو فيأتيه طعامه النظيف إلى مكان عمله غير المضني. ويرد الكلب الشريد مبينًا أفضلية وضعه عن زميله بقيمة لا يدركها الكلب السمين شبه الأسير وهي مقدرته على الانطلاق والحرية أنى يشاء. وتنتهي الحكاية عند هذا الحوار الفاتح للتأمل..

وتدخل أصحاب اللغة عندما وجدوا اختلاط الحابل بالنابل وقالوا: إن الحكاية سرد قصصي يروي تفصيلات حدث واقعي أو متخيل وهو ينطبق عادة على القصص السهلة ذات الحبكة المتراخية الترابط مثل حكايات ألف ليلة وليلة. والحكاية في اللغة هي ما يحكى ويقص وهي مصدر مشتق من حكى يحكي حكاية والحكي هو الكلام. والحكايات عبر تاريخها الطويل تنتقل من بلد إلى بلد فتمتلك من كل مكان مزايا جديدة وإضافات مختلفة تطبعها بطابع ذلك المكان.

وقالوا: إن الحكاية الشعبية نتاج فكري جميل تعكس تجارب الشعوب وتنتقل شفاهة من جيل إلى جيل. هدفها أخلاقي مثل تأصيل القيم والعادات الاجتماعية، وإيجاد الحلول المستعصية، أو فتح آفاق للخروج من المشاكل والأزمات، ولا تختلف الحكاية الرمزية عن الحكاية الشعبية في الوظيفة الأخلاقية، وما يميز الحكاية الرمزية أن أبطالها في أغلب الأحيان من الحيوانات أو الجماد، وقالوا: لا بد من التمييز بين الحكايات ذات الأبعاد التاريخية والاجتماعية وبين غيرها، ولا بد من فهم الفواصل والفروق بين القصة القصيرة، والقصة الطويلة، والرواية. فلكل صنف تقنياته الخاصة..

وعاد الرواة.. وهَمَّ آخرُ بالحكاية، وهمَّتْ به، ولكنَّ برهانًا من الديك قال له: الله يهديك، ومن الشيطان ينجيك، وفي ليالي المكلا القادمة متسع يكفيك، لتحكي على راحتك، وتحيك..



هموم ثقافية وهم مثقفين

جاء متأخرًا، جلس بقميصه الأبيض (الجمعاوي) المعتاد، جالبًا معه هذه المرة كوبًا من الشاي ووضعه على الطاولة الصغيرة المستديرة فللنادل في مقهانا دور واحد فقط وهو سحب الأكواب الفارغة، تعودنا طلعته الفجائية، كان يظن أنه بعثر حديث السمر وشتت ذهن من قبله حضر، ولكن لا سر ولا مستتر، بل كلمات في الهواء كالجراد المنتشر، وتتطلب السمر لملمة وصر، لهذا امتطى فارس القصة القصيرة جواده واختصر، وإذا بالقطرات تتحول إلى سيل منهمر.....

تحدث الفارس (سالم العبد) عن هم الثقافة، وهموم المثقف في مجتمعنا العربي. وبلغ مبلغًا بعيدًا، وفي لحظة مناسبة، استدار ووضع حدًا لجماح فرسه وأخذ يركز رمياته على الرواية المعاصرة وإشكالية التواصل مع العالم الخارجي ومتابعة تقنيات الكتابة الأدبية الحديثة والمناهج النقدية المتغيرة. وتمنى مما تمنى أن يكون هناك مراكز خاصة للترجمة بخاصة من اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى العربية، تترجم وتنشر وتعرف بالجديد الذي يدور حولنا.

كان هناك من يراقب هذه السهام بثقة وانتباه ولم يمض وقت حتى أخذ الدكتور خالد بلخشر بزمام الدفاع وبيّن للمتمنين أن أمنياتهم قد تحولت في الأطر الرسمية في عهد المحافظ الأسبق عبد القادر هلال إلى مشاريع خطط مرسومة بخطواتها وتكاليفها وفوائدها القريبة والبعيدة ولكن الثقافة غالبًا لا تعد أولوية من أولويات الساسة العرب.

وتعمد سامر من السامرين تصعيد نبرة الكلام واستفزاز المتكلمين قائلًا: أنتم المثقفين دائمًا حالمون وعن الواقع مغيبون تريدون أن تتحول الحكومات إلى راعٍ ومربٍّ لكم دون أن تتحركوا التحرك اللائق بكم. فبالله عليكم كيف تريدون من الحكومة أن تلتفت إليكم وهي تكاد تحاول توفير الغذاء للجائعين والسكن شبه المناسب للمشردين. وإذا نظرنا للمبدعين في كل مكان وزمان نجدهم برزوا بجهودهم الخاصة بعيدًا عن الرسميين.

ودخل حلبة المبارزة فارس جديد وقال: إن الإبداع الثقافي يمثل منظومة مجتمعية متكاملة، والبيئة السليمة تخلق بيئة سليمة للتنمية والإبداع، وحركة العالم المتسارعة أو ثورة الاتصالات تفرز قيمًا وأنساقًا متجددة تجعل من الجهود الفردية أمرًا صعب المنال، لهذا لا بد من أن تضطلع الدول بمسؤولياتها، وتلتفت لهذا الميدان ولو بأقل القليل، ولا تتحول الثقافة والمثقفون إلى مهرجانات موسمية وموالد فرائحية (وتوتا توتا، كملت الحدوتة).

واستعرض فارسٌ ساحة الميدان، وقال: أنتم بقايا قوات القراءة الكتابية، ومعظم (المحاربين) الآن من المنتمين إلى ثقافة الإنترنت والمعلومة الجاهزة، والأغنية السريعة، والعواطف العابرة، واللقاءات المصورة، والملابس المزررزة، فليأخذ كل حذره ولينظر إلى ما حوله، هل سترفعونهم إلى عوالمكم الخيالية؟ أم ستنزلون إلى مثاويهم الواقعية؟

ومن المشاة، حاول جندي الإجابة قائلًا: هذه التساؤلات تدفع بتساؤلات وتأملات ملحة لا حصر لها تتعلق بالمثقف، ودوره في مجتمعه، هل يشعر أنه

يحمل رسالة التنوير؟ أو حقن التخدير؟ إن لكل جيل عالمه الخاص، وزمن السرعة هذا أدى إلى تداخل الأجيال والمفاهيم والاهتمامات والميول والاتجاهات، وقال: إن علاقة المثقف بالسياسي ليست علاقة عداء وتنافر بل تعاضد وتكامل للفاهمين. ومعروف عن الرئيس الأمريكي (أبراهام لنكولن) أنه قال: إن كلمات الصحافة أشعر بها كالسياط وراء ظهري، ولكنها أمامي نور يضيء لي الطريق.

وبعد انسحاب تكتيكي أعاد فارسٌ المتكلمين إلى نقطة البداية قائلًا: في قلاع المكتبات العامة كانت الرواية وعوالمها المسلية المثيرة مراكز استراحة للمحاربين الرومانسيين. ومنها انطلقوا لعوالم مفتوحة ساروا فوقها بثقة ووصلوا إلى كثير من محطاتها بأمان. والكتاب ليس من بقايا القلاع القديمة وهو خير جليس في الزمان كما يقال. وفي معركة الثقافة يشرع استخدام جميع الأسلحة القديمة والجديدة ولهذا نجد العالم المتحضر الصانع لثورة الاتصالات ما يزال قلاعه معززة بفرسان الرواية والأدب بشكل عام. إنهم يعرفون عدوهم لهذا هم دائمًا مستعدون. ومتقدمون..

وعاد المشاة وتحدثوا: كانت معارض الكتاب بمثابة فرصة لاقتناء الكتب؛ لأنها تقدم مدعومة للجمهور وكنا ممن استفاد من هذه المعارض في شراء الكثير من الكتب وهي حتى الآن تزين مكتباتنا المتواضعة، أما اليوم فتحولت المعارض إلى أسواق تجارية مهرجانية للفرجة والتسلية، فأسعار الكتب تباع بشكل تجاري يضع فيها الباعة كلفة التشغيل والنقل والربح. وينطبق على معظم الزائرين القول:

العين بصيرة واليد قصيرة.

وأخذت الفرسان الغيرة وأشار فارس منهم إلى قلعة ثقافية مكلاوية جديدة غير بعيدة مبينًا أهميتها وحصانة موقعها وحلاوة طلعتها، وبتطويقه لها وجد أنها مركز ثقافي شبه مهجورٍ وقال: إن الدخول إليه والاستفادة منه الاستفادة المثلى سيسهل الكثير من الأمور، ولكن هل من مستجيب؟؟

وحمي الوطيس، وتشابكت الأقلام مع الأقلام، والكتب مع الكتّاب، وتدخل النادل وسحب الأكواب، واضطر البعض لدفع الحساب، وغلقت المقهى جميع الأبواب..



مواضع التواضع

في مكان قريب من الناس يجتمعون، وعلى ضفاف الخور يتسامرون، ولقشر الحنظل يبعثرون. غالبًا ما يشاهدهم العابرون، ومع من دنا من حلقتهم يتصافحون يقومون احترامًا للكبير وتشجيعًا للصغير. من جلاسهم أحيانًا الطلاب، والرياضيون، والفنانون، والمسئولون، والأذكياء، والمغفلون.

من هؤلاء المسئولين فهد سعيد المنهالي الذي يعد الرجل الرابع أو الخامس في أعلى مناصب المحافظة الرسمية الإدارية المدنية. ارتبط المنهالي بخور المكلا عندما كان المهندس الأول المتابع للمشروع من قبل السلطة المحلية، وبعد منصبه الجديد حرص على ارتياد الخور مشيًا على الأقدام عندما تسنح له الظروف كنوع من الرياضة والترويح عن النفس، غالبًا ما نجد في هذه الرحلة المنهالية السلام الحميم من بعيد، وأحيانًا يقبل دعوتنا له بالجلوس.

وفي حلقات السمر المكلاوية هذه كانت أول معرفة مباشرة بهذا (الشاب) ابن جيلي، قامته المعتدلة الأقرب إلى فصيلة طوال القامة، وجسمه المتناسق، وحيويته الظاهرة، وعدم تدخله في عبث الشيب على شعرات رأسه يضفي له وقارًا على وقار. لكن الأهم ما يحمله الرجل من نفس مكلاوية طيبة وثقافة مقبولة ومنطق معقول يحاول به أن يؤكد قناعاته وغالبا ما يحرص على تناول الهم الرياضي بوصفه رئيسًا لنادي شعب حضرموت. وإذا تميز الفهد (الحيوان) بالسرعة، فإن فهد مكلانا يسمع بهدوء، ويقول بهدوء، ويغادر بهدوء..

التقط الدكتور عبدالقادر باعيسى فضيلة التواضع والدفع النبوي في التحلي بها بوصفها أحد ركائز مكارم الأخلاق وقال إن الكثير من أهل حضرموت يتميزون بهذه الميزة واستشهد برأي رجل من أهل الكنانة حضر مأدبة في بيت السيد محسن بن علي المحضار. لا يعرف الضيف المصري المحضار وقبل الدعوة بناء على إلحاح بعض المدعوين ولرغبته في التعرف على المحضار بعد ما سمع عن سخائه في فعل الخير. وفرشت المائدة وانشغل الناس، وكتموا الأنفاس، بينما ضيفنا يتصفح الوجوه لعل بصيرته تدله على مائدة المضيف المستقلة العامرة البعيدة عن المتزاحمين والمليئة بخيرات رب العالمين، ولكن دون جدوى، وبعد أن امتلأت البطون وتفتحت العيون سأل الضيف عن المضيف للشكر والسلام اللطيف، فصعد به إلى الطابق الثاني، كان يحدث نفسه ويسرح بتخيلاته، لعله في مائدته العامرة مع كبار المقربين، وكانت المفاجأة الكبرى بعد أن رأى بأم عينيه صاحب البيت والوليمة يتغدى مع الطباخين والمباشرين وهو منحرف الجلسة حتى تتسع الحلقة لكل الآكلين..

والتواضع المحضاري دفعني إلى الحديث عن جوانب من تواضع الشاعر حسين أبو بكر المحضار كما شاهدتها، فزوجتي وزوجة المحضار من بيت شحري واحد مما هيأ لنا الفرصة في لقاءات عديدة خاصة في المناسبات الأسرية، ومعروف أن سماحة المحضار قبل عبقريته الشعرية هي أحد أهم أسرار تقدير الناس له. وقلت مما قلت إن الدنيا لم تكن كبيرة في عين المحضار ولعل الكثيرين يحسدونه على بيته الواسع الملامس لبحر العرب في منطقة خلف

المكلاوية، ولكني لاحظت أن أكثر ما يسعده من ذلك البيت حفرة بين الصخور مترين في متر طول بعرض، وبعمق متر تقريبًا وتكون جاهزة لرياضة السباحة إذا اشتد الموج، فساعتئذٍ يأخذ شاعرنا حمامًا خمسة نجوم في مسبحه المفتوح، حينها سعادته لا توصف. ولاحظت أن المحضار يرتسم ويتقيد عندما يزوره في منزله الوجهاء من أهل الشحر والزائرين، ولكن انطلاقة لسانه وسرعة بديهته وطرافة تعليقاته لا نجدها إلا مع الظرفاء من أهل الشحر والناس العاديين.

وبلغة متواضعة قال قائل: إن التواضع ليس حصرًا بأحد من الناس فهم مذاهب وأجناس. وأضاف: إن التواضع سلوك نبيل وزينة ونور و.....، لهذا قال نبينا العظيم: من تواضع لله رفعه الله. ولكن مفهوم التواضع يختلف باختلاف الناس والأقوام وما يعده البعض تواضعًا تجده عند الآخرين سذاجة، وما يحسب وقارًا يراه آخرون تكبرًا، وما يوصف باللين يظن ضعفًا، وهلم جرا، والمهم كيف ومتى يضع الناس الأمور في مواضعها؟ وبهذا وضعنا موضوع التواضع، وغادرنا مواضعنا المتواضعة..



جان في بيت شعبان

لا يشك السامرون في حقيقة الجان، وضعف كيد الشيطان، ولكن منهم من يرتاب في علاقاتهم مع الإنسان، بل قالوا ذلك بفصيح اللسان. وعندما تنطط الحديث عن الجن والجان تعوذت بالله أن يحضرون ولما نقوله يسمعون. حاول سامر تلطيف الأجواء، وشد من في قلبه خواء، وقال: يحكى أن رجلًا صعيديًا قيل له لا تأكل بيدك اليسرى فإن الشيطان سيأكل معك فما كان من ذلك الرجل إلا أن وضع السم في الأكل وأكل بيده اليسرى وفي لحظة الاحتضار أفصح عن مؤامرته ورغبته في قتل الشيطان وتصفية الجان.

وغاب الجن وحضرت قصصهم ذات المصدر الغائب، من ذلك: روى أحدهم أن ابن خاله في المناطق الريفية البعيدة عن المدينة كاد أن يجن جنونه بوهم الجان، إذ بينما كان مغادرًا قرية صديقه قبيل المغرب مشيًا على الأقدام، شاهد في منتصف الطريق غنمة تقطعت بها السبل، ووجدت فيه نجدة من خطر محتمل. واندفعت خلفه وأمامه باحثة عن أمان وسلام بعد أن أوشك شبح الظلام، فما كان من صاحبنا إلا أن صار قلبه فارغًا كالهواء، لهذا سارع الخطى، ثم جرى بأسرع مما كان قد جرى، والغنمة لا تزيد على سرعته أو تقل، إلى أن وصل قريته وقد تركزت شعوره وانهارت أعصابه وتلاحمت معدته مع أماصيره. أما الغنمة فقد التقطت الأنفاس وذهب عنها شر الوسواس الخناس.

وذكرت للسامرين أول قصة سمعتها تربط بين الجان والإنسان وهي قصة

والدي (أطال الله عمره) التي حدثت له في قريتنا القريبة من مدينة حريضة. قال الوالد: "كنت ما بين التاسعة والعاشرة من العمر عندما لدغني ثعبان تسبب في ورم كبير في رجلي اليسرى وبعد أن فشل الدواء المحلي اجتمع الكبار وقرروا إحضار (هام الطيور)، وهو لقب للسيد صالح بن محمد العطاس ويشتهر هذا الرجل بامتلاكه لجني يدعى (شرهوت)، وطلب من الحاضرين إحضار نبتة شديدة المرارة وبعد غليها طلب مني شرب جزء من عصارتها، وكذلك فعل، ثم قام بامتصاص موضع اللدغة وبعد أن فرغ كاد أن يهوي بنفسه من النافذة المقابلة فمسكه الرجال حتى خف عنه التشنج الرهيب. والغريب أنني بعد ذلك شفيت، وما أزال أتذكر ذلك المشهد المخيف".

وقال متشكك في هذه العلاقة بين الإنس والجان: "إن في الحكايات برمتها سرًا ما وإن الموضوع عولج في السينما المصرية، بل والغربية، تحت مسمى الأشباح. كما تناولته القنوات الفضائية لأغراض التسلية وجذب المشاهدين. صحيح أنهم يروننا من حيث لا نراهم لكنهم لهم عالمهم ولنا عالمنا."

وتصدى للمتشكك مصدق وقال: إن العلاقة لا غبار عليها وذكر أسماء معروفة تملك الجان من ضمنها (هام الطيور) وأكد – حسب ما سمع – مقدرتهم على إحضار البضائع من المدن البعيدة كالحلوى والأسماك بوساطة ما يملكونه من جن. وأضاف أن (الدمبوشة) وهي العمل السحري ضد فريق رياضي ليخسر المباراة كان يعمل به في المنافسات الرياضية في حضرموت بوساطة هؤلاء الذين يملكون الجن. وقال: منهم من يعمل من الأعمال الشيطانية ما يفرق بين الرجل وزوجته. وتعمد

محايد تناول الموضوع بسخرية واضحة عندما أعلن تمنياته في امتلاك الجن (الصالحين) للقضاء على الأشرار من الصهيونيين وكشف ألاعيب الخائنين.

ودخل شعبان في رمضان، عفوًا.. دخل أحمد عبدالله حسن بطل مسلسل (شعبان في رمضان) وروى قصة الجان التي حدثت في بيته قبيل آن، وقال: "توجد بالقرب من بيتنا عيادة لإخراج الجان وبالقرب منها كان لدى جارنا دجاجة اشتراها الأولاد منه، وبينما كانت الدجاجة تبيض كنا نضع بيضها في الثلاجة ودائما يخبرني ابني الصغير أن البيض ينقص واحدة كل يوم، وعندما كرر الشكوى حسبت بنفسي البيض قبل المنام وفي صباح اليوم التالي أخبرني ابني بهذا النقصان وراح ظني في البداية إلى مقالب الأولاد وعملت أقصى احتياطات الأمان حتى تأكدت بنفسي من هذا الفعل الغريب الشأن. فذهبت إلى أحد المشايخ وقال لي عليك بالتخلص من الدجاجة وإبعادها من هذه المنطقة فالاحتمال الكبير أنها (مسكونة) أي بها جن دخلوها بعد خروجهم عنوة من أحد مرضى العيادة، وكنت مصدقًا وغير مصدق، ولكن حتى نستريح قلنا باب يأتي منه الريح أسدُّه وأستريح".

وظلت الحكايات بحاجة إلى بيان وبيان، وعندما حضرت ساعة المنام، نام من نام، وما نامت عين الجبان..

رجال في تنازل إلى زوال

اضطر سامر من السامرين للذهاب إلى حمامات الخور، فمعاناته مع البروستاتا جعلته يشعر بالرغبة الملحة في التبول. وفتحت هذه الحالة صفحة الصحة والمرض عند الجالسين. لا يتعاطى هؤلاء أي نوع من المنبهات أو المغيبات لكنهم يشربون الكثير من الطيبات ويتجنبون المحرمات. تراهم لا يحبون المدخنين ولا هم من المدوخين. عند البعض منهم حلقات السمر تجبُّ ما قبلها!!

كانت البداية ساخرة ومحذرة فقد قال من يظن نفسه فاهمًا للعبة الحياة والموت: ''نحن جيل ستيني أو على المشارف، هذا إذا شارفنا، وعلاقتنا بسيدنا عزرائيل ستتعزز في الأيام القادمة. لا شك أنه الآن يحوم علينا، ربما نكون في آخر الكشف أو الكشف الذي يليه (وخذ عشر خذ خمسة عشر لا بد لك من زوال)، هو لن يبارحنا بعد الآن ولكن العلاقة الحميمة حتمًا ستتكلل بلقاء'' وأردف مظهرًا إيمانه بالقضاء والقدر: ''صحيح سيدنا عزرائيل لا يعنيه السن من قريب أو بعيد، ولكن السنن الربانية تجعل الأكبر سنًا هم الأوفر حظًا في عناق سيدنا عزرائيل''.

وفي مقابل جبهة التشاؤم وجدت جبهة التفاؤل: ''... إن سيدنا عزرائيل يأتي الكثير من الناس عشرات المرات فيموتون وهم أحياء قبل أن يموتوا موتتهم المكتوبة. إن الحياة حلوة ويستحقها أصحاب القلوب الشابة والعقول المتحررة كما هو شعار مجلة (صباح الخير) المصرية. والحقيقة أن لكل مرحلة عمرية جمالها وطعمها ونكهتها الخاصة، صحيح أنه بدأت تنتاب البعض منا علامات

ضعف معينة في أجزاء من أجسامنا ولكننا نستطيع أن نقاومها أو على الأقل نتعايش معها بأقل الخسائر".

عادت جبهة التشاؤم: "أيش من تعايش والأمراض الخبيثة والخطيرة تعيث في الأرض فسادًا في غياب التشخيص السليم المبكر والتلوث المحيط بنا في أكلنا ومائنا وهوائنا، فلنحمد الله أننا معافون حتى الآن وأننا عشنا حتى هذه اللحظة. وأين الشباب الذي سيدخل القلب والواحد يكاد يصارع دخله مع مصاريفه ويتجاهل معاريفه (وإذا راض هاجس الرأس راضت كل الهواجس)".

ومن كلام الهواجس كان رد المتفائلين: "لكي تريض الهواجس لا بد من التعامل الواقعي معها بوصفها ضرورة من ضرورات الحياة فيجب تجنب ما لا بد منه ونغير ما يمكن تغييره، والهواجس يمكن (هسهستها) بأمور كثيرة على سبيل المثال: التحلي بالقناعة، والرضا عن النفس، لا نكون طرفًا قريبًا أو بعيدًا من المفاسد، نكون قريبين بقولنا وفعلنا إلى الهدي الرباني والسلوك المحمدي نقدم النصيحة بالتي هي أحسن ونبادر للإصلاح بحسب الاستطاعة والظروف المتاحة".

في هذه الأثناء حضر المريض الغائب وبينما هو آخذ مكانه السابق تململت جبهة التشاؤم رافضة ما قيل ووصفته بالكلام المثالي. وقطع الحوار البيزنطي بين الطرفين سؤال وجه للمريض حول مرضه، وكانت الإجابة: أنه يتعاطى الدواء المهدئ أكثر منه المعالج، وأن الأطباء قالوا إن الشفاء يستدعي عملية جراحية ولكن بعد حين.

وعودة للصحة والمرض قال ناصح من الناصحين: "إن وهن الجسم مع تقدم العمر وضع طبيعي وربنا يقول: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ولكن هناك من يستعجل النكوس بنفسه من خلال إهمال صحته فنحن في سن يحتاج أكثر مما مضى إلى نظام تغذية، وحركة تحقق التوازن المطلوب لأجسامنا، وفعلًا تحتاج لفحوصات دورية على الأقل كل ستة أشهر".

وكنوع من سحب السامرين أو (المرضى المرشحين) من أجواء النصيحة والجد وبنبرة تلطيفية قال سامر: "(خل بقعة) مستورة ولو عملنا فحص الآن علينا كلنا لظهرت (بلاوي) فالأفضل نعيش حياتنا ويومنا كما نشعر به وقل كما قال إيليا أبو ماضي:

أيُّهذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا؟

فتمتع بالصبح ما دمتَ فيه لا تخف أن يزول حتى يزولا

ثم، وبصراحة الفحوصات مكلفة وإذا قدر عليها قلة من الناس فالأكثرية لا تستطيع. والوقاية خير من العلاج، مقولة سليمة، لكنها لمجتمعات انتهت من مشكلة الغذاء المغذي والسكن المسكن. وظروف الناس الحالية تجعل بعض المرضى يرى في الفحوصات الاحتياطية والاستكشافية اللازمة وكأنها ابتزاز لجيوبهم، ومن جانب آخر يعمل بعض الأطباء الجشعين تحت هذه الحجة على إجراء فحوصات لا داعي لها ليتحول الفحص إلى (فحس)".

وعودة إلى الجد قال قائل منهم: "الفحص مهم جدًّا على الأقل في قياس

الضغط ونسبة السكر والكلسترول في الدم، والأهم الوقاية والتغذية الصحية ومشهور أن المعدة بيت الداء". وحاول البعض الاقتراب من المناطق الحساسة وقال للمريض بحذر: "هل للبروستاتا مشاكل أخرى غير مشاكل التبول؟" كانت الإجابة بصراحة نعم، ولكنها في حالتي محدودة، ثم انفتح محور جديد عند السامرين تحدثوا فيه عن دواء أزرق لوضع مؤرق.

وقال أحدهم ساخرًا من ضعف (الذكورة): "إن الأدوية المقوية للمرض (التهمة) تملأ الأسواق وزبائنها في ازدياد وخاصة من فئة الشباب" واستفسر عن مدى صدق ما سمعه من فعاليته، وفطن الحاضرون للاستدراج البعيد، لهذا أنكروا معرفتهم به من قريب أو بعيد، ولكنه قال بخبث كل من سألتهم من الرجال أنكروا معرفتهم بهذا الدواء مع أن أصحاب مخازن الأدوية يؤكدون على ارتفاع أرباحهم من الرواد الخجولين. واكتفى أحدهم بالتعليق الذي يليق وقال: "إن الدواء هو علاج لأصحاب المشاكل القصوى ويصرف بوصفة طبية، وعلى العموم كما يقولون دواء القرن الماضي ظهر بعد معضلات تاريخية أقلقت عالم الرجولة الجريحة".

آثر الأغلبية عدم الخوض في هذا الحديث ولو على لسان الآخرين فخطورة التهمة والمتهم تجلب الشبهات وتمس الأمن الداخلي وتعد من الخطوط الحمراء. وعلى العكس من ذلك تظاهروا بالحيوية، وتدافعوا لدفع التهمة (العار) واختفت الأوصاف والألقاب وتخندقوا في قضية المصير، وبعدها يصير

ما يصير. وبدافع هذه الاستماتة والحيوية المؤقتة، قاموا وكثروا في الكلام والسلام ونسوا أن سيدهم عزرائيل عندما يأتي بأمر الحق لا يرسل السلام ولا ينطق الكلام..



والبخيل من لم يصلِّ على النبي

"يقال إن حضرميًا حاول دعوة يهوديٍّ للدخول في الإسلام، وبعد أن ذكر له الكثير من محاسن الإسلام ومكارم الأخلاق التي يدعو لها. دخل مدخلًا آخر لتشجيع اليهودي على دخول الإسلام وقال له إن الزكاة في الإسلام على الأموال التي يدور عليها الحول فقط اثنان ونصف في المائة تدفع للفقراء، ورد اليهودي إن الديانة اليهودية لا تحدد أي مبلغ مفروض لزكاة سنوية، فدخل الحضرمي الديانة اليهودية".

بهذه النكتة اللاذعة بدأت هجومي على الحضارمة شعبًا وحضارة ولأنني في حلقة سمر حضرمية فطبيعي أن أتوقع زجرًا من الزاجرين، أو أحسب مع المتآمرين.

أما السامرون فقد أعجبتهم النكتة ولم يستغربوها، ولكنهم رفضوها. فهناك العشرات من النكت تطلق على (هؤلاء الحضارمة) مبينة بخلهم. وعلى الرغم أن أكثرهم يدرك استفزازي المتعمد، افترضوا في شخصي الجهة التي تطرح تلك الأطاريح، وتؤمن بمثل هذه التصاريح. ووثبت في الميدان وحدي حاملًا لواء التهمة في عقر دار المتهمين، وتحدثت بشجاعة المنافقين، وحكمة المتخاذلين، ووجاهة المتذبذبين.

قال جندي من الجيش المعادي: هناك خلط في الرؤية عند كثير من الناس بين الحرص الحضرمي وتهمة البخل، صحيح فيهم من يقهقره الحرص الشديد إلى مستنقع البخل والبخلاء. والأكيد أن نسبة الحرص هي الغالبة عند

الحضارمة، ومنهم الكرماء إلى مرحلة التبذير ففي موائد هؤلاء التي حضرت بعضًا منها تجد الخيرات الوفيرة المتنوعة.

وبدوري استغللت ضعف الرد وقلت: إنَّ ما تقوله كلام يدخل في العموميات، وما يقوله الناس ويردده عن بخلكم أيها الحضارمة لم يأت من فراغ، لا بد من مواجهة النفس بهدوء بعيدًا عن التعصب. وكنوع من الدبلوماسية الخادعة أضفت: قد تشتهرون بالأمانة وتحدث عن ذلك الناس وشهدوا، فمن هؤلاء أيضًا من وصفكم بالبخل لماذا تأخذون من شهاداتهم أو كلامهم فقط ما يروق لكم؟

وحقيقة الأمر كان هناك من يتابع مناوراتي شبه المكشوفة بصمت وسخرية دفينة وتكلم بهدوء قائلًا: صحيح جندينا السابق تحدث عمَّا وصفته بالعموميات وإذا قلتُ إن البخل والشجاعة والكرم أمور شخصية ونسبية عند الأفراد والجماعات ستقول ما قلته للأول، ولكنني سأتحدث من وجهة نظر شخص من الحضارمة، ويعرف الكثير عنهم، لا بد أن تعلم في البداية أن الحرص سلوك محبب يجب أن يسلكه الغني وغير الغني وجاء في الآية القرآنية الكريمة : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ إنني أعتقد أنَّ الحضارمة فهموا روح هذه الآية الكريمة الفهم الصحيح وأصبحت فلسفة وسلوك حياتهم خرج من معناه الاقتصادي المباشر إلى منهج حياة في تعاملاتهم، كما أن الحرص الحضرمي ينبع من حرص آخر وهو (ثقافة الستر) وعدم الوقوع في حاجة الآخرين.

عندما لمحت شماتة جند الأعداء وسعادتهم لهذا الطرح المعقول أردت أن أبعثر ما شعروا من نشوة وانتصار محدود جعلهم يفرطون في الطلبات على غير العادة ففتحت لهم جبهة جديدة وقلت: أنت لا تزال تتغنى بلغة غريبة على طريقة قول الشاعر لو ثقفت يومًا حضرميًا لجاءك آية في النابغينا. فهذه يا حضارم أشعار تقال على طريقة تعظيم الشاعر الجاهلي لقبيلته وهذا من حقه ولكنه ليس قانونًا أو حقيقة تفرض على الجميع، فيا إخواني لو ثقفنا أي إنسان الثقافة الصحيحة لنبغ وأنت تتكلم عن منهج وفلسفة غريبة، أنت على شاكلة ذلك الشاعر الكبير.

وعليَّ أن أعترف أنني كنت أمام جبهة واثقة متماسكة لا تتشتت بشتات المشتتين ولا تهتز بكلام المشككين ولكنهم لهم صولاتهم ولي صولاتي، فأردت أن أستند إلى التاريخ وما قاله بعض الكتاب عن بخل الحضارم علّ في ذلك ردًّا لكيد المثقفين وقلت: قال محمد لطفي جمعة في كتابه (حياة الشرق): "وترى هؤلاء الحضارم أنفسهم يصرخون بطلب النهضة والسعي إلى الخير والتعطش إلى العلم فهم يحبون العلم والتعليم ما دام الأمر لا يقتضي خروج المال من جيوبهم وما دام مقصورًا على الكلام في المجالس" ثم أمعنت في الهجوم: هناك أطروحات شهيرة تقول: إن الحضرمي بياع عشاه ولولا أنني في ضيافتكم لقلت الكثير من النكت الدالة على ما أقول.

ومرة أخرى أعترف أن العدو ليس سهلًا فقد رد من استصغرت شأنه وقال: استشهادك هذا قرأته في كتابك المنشور وكنت قد احترمتك كباحث مبشر ولكنني

سأتحفظ على هذا الشعور، ففي الكتاب أوردت أسباب (عزوف) أثرياء الحضارم عن الإنفاق في بلادهم في عشرينيات القرن الماضي وذكرت من أهم الأسباب انعدام الأمن وكان تعمدكم لذكر هذا الاقتباس يدخل في باب كيف كان يحاول المثقفون العرب الدفع لانتشال حضرموت من أوضاعها الصعبة. وبالتاريخ هذا الذي استندت إليه سأرد عليك، فقبل أيام قرأت كتاب (حضرموت كشف النقاب عن بعض غموضها) والكتاب ترجمة الدكتور محمد سعيد القدال (الله يرحمه) وفيه تحدث المؤلف (فان در ميولن) عن الكرم الحضرمي في مواضع عديدة، ومن سوء حظك أن الكتاب معي وسأقرأ بالنص استشهادًا واحدًا مما قاله هذا الأجنبي عن أهل حضرموت، فبعد أن وصف المؤلف مشاكل واجهته في رحلاته الداخلية في وادي حضرموت وكيف ساعده أحد الحضارم قال صفحة ١٠١ الآتي: "لعله من المناسب أن نتقدم بالعرفان لحفاوة العرب فمن من الغربيين سيخفي امتعاضه إذا توقف حفل زواجه بمجيء قافلة من الناس المرهقين الجوعى؟ ومن منا كان سيفتح داره فورًا للمسافرين (أبناء الطريق) ويقوم بنفسه بإحضار الماء لإطفاء ظمئهم ويعد لهم في الحال الطعام الذي يقيم أودهم".

استمر جيش الأعداء في المزيد من الطلبات الغريبة وتحاشوا النظر إليَّ كالمنتصر رفيع الأخلاق الذي لا يحب أن يرى الذل أو الهزيمة في عين من غلبه. ومع ذلك لم أستسلم في حين كان الجميع يتهامسون ويتغامزون على أمر مجهول قلت: "تتحدث عن حادث فردي وتعممه، وباصطناع ضحكات: ها عدتم إلى التعميم".

كان جيش الأعداء مستعدًا بالرد ومتحفزًا، ومع ذلك كان سيل الطلبات مستمرًا. وبما يشبه الهدنة تفرغ السامرون بما تحت أيديهم، فقلت في سري ما دام جنحوا للسلم فسأجنح له. وقبل أن يغادر (الأعداء) كانوا متعودين القتال الأخير من أجل المبادرة في دفع الحساب وحتى أدفع عن نفسي تهمة البخل، ما إن نهضوا حتى شرعت بسرعة في إخراج النقود، وتعمد الأعداء التباطؤ تنفيذا للمؤامرة.. ودفاعًا عن كرمي الجريح واعترافي المستتر بنجاح حيلتهم كنت أردد: صلوا على النبي صلوا على النبي.. الجميع صلى عليه.. وبمكر الحضارم قالوا بصوت واحد: "والبخيل من ذكر النبي عنده ولم يصلِّ عليه".



نساء فرقن الرجال

تجاوز بعض الجالسين ما هو مسموح شرعًا من نظرة واحدة عابرة وفقًا لحق الطريق، وبلغ الأمر بأحدهم مبلغًا بحيث لم يرتد إليه طرفه حتى مسح بعينيه بالاستعانة باستدارة رقبته أجزاء واسعة من أجسام السائحات العابرات في جهة خور المكلا الشرقي.. وفتحت تعليقاته شهوة الحديث عن كيد النساء وحسنهن وضعف الرجال ومكرهم.. وفي محاولة من سامر إلى رد الفضيلة إلى مائدة الجالسين استهجن النظرة المفرطة في النساء بوصفهن وعاء للجنس، وتساءل إلى متى ستستمر نظرة الرجل العربي المتخلفة تجاه المرأة، فالإسلام نظم العلاقة بينهما وبمرونته فتح أبوابًا واتجاهات تدفع باتجاه العفة..

ودافع عن نفسه من ظن أن الحديث موجه إليه وقال مقاطعًا: لنكن واقعيين، المرأة الواحدة لا تكفي الرجل، وفي صدر الإسلام كان التعدد وامتلاك الجواري جزءًا من ثقافة ذلك العصر وهذا ما جعل جريمة الزنا محدودة وقتئذ. ولكن هذا الطرح استفز بعضهم وقال: إنه من التخلف أن يجمع الرجل بين زوجتين أو أكثر، واستطرد: لا أرفض التعدد في الزوجات القائم على مسوغ شرعي ومعقول مثل المرض أو معوقات قاهرة للإنجاب.

وتدخل ثالث قائلًا: إن مقاصد التعدد في الإسلام معروفة ولا داعي لذكرها ولكن هناك نساء هن بأنفسهن رغم صحتهن الطيبة وإنجابهن يخطبن لأزواجهن، فلو ترسخت هذه الثقافة لنظر للأمر نظرته الصحيحة غير المضخمة. عاد الثاني

قائلًا: لا توجد امرأة سليمة العقل ترضى بضرة وإن قبلت فهي مكرهة، وما تفضلت به يا أخي ما هو إلا شواذ أو نساء تعرضن لغسيل دماغ لا أكثر ولا أقل..

وبادر رابع بالقول: إن الجنس مهم جدًّا في حياة الإنسان مسلمًا أو غير مسلم، والمهم كيف يتم داخل دائرة الزواج وعندما استعصت العلاقة الزوجية عند غياب الرجال عن زوجاتهم في صدر الإسلام، وخاصة في عهد الرسول ﷺ، ظهرت الحاجة إلى ما يعرف بزواج المتعة وكان ذلك حلًا في حينه لمشاكل بعض الرجال. وإن تحريم هذا الزواج في مذاهب السنة هو نابع من اجتهاد بدأ به الخليفة عمر بن الخطاب ثم تبعه علماء السنة في ذلك وبصراحة لماذا لا يفتح هذا الباب بعد أن تدرس بعناية إيجابياته وسلبياته في عصرنا الراهن الذي أصبح الزواج وتكوين البيت الجديد من الأمور المعقدة، من أجل الوصول إليه ضاعت أجمل سنوات العمر عند الشباب.

وتصدى له خامس قائلًا: نحن أهل مذهب السنة تربينا على ثقافة تزدري هذا النوع من الزواج وهو ليس حلًا لمشاكل الشباب على الإطلاق، وما صح عن الرسول في الإباحة كما يقال ففي ظني يدخل في باب مرونة الإسلام في التعامل مع بعض الحالات أو الحوادث التي هي ابنة ظروفها وعصرها، ولا تنسوا أننا جميعًا غير متخصصين ولا يحق لنا الفتوى والخوض في مثل هذه الموضوعات، ولكنني أعود وأقول إن اجتهاد عمر بن الخطاب ينبع من المدرسة المحمدية ولا يتجاوزها أو يتجرأ عليها واستلزم عصره مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية أن يفكر في مشاكل النساء عند غياب الأزواج.

عاد صاحب الفضيلة قائلًا: إن الزواج العرفي وزواج المسيار هي أنماط من الزيجات تعددت فيها اجتهادات العلماء بين مؤيد ومعارض، وخاصة زواج المسيار الذي اختلفت فيه وجهات نظر العامة كما اختلفت فيه وجهات نظر العلماء ووجد أنصار زواج المتعة فرصة لتأكيد شرعية زواج المتعة وأفضليته، واستغل (الرافض للتعدد) هذا الغموض قائلًا: قلنا لكم من البداية إن الزواج الطبيعي هو الزواج من واحدة وما ذكرتموه يركز على رغبات الرجل فقط وكيف يبحث لها عن مخارج وبصراحة مرة أخرى إذا كان هؤلاء المطالبون بتعدد الزوجات قد أعطوا أهلهم وبيوتهم ما هو حق لهم سأكون متبرعًا للشهادة على زواجهم الجديد على أن تكون الكلمة الفصل للزوجة (الأولى).

وأمام تقاطع الآراء وصعوبة تقاربها حاول صاحب الفضيلة جر الجالسين إلى واقعهم وقال: يا إخوان إن الأسر القائمة على الزوجة الواحدة هو السائد في المجتمعات الإسلامية الحديثة رغم التشريعات في بعض المجتمعات لبعض أنماط الزواج المختلف عليها. والزواج الناجح هو الذي يقوم على الكثير من الأسس تبدأ بقناعة الاختيار من خلال النظرة الشرعية قبل الزواج..

وتشنج واحد من الصامتين وقال: إني لا أرى جانبًا إنسانيًّا في النظرة إلى البنت قبل الزواج بالطريقة المتعامل بها في مجتمعاتنا وبخاصة في المكلا. واستكمل حديثه مجيبا عن الاستفسارات المقاطعة: لا أرفض كلام الرسول ﷺ بل وأشجعه ولكنني أرفض المشهد الغريب الذي يجعل الفتاة المغلوبة على

أمرها تدخل على هذا الشاب الذي يقلب ما سمح له أن يراه ثم تنتظر بفارغ الألم والصبر نتيجة الامتحان وشهادة الزواج، ورأيي الشخصي أن في ذلك استهانة للفتاة وأهلها. وقاطعه آخر: لماذا تنظر بهذه النظرة الأحادية؟ فالمشهد يعني أيضًا تصفح البنت لهذا الشاب ويمكن أن ترفضه. وكان الرد سريعًا: لا نضحك على أنفسنا نحن نعرف أن الكلمة الأولى والأخيرة في هذا المشهد الحزين للرجل فقد استكملت شروط قبوله وبقي شرطه الأخير ليقول فيها كلمته، وقد سمعت عن جارة من أسرة محافظة وقع معها هذا الموقف مرتين وكانت النتيجة سلبية وأثارت هذه النتيجة الرعب في صفوف الفتيات، ولا ننسى أن ثقافة شباب اليوم السطحية نتيجة طبيعية لعصر الإنترنت والفضائيات، على أنني مع النظرة والتفاهم قبل الزواج بطريقة غير مباشرة بحيث لا تترك جروحًا وآلامًا.

تدخلت (الفضيلة) لاستطلاع رأي الحاضرين عن طريق الإجابة (بنعم) أو (لا) عن السؤال الآتي: هل أنت تؤيد النظرة للفتاة بالطريقة التقليدية قبل الزواج؟ الجواب بـ.. لا، نعم، لا، نعم، لا، نعم، لا، نعم، لا... حتى تفرقوا أيدي سبأ.



لا تفرح بالورث يا موروث

(وكم من مال يمسي لمولى غير مولاه).. هكذا دندن صديقنا في أول السمر، وتطورت هذه الدندنة إلى دان حضرمي طويل امتد مع امتداد سويعات السمر المكلاوي الجميل. وردًا على دندنة الصديق دندن صديق: (واليوم مول الدين على بابك يطالب بدينه خارجه يا سلّوم).. وفطن صديق ثالث لمعنى الدندنة وقال بجديته المعهودة: إن هاتين الأغنيتين تؤرخان لمرحلتين مهمتين من تاريخ حضرموت وهما مرحلة التأميم لمساكن وعقارات المواطنين بعد الاستقلال، ومرحلة الوحدة حين عادت هذه الأملاك لأهلها، وأردف قائلًا: ومعروف أن في السنوات الأولى للجمهورية اليمنية خُيِّر الناس (المستأجرون) في المكلا وعدن على وجه الخصوص بين امتلاك ما هو مؤمم مقابل تعويض للمالك وبين قبول تعويض قطعتين من الأرض مقابل عودة البيوت لأصحابها فاختار أغلبية الحضارم أو كلهم عودة الأملاك لأهلها.

وفي تصوير مفرح لهذا الانتقال العادل قال سامر من السامرين: عودة الحقوق لأهلها أعاد الأمور إلى نصابها، والله يقول: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وعادت العافية والنشاط لأسر كبيرة كان قانون التأميم قد قذف بها إلى مربعات الناس العاديين وبعضهم إلى دون ذلك. ووسط سلبيات قوانين التأميم التي هي بنت عصرها الثوري (العاطفي)، كانت هناك جوانب إيجابية فخلال عشرين عامًا من التأميم حوفظ على هذه الممتلكات من العابثين ومن عبث الورثة والوارثين وتلقفها جيل جديد غمر بحظ وافر عندما وصل أسعار بعضها

إلى مبالغ خيالية مسنود ذلك بآمال كبيرة في العهد الوحدوي ومدفوع من مخاوف تبعات ما بعد الغزو العراقي للكويت.

وحتى تكتمل الصورة بإيجابياتها وسلبياتها عقب أحدهم قائلًا: هناك مشهد آخر من مشاهد عودة الأملاك بعد غياب فقد توسعت الأسر وضعف ترابط بعضها، وخلقت مسألة توزيع الإرث مشاكل لا حصر لها امتدت إلى المحاكم وفي أسوأ الحالات خلق نوعًا من القطيعة بين أبناء العم وتجذرت، وتحول ما ظن عند جمعه من (خشاش الأرض) سندًا للأبناء والأحفاد إلى وباء قطع الأكباد.

ووضعنا صديق في مشهد الورث والوراثة عندما يتم خارج الشرع ومحكوم بتعقيدات يتدخل فيها أحيانًا أهل الاختصاص وقال: هناك مشاكل بين بعض العائلات وخاصة الأشقاء والشقيقات حول بيع جزء من الأملاك أو تخصيصه لعدد من الأبناء دون غيرهم بحجة مثلًا الأولاد الصغار وتأمين مستقبلهم أو البنات وحفظهم في بيت أو جناح مستقل خوفًا من تقلبات الزمان وتغيرات الأحوال، وهناك من يستحسن من العلماء هذا الأمر بوصف الأب صاحب المال ومن حقه وهو في كامل وعيه أن يحيله إلى من أراد.. وزاد سامر من السامرين أن معظم الخلافات والانقسامات الأسرية تحدث عندما يتم ذلك التصرف في الخفاء فما إن يغادر الموروث الدنيا حتى تجد السيوف على الرقاب والنصال على النصال، ويا قهري على الرجال..

وتكلم من فطن أن حجر الزاوية والعروة الوثقى ضاعت على السامرين والورثة والموروثين قال: إن التهرب من تقسيم الورث بعيدًا عن عدالة الله لا بد

أن يعود إلى أمرين أولهما الجهل والاستماع إلى ضغوطات النساء، وثانيهما فشل الآباء في تربية أبنائهم التربية الصحيحة فلو ربوا أبناءهم التربية الصحيحة لرحم الكبار الصغار واحترم الصغار الكبار وهنا مربط الفرس...

ومن مشهد كئيب إلى آخر...: كان والد أقربائي ثريًا ولكنه لم تظهر عليه بوادر النعمة ولا على أبنائه بل كان يعاملهم كعمال أو موظفين غريبين وبغباء التذاكي كان يحاول أن يثير الحساسية بينهم في تقريب أو إبعاد بعضهم حتى يتنافسوا في الإخلاص له، وحرمهم مما يرون أنهم أحق به من غيرهم أدنى منهم والقصة طويلة ،ولكن المهم وبعد طول عمر رحل الأب الشقي بدون رجعة، ولم تمر الأربعون يومًا على الوفاة حتى أخذ كل فرد نصيبه، وما إن عدَّت الأربعون حتى كان منهم من يتجول في عواصم عربية ويقذف بأموال حفظت لسنين في الظلام فوق أجساد تتظاهر بالهيام...



سمر بمعروف أو فراق بإحسان

بينما كان من السامرين مَنْ قد دفن في بطنه ما فوق الصحون، وتطيب بالعطر والدخون، كان منهم من قد أسهم في دفن من جاءهم الحق المسهون، المكتوب في العلم الإلهي المكنون. وكما استدارت لعبة الحياة بأفراحها وأحزانها استدار الجالسون، وتبادلوا حديث الشجون.

قال معتدل من أصحاب المقابر:

هناك مثل يقال مبينًا عدم وفاء الرجال عندما تتوفى زوجته (رجل في المقبرة ورجل تبحث عن مرة) وهذا المثل في الغالب يسقط على الرجال الذين تقل أعمارهم عن الستين عامًا، وعلينا أن لا ننكر نحن الرجال أن أكثرنا من هذا الصنف، ويغلف عندنا، أو يسوغ عدم الوفاء بكلمات حق يراد بها باطل، مثل: الحاجة إلى من تهتم بالبيت والطبخ وخلافه، أو المساعدة في تربية الأبناء. وعلى النقيض من ذلك نجد المرأة التي يتوفى زوجها لا تشخص عينها ولا يكون همها إلا بيتها، وكيف تحافظ عليه، بعيدًا عن رجل غريب...

قال أصحاب الصحون:

ربما كلامكم فيه شيء من الصحة ولكنه يجانب التفكير الواقعي فعمل الرجل الأساسي ومصدر رزقه خارج المنزل ويستدعي غياب الزوجة البحث عن بديل لها ولعل المثل الشعبي خلط بين النوايا الداخلية وحقائق الواقع وتنسون أن بعض النساء وهذا من حقهن يقبلن الزواج من آخرين وإن كن بنسبة أقل.

قال أصحاب المقابر:

إن الحقيقة الوحيدة هي الموت فبالأمس كان ضيفًا على المقابر شابٌّ في الثلاثينيات من العمر وقبل وفاته بأشهر كان بصحبة زوجته المريضة إلى خارج الوطن للعلاج من مرض خطير. وعليه أن ينتظر كما أخبره الأطباء ستة أشهر في أحسن الأحوال حتى تغادر زوجته الدنيا، ووصف من شاهد مشاعر الزوج في رحلة العودة بالتظاهر بالأسى ولكن أحيانًا تفضحه حركاته بعكس شقيق المريضة المصاحب لهما، وبينما هو في انتظار خبرها الأخير جاءها خبر الأخير....

قال أصحاب الصحون:

معروف أنه كم من صحيح مات بغير علة، وكم من مريض عاش حينا من الدهر. ولكن الحياة لا بد أن تستمر، ونعيشها، ونتمتع بها بما يرضي الله. وفقدان عزيز لا يعني نهاية الكون وإن قدر للعزيز الراحل أن يتكلم لقال للأحياء عيشوا حياتكم قبل أن يأتي خبر مماتكم.

قال عاشق للمقابر:

إذا كان السلاطين يقولون: إما القصر وإما القبر، ولا ثالث بينهما، فإن المرأة المتزوجة لها ثالوثها الذي لا رابع له وهو: بيت أبيها، بيت زوجها، وقبرها.

تململ أصحاب الصحون من طغيان ثقافة المقابر وتعمدوا جر السامرين إلى الموائد ومجالسها وقالوا: لم يعد هناك سحر لولائم الأفراح المكلاوية ولا دفء، فأصحاب الوليمة يزجون بالمعزومين إلى مكان واحدٍ يختلط فيه الحابل بالنابل

(وحداد ما يسمع حداد) ولا يكاد الواحد يفرغ من تناول (لقمته) حتى يحرص على مباركة أهل الزواج ومجاملتهم قبل المغادرة إن عثر عليهم!! في حين كانت الولائم القديمة تعد حفلة وعرسًا يشارك فيه الجيران الذين تكون بيوتهم مفتوحة ومستعدة الاستعداد الكامل في استقبال الضيوف، فالعرس هو عرس المنطقة أو الحافة كلها ويشاهد المعزومون تفاصيل العزومة من خلال مشاهدة الطباخ وأوانيه النحاسية التقليدية، وما تبقى من النيران والرماد، ويستنشقون في المكان رائحة (رز العرس) المميز الذي تفشل أنواع الصابون في إزالة رائحته إلا بعد حين..

وهكذا تقاربت كفة الفريقين وساعد ذلك في تدخل كفة ثالثة ركبت موجة الوسطية كي لا تغمرها القبور، أو تسحبها الصحون، وقالت: إن الزواج في الإسلام يقوم على مبدأ أساسي غفل عنه الكثيرون وهو: (الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان)، ويدخل في المعروف الصبر المشترك والمحتمل بما يجعل الحياة تستمر ولو في حدودها الضيقة، والقرآن يحث في آياته على ذلك. وينتهي المعروف عندما يتجاوز طرف أو الطرفان معًا حد ما هو معقول ومحتمل.

قال أصحاب المقابر:

إن قرار الطلاق بيد الرجل والقرآن يتحدث عن الرجل وحثه على الصبر بل ويقول: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

قال أصحاب الصحون مقاطعين:

إن القرآن يتحدث قبل وقوع الطلاق عن خلاف مشترك لهذا يتطلب

الأمر التسوية وحكمًا من أهل الزوج وحكمًا من أهل الزوجة وصحيح أن القوامة للرجل وأن قرار الطلاق بيده، وهذه المكانة في الإسلام هي تفضيل مسؤولية وليست شرفًا، وفي حالة الرجل العالة على زوجته فإن القوامة في ظننا أحق بها الزوجة.

المقابر مقاطعة:

ألم تسمعوا الحديث الذي يقول لو أمرت أحدًا من البشر أن يسجد لأحد من البشر لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها.

الصحون مقاطعين:

السجود فقط لله، ولو سجدت نساء لرجال لكان أحق بالسجود سيدنا محمد ﷺ، ويا إخوان نحن غير معترضين على السجود بمعناه المجازي ولكن هاتوا لنا رجلًا أو زوجًا مثاليًا بربع أخلاق الرسول وسنأمر النساء بالسجود له.

واشتد الحوار بين الطرفين وتشادوا في حق الطلاق والعصمة والخلع وتصادمت آراؤهم، ولهذا تدخلت الكفة الوسطية بقوة وقالت: إما سمر بمعروف وإما فراق بإحسان..

هذا الكتاب..

هو الكتاب الثاني للكاتب المؤرخ الأديب أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي الذي يصدر عن دار (مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع). فقد سبق أن أصدرت الدار الطبعة الثانية من كتابه (عابر سبيل). وهذه هي الطبعة الثانية من كتابه الأول في هذه السلسلة الرائعة التي تجمع بين التاريخ والأدب والطرفة، (أوراق مكلاوية). لقد كان لهذا الكتاب صدى واسع من الإعجاب والتقدير في أوساط القراء من كل المشارب عندما صدرت طبعته الأولى، وربما وجدوا فيه لونا من الكتابة كانوا يفتقدونه! وما أعرفه ان المؤلف ما زال في جعبته الكثير من المقالات، التي تنتمي إلى هذا اللون من التأليف أو تقترب منه، نتمنى أن يتحفنا بها مجموعةً في كتاب قادم بإذن الله.

ومكتبة الصالحية يسعدها ويشرفها أن تقدم دائما النسخة الأكثر إتقانا، من وجوه عدة، من إصدارات الدكتور عبدالله الجعيدي في هذا اللون الطريف الممتع من الكتابة. هذا ما نأمله والله ولي التوفيق.

الناشر

